كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد : ١٥٥ جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ السنة الثالثة والثلاثون

العروج الحضاري

بين مالك بن نبي.. وفتح الله جولن

أ.د. فؤاد عبد الرحمن البنا

فؤاد عبد الرحمن محمد البنا

* من مواليد اليمن.
* دكتوراه في الفكر الإسلامي السياسي (جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم).
* أستاذ الفكر الإسلامي السياسي في كلية الآداب بجامعة تعز.
* أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة تعز وجامعة العلوم والتكنولوجيا.
* حصل على عدد من الجوائز العلمية.
* له عدد من الكتب المنشورة، منها:

- التفكير الموضوعي في الإسلام.
- العالم الإسلامي بين التخلف الحضاري ورياح العولمة.
- منطلقات الخطاب الإسلامي المعاصر في مواجهة المتغيرات العالمية.
- تيارات التجديد في الفكر الإسلامي الحديث.
- الخصائص العامة لحقوق الإنسان في الإسلام.
- تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية.
- عوامل الإعاقة الحضارية في تدين المسلمين.

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص. ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. محاولة جادة للإجابة عن سؤال النهضة من خلال استدعاء منهج رائدين من رواد النهضة، والقيام بمقاربات ومقارنات لمنهجيهما، يمكن تصنيفها في إطار استدعاء ثقافة التقويم والمراجعة والفكر المقارن، الأمر الذي أصبح يعتبر من لوازم التصويب والتسديد وتحقيق الاعتبار.

ومن الإنصاف القول: إن «فتح الله جولن» شكل مع إخوانه في الحقول الدعوية والثقافية والسياسية، أنموذجاً معاصراً، حيث أدركوا أهمية مواقع بناء خمائر التغيير والنهوض في تركيا العلمانية، ذلك أن الأمة المسلمة تاريخياً إنما أُخرجت من خلال كتاب ولم تتشكل من خلال الحراب، والجهاد الكبير إنما كان بالقرآن ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢)؛ فبدأوا العمل في العمق وتركوا العبث بالسطح السياسي للأيدلوجيا الجديدة الصادمة لروح الأمة.

لقد أبصروا أن الجهاد بالقرآن هو سبيل الخروج من النفق، وليس المواجهة الخاسرة؛ وأخذوا مواقعهم في خدمة المجتمع والتدرب على إدارته، واستطاعوا استرداد الهوية وإحياء قيم الدين دون أن يخسروا ولو نقطة دم واحدة.

ويبقى أن نقول: إن دراسة حركات وأعلام التجديد وتقويم مسيرتها يشكل المساهمة الحقيقية في بناء الوعي والارتقاء بالواقع الإسلامي.

لقد جاء الخطاب الإسلامي في الكتاب والسنة للناس، كل الناس، المؤمن والكافر، لذلك لا يجوز اختزال تاريخه الحضاري بمفهوم أو مصطلح أو تفسير أو شخص أو جغرافيا أو مذهب أو جماعة، فالإسلام ليس حكراً على أحد؛ واختزاله في جماعة أو تنظيم أو طائفة أدى إلى إساءات خطيرة، وأنشأ فهوماً معوجة وخسائر فادحة.

وحملة العِلْم العُدول من كل خَلَف هم المنوط بهم تلك المراجعات والعودة بمفاهيم الإسلام الصحيحة إلى الأمة، والعودة بالأمة إلى قيم الكتاب والسنة.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa
البريد الإلكتروني : E-mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

العروج الحضاري

بين مالك بن نبي.. وفتح الله جولن

أ.د. فؤاد عبد الرحمن البنا

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣٤هـ

نيسان (إبريل) – أيار (مايو) ٢٠١٣م

فؤاد عبد الرحمن محمد البنا

العروج الحضاري: بين مالك بن نبي.. وعبد الله جولن.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٣م.

٢٤٠ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٥٥)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠١٢/١٤٤

الرقم الدولي (ردمك): ٩٧٨-٩٩٩٢١-٩٢-٢٣-٨

أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولــة قطــر

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشـــر في هذه الســـلسلة يعبر عن رأي مؤلفـــيها

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿... إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ
وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

(هود: ٨٨)

إدارة
البحوث والدراسات الإسلامية

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

- إعادة تشكيل العقل المسلم في ضوء معرفة الوحي
- إحياء مفهوم فروض الكفاية وأهمية التخصص

ثلث قرن من العطاء..

قطر - الدوحة - ص.ب :٨٩٣ - هاتف : ٤٤٤٤٧٣٠٠ (٩٧٤) - فاكس : ٤٤٤٤٧٠٢٢

www.sheikhali-waqfiah.org.qa E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي جعل الأمة المسلمة وارثة النبوة بكل عطائها، وتجربتها، وعبرتها، وجعل محور حضارتها وثقافتها وقيمها ومعتصمها من التفتت والانقراض والانكسار الحضاري (كتاباً)، فكان هذا الكتاب (القرآن) العامل الأوحد في تشكيلها الإنساني، حيث جاء تشكيلها من كل الأجناس والألوان والأعراق، فهي دون سواها من الأمم تشكلت من خلال الفكرة، وثمرة الإرادة والاختيار الحر، فهي أمة الفكرة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على وصول البشرية إلى عتبة الرشد الإنساني وبلوغ الإنسان أرقى مراحل تطوره واكتماله، وجاءت العلاقة بين أبنائها قائمة على آصرة الأخوة، فالمؤمنون إخوة، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠)، ويقول الرسول ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (أخرجه البخاري)، ويقول: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ...**» (أخرجه البخاري)، فإن كان ظالماً أخذ على يده ومنعه من الظلم، وإن كان مظلوماً أخذ بيده ونصره.

وأمة تشكلت عقيدتها وفكرها وسياستها من خلال الكتاب (القرآن)، وبني سلوكها وصنعت أخلاقها من خلال المحراب (المسجد) لهي أمة جديرة بأن تثير الاقتداء وتتحمل مسؤولية الشهادة على الناس وقيادتهم إلى الخير، وذلك بما تضطلع به من رسالة نشر قيم الحق والعدل والإحسان، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، والوسط هنا هو إقامة العدل ونصرة الحق.

فنشر قيم الحق والعدل ونصرة المظلوم وتأمين حرية الإنسان وحماية كرامته وحقوقه من الانتهاك، وخاصة حرية اختياره، وعدم فتنته وذلك بإكراهه على تغيير معتقده، وغيرها من الخصائص كثير، هو الذي أهَّلها لمقام الشهادة على الناس وهدايتهم إلى هذه القيم الخيِّرة، وجعل هذه الأمة بطبيعة تكوينها الإنساني مجتمعاً مفتوحاً تأبى التعصب، وتبرأ من نزعات العنصرية، وتستعصي على الانقراض الحضاري، وعلى الأخص أن من تكاليف عقيدتها حراسة هذه القيم من التحريف والتأويل والانتحال، وذلك لضمان المسيرة الصحيحة، ونفي نوابت السوء، والحفاظ على نقاء التلقي.

فالنقد والمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق وكشف الزيف والباطل هو حسبة هذه الأمة، يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠)، ويقول الرسول ﷺ: «**يحمل هذا**

العلم من كلِ خلفٍ عدُوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين» (أخرجه البيهقي)، وهذا التكليف حقق ولا يزال يحقق استمرار الوقاية من علل التدين، التي لحقت بالأمم السابقة وكانت سبب انقراضها، ويحمي الفهم الصحيح لقيم الدين.

والصلاة والسلام على المنقذ من الضلال، الهادي إلى سواء السبيل، الذي اجتمعت في شخصه كمالات الأنبياء وخصائصهم، وانتهت إلى رسالته أصول الرسالات السماوية، من لدن آدم، عليه السلام، وجعلَ الله الإيمان بما سبق من كتب سماوية شرطاً لصحة الإيمان بوحيه الخاتم، كما جعله مهيمناً عليها، أي مبيِّناً ورقيباً ومصوباً للرؤى الدينية السابقة وكشف ما لحق بها من تحريف وزيغ وضلال واعتلال، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨).

وبهذا الإيمانُ بما سبق من الرسل والكتب، وبتلك الهيمنة اكتسبت النبوة الخاتمة خاصية النقد والنقض والتقويم والتصويب، كما تحققت بالعمق الفكري التاريخي لجميع الأمم والامتداد المستقبلي لوجهة الحياة، وبتلك الخصائص والمقومات من رصيد النبوة والوحي الخاتم امتلك الرسول ﷺ مؤهلات الشهادة على الأمة، نواة الحضارة الإنسانية وأنموذجها، يقول تعالى مبيناً هذه المهمة: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وامتلكت الأمة المسلمة السائرة على نهجه، في الوسطية والاعتدال، خاصية الشهادة على

الناس، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وأدركت أبعاد ومسؤوليات هذه الشهادة واستحقاقاتها من المناصحة، والتسديد، والمحاورة، والدعوة، والبيان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحقيق التنمية والتزكية السليمة، والوقاية من الإصابات، أو التقوى، والكشف عن مواطن السقوط والانحراف، والتحذير منها، الأمر الذي يشكل روح الأمة، التي تعتبر الرافعة الأساس لارتقائها ودليل خلودها وبقائها واستعصائها على الانقراض؛ وتلك بعض الأبعاد الكثيرة والكبيرة للشهادة على الناس، التي يصعب الإحاطة بها في هذه الكليمات البسيطة والمساحات المحدودة.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الخامس والخمسون بعد المائة: «معادلات العروج الحضاري بين مالك بن نبي وفتح الله جولن»، للدكتور فؤاد البنا، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في سعيها المستمر لبناء النخبة، العدول من كل خَلَف في الأمة، الذين يحملون الأمانة، ويؤدون الرسالة، ويفقهون الوحي بكل مقاصده، ويفهمون الواقع بكل مشاكله ومكوناته وتعقيداته، ويوائمون بين فقه النص المنزل ومتطلبات الواقع القائم، ويؤمنون بالتخصص العلمي والمعرفي الموصل إلى الإحاطة بعلم الأمور، والتكامل بين التخصصات، لبناء العقل والمجتمع والدولة والأمة، استجابة

لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦)، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ (يونس:٣٩)، وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة:١٢٢)، ويشكلون الترسانة الفكرية والفقهية، التي تحمي الصواب وتكفل النمو والارتقاء وسلامة تنزيل القيم على واقع الناس وتحوُل دون الانحراف على مستوى (الذات) المتمثل بالغلو والانتحال والتأويل، كما تحول دون الاختراق على مستوى (الآخر)، الذي يستهدف تغذية هذه الإصابات وزرع الألغام الفكرية والاجتماعية وتوطينها في الداخل الإسلامي، والحيلولة دون تصويبها ومراجعتها ونقدها ونقضها بمعاذير ومسوغات خادعة أو مخادعة، متدثرة في كثير من الأحيان بغطاء ديني وفلسفات شرعية ميتة ومميتة لم تحمل لنا إلا الصاب والعلقم.

ونرى أنه من الأهمية بمكان استيعاب الأمة لمهمة هؤلاء العدول في كل خلف، رواد الإصلاح، الذين يحملون العلم، وإدراك أبعاد وظيفتهم، ووسائل عملهم وتعاملهم، ودورهم التنموي التزكوي والحمائي للأمة.

ولا شك أن الوصول إلى بناء أهلية هذه النخبة وتوفير مواصفات هذه المهمة يتطلب النظر والمراجعة لكيفية تشكلها وتنوع تخصصاتها، وليس ذلك فقط وإنما قد يكون المطلوب العمل على بناء المناخ الحر المسؤول والملائم، والبيئة المناسبة لبناء هذه الخرسانة الواعية لفكرها وفعلها وتفاعلها وتواصلها

مع الأمة، وتحضير الشروط الموضوعية والفرص المتكافئة لبروزها العلمي والطبيعي من خلال الميدان الواقعي والموضوعي، بمعنى أن تأتي ثمرة لسنن التدافع الاجتماعي والتنافس العلمي والثقافي في حياة الأمة لبلوغ الموقع المؤهل لهذه المهمة.

ولعل في مقدمة ثمرات بناء هذه النخبة أن يشيع في المجتمع تقبل ثقافة التقويم والمراجعة والنقد والمثاقفة والمفاكرة والمناقشة، التي تنتهي غالباً إلى حصحصة الحق وجلاء الحقيقة، والاعتقاد أنها من تكاليف هذا الدين والتي تهدف إلى مقصد واحد وهو تنقية المجتمع المسلم من نوابت السوء، والارتقاء به، وتخليصه من الاستعباد والاستبداد، والعودة به إلى الينابيع الأولى قبل أن يلحقها ويداخلها العكر، وحمايته من الإصابة بعلل التدين، التي لحقت بالأمم والحضارات وكانت سبب انقراضها.

ذلك أن غياب الاستشعار بأهمية التقويم والمراجعة والحس بالمسؤولية عنها أوقع العمل الإسلامي والعاملين للإسلام بالكثير من الحفر، وغيَّب الحذر والاتعاظ والاعتبار، وأدى إما إلى كثير مما نراه من سوء التقدير واستمرار الدخول في المواجهات الخاسرة والوقوع في الفخاخ المنصوبة لنا وخوض المعارك الخطأ، وإما إلى الإحباط والانسحاب من المجتمع وانطفاء الفاعلية، وترك الأمور مغيّبة عن الوعي، والعجز عن الإفادة من تجربتها وعبرتها للأجيال القادمة، والسقوط في ذهنية اليأس، وإيثار السلامة الخادعة.

لذلك فقد لا نستغرب قول بعض الغيورين: إن العمل الإسلامي المعاصر قضى ما يقارب القرن من الزمان وهو يراوح في مكانه، ويكرر أخطاءه، ولا يفيد من تجربته الذاتية، ولا يشعر بالمسؤولية التقصيرية؛ وتغطيةً للفشل يؤثر الهروب إلى ساحة النوايا، التي يصعب ضبطها وكشفها وقياسها ومعايرتها، والتي الله أعلم بها والتي قد تكون في بغض الأحيان عمياء غير مبصرة لطريقها وغير مدركة لأبعاد ونتائج فعلها.

وفي أحسن الأحوال قد نجد أن ساحة الهروب غالباً ما تُسوّغ وتُغطى أيضاً بالعبث في تنـزيل النصوص الشرعية على غير محالها أو بالفهوم المعوجة والمغشوشة للإيمان بالقدر، فيأتي الجواب عن التقصير والخطأ والخلل وعدم الاعتبار ومصادمة سنن الله في الحياة والأحياء بأن هذا قدرنا(!) وبذلك نوصد الموضوع، بكل أخطائه ومسؤوليته التقصيرية، ونعطل العقول، ونحول دون أي سبيل للمناقشة أو المراجعة أو النقد أو التقويم وتحديد مواطن الخلل وبيان أسباب الفشل، ويكون ذلك مؤذناً، بشكل طبيعي، باستمرار مسلسل الفشل والسقوط، وكأن القدر خصم لنا، يستهدفنا دون سوانا من سائر البشر!

إن هذا الفهم المغشوش للقضاء والقدر، الذي يسلب الإرادة ويعطل الفاعلية ويبطل المسؤولية ويتعارض مع التكليف ويخالف سيرة الرسول ﷺ وفعل الصحابة، خير القرون، هو سبب التخلف والاستنقاع الحضاري وتغييب العقل وإلغاء المسؤولية وتعطيل آلية المراجعة والتقويم والنقد، وبيان مواطن القصور وأسباب التقصير واكتشاف الخلل واستمرار الفشل...

كما أن هذا الفهم المغشوش قد يقود بعضنا إلى تحريم وتجريم التقويم والمراجعة؛ لأن ذلك من الاعتراض ينافي مشيئة الله وقدره، إذ لولا القدر لما كان الفشل!!

أما فهم القدر وأبعاد الإيمان به كما بيَّنه الرسول ﷺ بفعله وقوله وأدركه الصحابة بتعاملهم مع صناعة الحياة وإقامة الحضارة واستيعاب سنن المدافعة وامتلاك القدرة على تسخيرها ومواجهة قدر بقدر والفرار من قدر إلى قدر فذلك فقه وفهم لا يلائم إنسان التخلف، ويجعل (الآخر) أحق بإدراكه وفهمه وممارسته وتفوقه وسداد وسائله والإفادة من تجربته وعبرتها.

فأين المسلم الحق المؤمن بالقدر كما بيَّنه ابن القيم، رحمه الله: ليس المسلم الذي يستسلم للقدر، بل المسلم الحق هو الذي يغالب القدر بقدر أحب إلى الله؟ أين المسلم الحق اليوم من مجتمعنا المتخلف وأمتنا المهزومة وفعلنا ومفاهيمنا المغشوشة وثقافتنا الشرعية القاصرة ونخبنا الفاشلة والعاجزة، التي تحاول أن تستر عوارها وتغطي عورتها بفلسفة بئيسة للقدر ليشكل لها حماية من المحاسبة والمراجعة والمسؤولية؟ ولو كان ذلك المفهوم كذلك لما كان معنى للحياة والتكليف والحساب والثواب والإيمان بيوم الحساب، حيث يُسأل الإنسان عن مثقال الذرة، ولأصبحت الحياة عبثاً من العبث!

لذلك نقول: قد يكون من الأهمية بمكان اليوم وبعد هذه الإخفاقات المتوالية والإحباطات المستمرة والهزائم المتكررة وتغييب العبرة والمراجعة حتى لا يخترم الإيمان بالقدر، بزعمهم...! قد يكون من الأهمية بمكان القيام بعملية مراجعة وتحرير وتقويم للمفاهيم والأفكار والوسائل والثقافة السائدة، التي

باتت تشكل الذهنية المسلمة اليوم، ونفي ما يداخلها من تحريف وانتحال وغلو، في ضوء قيم الإسلام الصحيحة وظروف العصر المركّبة والمعقدة والمتداخلة والتي أصبحت اليوم تتطلب النظر فيها من خلال تخصصات معرفية متنوعة؛ لأن الثقافة السائدة مدانة بالواقع البائس، الذي ما تزال تنتجه، والخيبات المستمرة التي تورثها، والفشل الدائب الذي ما يزال يلاحقنا، حيث يسلمنا فشل إلى فشل، ومع ذلك يصر بعضنا على المفاهيم والأفكار والأشخاص والقيادات نفسها، تحت ذريعة: (ليس بالإمكان أفضل مما كان)، وأن ذلك كله قدرنا!! كيف لا وهذه المفاهيم هي مفاهيم إسلامية شرعية مستقاة من قيم الإسلام، وشعارها إسلامياً!! لذلك فقد تكون الإشكالية، كل الإشكالية، في إحاطتها بأسوار من القدسية وتحضير الناس من خلال الفهم المعوج للإيمان لقبولها على أنها مسلمات غير قابلة للمناقشة؛ لأنها شريعة الله ودينه المعصوم!! مع أنها فهم البشر، الذي يجري عليه الخطأ والصواب والزلل والتأويل الباطل والانحراف والجهل.

وقد تكون الإشكالية الحقيقية أيضاً والتي أشرنا إليها في كثير من كتبنا إلى درجة أصبح يخشى معها من التكرار، قد تكون الإشكالية في الالتباس بين القيم المعصومة المقدسة المحكمة، وبين فهمها من قبل البشر القاصر، الذي يجري عليه الخطأ والصواب، أي الالتباس بين (الذات) و(القيمة) أو ما يسمى بشخصنة القيم؛ أو ما يمكن أن نعبر عنه بالالتباس بين قيم الدين وصور التدين، بين نص الشارع وفهم المجتهد والشارح.

إن هذا الالتباس شكّل الأسوار المحكمة حول هذه المفاهيم وجمدها في رؤوس الناس، وعطل عقولهم، وحال دون تقويمها ومراجعتها واختبار مدى ملاءمتها لواقع الناس.

إن عصمة القيم وصوابية تنـزيلها على واقع الناس وإنجازها الحضاري في عصر النبوة لا يعني بحال من الأحوال عصمة الأحكام والاجتهادات المستنبطة منها لكل عصر، حتى ولو كان مصدر تلك الاجتهادات القيم المعصومة في الكتاب والسنة؛ لذلك فمجال التدليس والتلبيس والالتباس إنما هو بنقل العصمة من القيم إلى الأفكار والأحكام المستنبطة منها، الأمر الذي يحول دون التصويب والتسديد والتجديد والاجتهاد، ويؤدي إلى تحنيطها وانقطاعها عن بناء الحياة الفاعلة والنامية بسبب تغير محل الأحكام، وتبدل استطاعة الناس المكلفين، وتغير أقدار التدين، والتعسف في تنـزيلها على غير محلها.

لذلك نقول: بعد هذه الرحلة الطويلة والمسيرة الشاقة والتضحيات الكبيرة، وخيبات الأمل المستمرة، وغياب الاعتبار، وتحولنا إلى ميدان دراسة وتجارب وعبرة لغيرنا، ذلك أن العاقل من يعتبر بغيره والأحمق من يكون عبرة لغيره، بعد هذه الرحلة أصبح لزاماً شرعياً وواقعياً وحضارياً مراجعة بعض المفاهيم المفصلية من مثل مفهوم أبعاد الجهاد ومدلولاته وساحاته وحكمته وهدفه ووسائله، ومجالات وروده في القرآن والسنة، الأمر الذي يقتضي أول ما يقتضي مراجعة آيات الجهاد، حيثما وردت وتناثرت في آي

الكتاب، حيث لم تجتمع في سورة واحدة، والخلوص منها إلى رؤية واضحة مبصرة، وعقل واع قادر على التمييز وضبط النسب، وإدراك متى استخدم القرآن مصطلح (القتال)، ومتى استخدم مصطلح (الجهاد)، واستيعاب مدلول قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢)، لإبصار قيم الجهاد الكبير الأكبر، وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥)، فنبصر الميدان الكبير والحقيقي للجهاد، فنعاود مراجعة مفاهيمنا ووسائلنا ومساهمتنا السلبية في كثير من الأحيان والتي قد تكون عن حسن نية ومزيد حماس عند بعضنا، وغفلة عن الاعتبار وسوء في التقدير وعجز عن إبصار تدافع السنن، عند بعضنا الآخر، الأمر الذي قد يؤدي إلى مساهمتنا بحصاد أجيالنا كلما استوت على سوقها.

وليس أقل من ذلك شأناً مصطلح الشهيد والشهادة أيضاً، حيث إنه بحاجة إلى الكثير من النظر والتحرير والمراجعة والتتبع لدلالته والمواطن والمعاني التي استعمل لها، وعدم اختزاله في موطن وإلغاء ما وراءه من القرآن؛ ولا يتسع المجال للإتيان على بعض الآيات التي تذكر الشهادة والشهيد بمعان كثيرة في مواطن متعددة ومتنوعة.

هذا إضافة إلى جملة من المفاهيم، التي يأتي على رأسها أيضاً مفهوم الحاكمية، وأبعاده ومجالاته وعلاقته بالتكليف والاستطاعة، والشروط المطلوبة لانعقاده؛ وأبعاد قضية الولاء والبراء... وغير ذلك كثير كثير جداً.

وقد تكون الإشكالية كلها في غياب الاجتهاد في محل الحكم، ومدى توفر شروط تنزيله على هذا المحل، وفهم قولة: «لا اجتهاد في مورد النص» فهماً سطحياً مبتسراً، ذلك أن الاجتهاد، كل الاجتهاد، قد يكون في محل تنزيل النص ومدى توافر الشروط المؤذنة بتنزيل النص عليه.

إن الأوضاع المتردية والمتخلفة، والارتكاسات والهزائم المستمرة التي نمنى بها، والقيادات التي ما تزال صامدة ومستمرة رغم ذلك كله، تتطلب المراجعة الكاملة والتغيير على مستوى الأصعدة كلها، على مستوى الأفكار والمفاهيم والوسائل والخطط والأشخاص، مراجعة تؤدي إلى اختبار مدى ملاءمتها للواقع، واكتشاف الخلل، وتحديد أسبابه وكيفية معالجته، والحيلولة دون معاودته.

إن إصرار بعض الجماعات والتنظيمات على استمرار الحال، التي يملأ تاريخها الفشل وسوء التقدير، بدافع التعصب الحزبي والجهوي والإقليمي أو... أو... لا يقل خطورة وإشكالية عن إصرار القيادات الفاشلة والعاجزة إلاّ على إعادة الفشل والمساهمة بتدمير الأجيال الناشئة، وكأننا على موعد مع مواسم حصاد الأجيال -كما أسلفنا- فكلما تربى جيل وكان أمل الأمة دُبِّرت له المكائد والفخاخ، وساهم به سلبياً عجز (الذات) وسهولة اختراقها من قِبَل (الآخر) وإيجاد الفلسفات والمسوغات من القيادات الجاهزة لتكرار المهمة وارتكاب الحماقة نفسها، ووضع الناس أمام فقه الضرورة، الذي يستباح معه المحظور، ونحن الذين صنعنا الضرورة، إن لم نقل شيئاً آخر!

والأمر الملفت أن بعض القيادات هي ما تزال نفسها، وكأنها وقفاً على الأمة، وخاصة في مراحل هزائمها، حيث لم تنجز لها إلا الفشل والخيبات المتتالية والتي ما تزال مستمرة في توبيخ نفسها وإحاطتها بهالة من تفخيم (الذات)، وذكر البطولات والمواقف الشجاعة والحكيمة، وتصنع لنفسها دوائر من الأتباع والمريدين تحيط بها، بل ترفعها على الأكف، لكن كما ترفع الجنائز في عاقبة الأمور، وتوهمها بالزعامة والحكمة والشجاعة و...و... دون أية مناصحة أو ملاحظة، وبذلك تحيط بنا جميعاً أخطاؤها، وتصبح عبئاً على نفسها وأمتها وجماعتها.

كيف يكون ذلك، ويستمر في ثقافتنا الدينية المغشوشة، وقد تعلمنا من قرآننا وسنة نبينا ﷺ واجتهاد علمائنا وثقافتنا وأدبياتنا أن «**الدِّين النَّصِيحَةُ**»، وكان لفعل النصيحة والمراجعة والتقويم مساحات ووقائع كبيرة قصتها علينا آيات القرآن، ودرب عليها الرسول ﷺ وكان وهو المؤيد بالوحي، المسدد به، محل نصح أصحابه، ولقد مارسها الصحابة، رضي الله عنهم؛ وكانت هذه الحقيقة الكبيرة ماثلة في ذهن الجيل الأول: أن الرجل يُعرف بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال، وأن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ؛ وأن كل ابن آدم يُعرف منه ويُنكَر.

أما في واقعنا المتردي، المتخلف المنهزم، فالرئيس والزعيم والقائد والمرشد والشيخ و... كلهم معصومون وعلى صواب!! ولم نعثر لواحد منهم على اعتراف بخطأ واحد في تاريخه الطويل، ولم تُقدّم دراسة واحدة

تقويمية عن قيادته وسياسته، وأين نجح وأين أخفق، لتكون عبرة لمن يأتي بعده.. المشكلة أننا أمام سلسلة من المعصومين، الذين هم فوق طبقة البشر، وحالنا معهم لا تخفى ولا تغيب عن أحد، وهذه من البلايا.

لذلك قد لا يكون غريباً ولا عجيباً في مناخ هذه الثقافة المغشوشة -كما أسلفنا- التي أفرزت هذه النخب العاجزة الفاشلة، أن لا نعثر على دراسة تقويمية معمقة وموضوعية واحدة عن سلسلة الجهاد المعاصر في أفغانستان، وما استخدم ووظف له، والمفاهيم التي تحرك من خلالها، والأموال التي رُصدت له، وما انتهى إليه، وما صارت إليه الحال هناك من التردي والتخلف والتقاتل، تلك الدراسة التي تحمل لنا العبرة والبصيرة، ذلك أن الأمر، فيما نرى، يعيد نفسه ويتكرر بالطريقة نفسها والاحتواء نفسه؛ والتكرار ليس على مستوى الذهنية والثقافة فحسب بل يتكرر على مستوى الأشخاص.. وما صار إليه الأمر في أفغانستان صار ما يشابهه في كثير من البلاد العربية والإسلامية الأخرى ولا يزال، في الثمانينيات والتسعينيات وما يزال الأمر مستمراً في العراق وسورية واليمن ولبنان والصومال... وغير ذلك مما يكاد يختص بخارطة عالم المسلمين.

فالمتأمل في الأعماق والذي يحاول إجراء مقارنات ومقاربات قد لا يجد كبير فرق، في التاريخ المعاصر والقريب منا جداً، بين الدور المصنوع والمتكرر وما انتهت إليه الأمور، إن كانت قد انتهت، ولكن يبقى السؤال

الكبير كامناً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧) فأين الادكار؟!

والشيء المحزن حقاً، والعلة الذهنية تكاد تكون واحدة وإن تعددت أشكال وألوان إفرازاتها، أنه على الرغم من أن المفكرين والخطباء والكتاب والمنابر والمحاريب والدعاة والوعاظ يملأون المجتمعات الإسلامية، مع ذلك نجد أن المجتمع ما يزال هشاً في هذه القضايا، وسريع العطب، ينساق وراء عواطفه وأمنياته، لذلك نراه دائماً يسقط عند الصدمة الأولى.. فأين سبب المشكلة؟

إن معظم تلك القيادات على أحسن الأحوال لم تبصر علل الأمة الحقيقية، ومن ثم فهي لم تحسن العلاج، وإنما هي تعيش خارج الموضوع، والسؤال الكبير: هل فكر زعيم أو خطيب أو داعية أو كاتب أو... أن يختبر جدوى فعله وفعاليته وسلامة وسائله وأثره ومدى تحقق مقاصده، ولو لمرة واحدة؟ أم أننا جميعاً نهوى الحراثة في البحر والسباحة بدون شواطئ والسفر بدون بوصلة؛ لأن الهروب من التقويم والمعايرة والمراجعة يعفي من المسؤولية؟

لقد مرت في تاريخنا المعاصر تجارب كبرى ومريرة، ما تزال آثارها محفورة في نفوسنا، ومقابرها تملأ أرضنا، وتكاد تتمحور جميعاً حول رؤية واحدة وإصابات متكررة، فأين الدراسات؟ وأين الاعتبار؟ أين التقويم والمراجعة؟ أين النقد واستشعار المسؤولية والاعتراف بالخطأ؟ أين نجحنا؟ وما دلالة النجاح، إن كان هناك نجاح؟ وأين أخفقنا؟

لقد أخفينا فشلنا حتى نضمن الاستمرار في الزعامة، ولو كان ذلك يؤدي إلى التهيؤ لفشل جديد!!

والزعامات فينا غالباً ما تُبنى وتأتي من الاختباء وراء كلمات فخمة يملؤها التحدي للشرق والغرب والشمال والجنوب، واستخدام مصطلحات ذات ضخامة ندّعي فيها الشجاعة والتميز والبطولة في الفراغ، فالزعامة والقيادة أصبحت عندنا صناعة كلامية قادرة على أن تختار المفردات والأشعار، وتسعى إلى معاودة إخراجها وإنتاجها من جديد، وتظن أنها من مواصفات الزعامة والقيادة والريادة!! والأنكى من ذلك أننا نصر عليها، وهي التي تسلمنا من هزيمة إلى هزيمة ومن فشل إلى فشل....

ولعل الأشد خطورة أن الكثير ممن يفتون بأمر المسلمين وينظرون في شؤونهم لا علاقة لهم بالفقه والعلم، وكل كسبهم الفقهي ومؤهلاتهم أنهم يحملون هوية بعض التنظيمات الإسلامية، وبهذا الانتساب يسوّغون لأنفسهم التطاول على الأحكام الشرعية وتنزيلها على واقع الناس وتشويه صورتها والعبث بها والقفز إلى مواقع القيادة والمسؤولية، وقد تكون المفارقة عند بعضهم في أنهم يغادرون اختصاصاتهم وما تعلموه لإفادة الأمة في مواقع اختصاصهم إلى التعاطي مع ما لم يحيطوا بعلمه، وبذلك يكرسون التخلف والفشل والتراجع، ويشكلون أدلة واضحة عليه، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

والإشكالية الكبيرة أننا لسنا أفضل ولا أحسن حالاً من الآخرين الذين نناصبهم الخصومة، فبعض القيادات والزعامات مصرة على الاستمرار أكثر من إصرار الحكام الظلمة في أنظمة الاستعباد والاستبداد السياسي، وهي غير

مؤهلة لإبصار الواقع وفهمه وتحليله وقراءة المستقبل والإعداد له.. بل لعلنا نقول: إنها تفاجأ بكثير من القضايا والمشكلات والنوازل كما يفاجأ العامة من الناس؛ وقد تكون أكثر عجزاً عن إدارة الأزمات والتعامل مع المشكلات، لذلك فهي تقود إلى مزيد من الإشكال والتأزيم.

وهنا ابتلاء من الابتلاءات الكبيرة، التي يعاني منها عالم المسلمين على مختلف الأصعدة، وهو إدراك الأعداء من خلال قراءة التاريخ الطويل والقوانين الاجتماعية، التي تحكم الحياة والأحياء منذ فجر الإسلام، أن هذا الدين جاء استجابة لفطرة الإنسان، وكأن بينه وبين الإنسان في كل زمان ومكان تواعداً والتقاءً، وأن المشكلة غالباً إنما تتمثل في العوائق، التي تحول بين الدين وفطرة الإنسان.. والنظرة السريعة إلى خارطة عالم المسلمين اليوم، وامتداد الإسلام في أرقى البلاد حضارة وتقنية وعلماً وأدناها بداوة وتخلفاً في السلم الحضاري تؤكد هذه الحقيقة، وأن انتشار الإسلام في معظم بلاد العالم إنما كان ثمرة الدعوة والقدوة والأنموذج الصالح، وأنه حوصر وحُجِزَ وتوقف عن الامتداد بسبب الظلم والطغيان والاستبداد والحصار.

ومن هنا أدرك أعداء الإسلام وخصومه أنه لا يحدّ من انتشار الإسلام إلى البلاد التي لم يصل إليها، ولا يحدّ من نموه وإحيائه في بلاده ومحاولة المسلمين لاسترداد حضارتهم إلا إلغاء الحرية، وإشاعة مناخ الاستعباد والاستبداد السياسي، وتحويل بلاد المسلمين إلى مخافر ظاهرة وباطنة، وإشاعة الجوع والخوف، ودعم الانقلابات العسكرية، التي تكاد

تختص ببلاد المسلمين والتي تستهدف أول ما تستهدف قيم الدين، في التربية والتعليم والثقافة والإعلام، لكن بشكل خفي وخبيث، لا يستثير العامة، ويتعهد العاملين للإسلام بالمطاردة والسجن والاعتقال وعدم التوظيف والقهر بالسلاح.

ولعلنا نقول هنا: إن أول تجربة حملت الكثير من الأبعاد وحققت الكثير من الأهداف المرسومة لها هي الإتيان بأيديولوجية غربية وغريبة عن الإسلام والمسلمين فيما سمي بالعلمانية وزرعها في تركيا، مركز الخلافة الإسلامية، وحمايتها بالعسكر الأتاتوركي، الذي حاول القضاء على كل شيء يمت إلى قيم الإسلام بصلة، وكانت تجربة أغرت بنقلها إلى سائر أنحاء العالم العربي والإسلامي بأقدار متفاوتة، ولم ينجو منها بلد تقريباً، إلا من رحم الله.

وهنا حقيقة لا بد من الإشارة إليها ولو بقدر، وهي أن الإتيان بالأنظمة الاستبدادية والقمعية التي حكمت بلاد المسلمين باسم القومية واليسارية والاشتراكية والعلمانية كانت وراء ظهور نزعات العنف والتطرف والإرهاب، تلك النزعات التي جاءت نتيجة ردة فعلٍ طبيعي لتطرف وعنف وإرهاب السلطات الحاكمة.

كما أن ما أسمي في بلاد المسلمين بالاتجاهات القومية والعلمانية والاشتراكية كانت في حقيقة الأمر قناعاً يخفي الواقع ويغطي حكم الأقليات والطوائف الموجَّه أساساً لعزل الإسلام عن حياة الأمة.

لقد كان الإنجاز الوحيد لهذه الأنظمة الاستبدادية التمكين لإسرائيل وإيقاظ النزعات الطائفية والعرقية والمذهبية والإثنية على حساب الأكثرية وتفتيت الوحدة الوطنية الجامعة.

إن تاريخ الأمة المسلمة لم يعرف هذه الترعات الطائفية والمذهبية والأقلية والأكثرية قبل اغتصاب هذه الأنظمة للشأن السياسي وإقصائها لغير أبناء طائفتها، والغريب هو الاستمرار بالمخادعة حيث تحاول اليوم اتهام غيرها بذلك (رمتني بدائها وانسلت) وتلك من المفارقات العجيبة.

والعجيب الغريب أن أعداء الإسلام يسكتون عن ممارسات وأفعال هذه الأنظمة القمعية الطائفية عملياً، حيث إن أمرها لم يعد خافياً، ويتحولون إلى التخويف من الاتجاه الإسلامي، ويحذرون من حضوره المستقبلي، ويبنون مواقفهم وسياساتهم على الوهم واتهام النوايا، في الوقت الذي يعايشون يومياً أفعال القمع والاستبداد وانتهاك كرامة الإنسان وإهدار حقوقه من قبل حكام الاستبداد السياسي والاستعباد الاجتماعي.

لقد كانت معادلة الإتيان بالعسكر وحكم العسكر والتحدي بالقوة والسلاح والأمن والمواجهة، أن دفعت بالكثير، من خلال استشعار حالات التحدي واليأس، إلى التوهم أن الحل هو في المواجهة وامتشاق السلاح، دون التبصر بالإمكانات المتوفرة والوسائل المطلوبة والظروف المحيطة والإعداد المناسب.

لقد أدت عسكرة معظم الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي، تحت شيء الأسباب والمعاذير وفي مقدمتها محاربة إسرائيل، أدت في الحقيقة والواقع إلى حماية إسرائيل، وقتل روح الأمة وإلغاء قيمها ومطاردة عقيدتها، التي تضمن حياتها ومقاومتها وبقاءها؛ والأنكى من ذلك أن القتل يتم تحت شعار المقاومة!!

وكان من لوازم هذا الضغط والاستبداد وانعدام الحرية وإهدار الحقوق قيام المواجهات هنا وهناك، والتحول إلى ردود الفعل بدل الفعل الواعي، وصناعة التطرف لتكون مبرراً ومسوغاً لرمي الدعاة بدائها ومطاردتهم في أوطانهم وأرزاقهم وأعمالهم، فحل التطرف بكل مسالكه وإفرازاته.

لذلك نقول: إن عسكرة العالم الإسلامي آتت أكلها تماماً، و لم ينطل على الناس تغيير أثواب الحكام العسكرية واستبدالها بالثياب المدنية.

وللحقيقة نقول: إن أعداء الإسلام فهموا كيف يتعاملون معنا، وبقينا بنخبنا غير المؤهلة عاجزين عن فهم كيف نتعامل معهم، وتركنا ما نملك من قوة وتأثير وحق إلى ما لا نملك من صور المواجهة، فمُنينا بالهزائم المتتالية.

وبالإمكان القول: إن رد الفعل لاستخدام القوة والإتيان بالعسكر لحكم العالم الإسلامي أدت -كما أسلفنا- بالمقابل إلى عسكرة مفاهيم الإسلام، واستنفار المسلمين للمواجهة، واقتضى الغطاء الشرعي الانتقاء من الآيات والأحاديث، والانتهاء إلى التأويل الجاهل والتحريف الباطل والمغالاة، والعبث بالأحكام الشرعية، وتنزيلها على الواقع دون أية مؤهلات علمية

أو فقهية أو عقلية -كما أسلفنا- وأدى الأمر إلى الكثير من الممارسات الشاذة والمحظورة والمحرمات باسم فقه الضرورات التي تبيح المحظورات.

وبذلك شوهنا صورة الإسلام بأيدينا، وحاصرنا امتداده والاقتناع به، وبدل أن يهرب الناس إلى الإسلام ويجدوا أنفسهم في رحابه بدأوا يهربون منه.

هذا عدا عن تغذية هذه العسكرة واستخدامها وقوداً في اللعبة العالمية، واستنفار شباب وأموال العالم الإسلامي، حتى لا تقوم له قائمة مستقبلاً، ليكونوا وقود ذلك وتنكشف مواقعهم وتوضع الخطط للمكر بهم.

ولعلنا نقول هنا: إن ما نلاحظه من المدافعة بكل أشكالها عبر التاريخ الإنساني بشكل عام وتاريخ النبوة بشكل خاص، ومنه بعض الظواهر من العنف والمواجهة والصراع هو من سنن الله في الأنفس، فلو أحسنا تسخير سنن المدافعة بين الحق والباطل، وكيفية مغالبة قدر بقدر لأوصل ذلك إلى حماية الحق ونصرته، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

فصراع النبوة مع الملأ والكبراء والفراعنة والمستبدين هي من سنن المدافعة بين الحق والباطل، يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ (الرعد:١٧)، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان:٣١).

فلقد صبر أولو العزم من الرسل فذهب الطغاة، وامتدت النبوة، وظهر الحق وزهق الباطل.

لكن المواجهة في العصر الحديث كانت الأظهر عند إقامة إسرائيل وتحضير الظروف لقبولها واستمرارها، وإيجاد شبكة من المسؤولين الضامنين لأمنها، حتى أصبح ذلك شرطاً وعربوناً للوصول إلى استلام السلطة والاستمرار فيها، حيث تُفاتح به اليوم الأحزاب والجماعات من قِبل القوى المتحكمة في العالم، الضامنة لأمن إسرائيل.

وقد يكون من المفيد في هذا المجال أن نذكِّر بما يمكن أن يكفل تفسير الكثير من ممارسات أنظمة الاستبداد السياسي، ولعل ذلك بدا واضحاً عندما قامت بعض فصائل العمل الإسلامي بجهاد مقدر في مدافعة الاستعمار الإنكليزي في قناة السويس وعلى أرض فلسطين وما قدمته من التضحيات، التي أذهلت المراقبين ونبهت إلى خطورتهم المستقبلية على أمن إسرائيل واستمرارها، لذلك كان لا بد من وضع الدراسات والتقارير والخطط الكفيلة، التي تدمغ ذلك بالإرهاب والتعصب ومن ثم التخويف من صور التطرف والإرهاب القادمة، والتفكير الجاد بمراجعة مفاهيم التعليم وتدجينها وإخراجها من ساحة الجهاد، ووضع البرامج المناسبة لتجفيف المنابع.. ولا نزال نذكر حقبة السبعينيات وما نشرته الصحف والمجلات من دراسات عن مخاطر الاتجاه الإسلامي، وإيهام حكام الاستبداد في العالم الإسلامي، وخاصة العسكر منهم، بأن هؤلاء أخطر عليهم وعلى حكمهم منهم على إسرائيل، لذلك لا بد من التعاون، فكان المسلسل الخطير من المواجهات والمطاردات، الذي لـمَّا ينته بعد.

وهذا الكتاب، الذي يشكل محاولة جادة للإجابة عن سؤال النهضة واستدعاء منهج رائدين من رواد النهضة، وبسط شيء من سيرتيهما الذاتية وعوامل النشأة، والقيام بمقاربات ومقارنات لمنهجيهما، يمكن أن يصنّف ضمن مشروعات بناء الوعي والمساهمة بالنهوض والإجابة عن السؤال المزمن والذي ما تزال الأجوبة المطروحة غير كافية و لم تتحقق بالقدر المطلوب من تقديم خارطة عمل تتضمن إمكانية صناعة النهوض وتحديد الخلل وكيفية التعامل معه.

كما يمكن تصنيفه في إطار مكتبة النقد والتقويم والمراجعة والفكر المقارن، الأمر الذي أصبح يعتبر لازمة من لوازم التصويب والتسديد واكتشاف العلل ومحاولة معالجتها قبل استفحالها، وأخذ العبرة والوقاية لعدم تكرارها.

وقد يكون من الإنصاف أن نقول: إن الداعية الكبير «فتح الله جولن» شكل مع إخوانه في تركيا، في الحقول الدعوية والثقافية والسياسية الأخرى أنموذجاً يحتذى، حيث أدركوا أن المواقع المجدية والمؤثرة هي في مجال صناعة خمائر التغيير والنهوض في تركيا العلمانية بكل هدوء وابتعاد عن المواجهة الفاشلة، وأدركوا أن الأمة المسلمة تاريخياً إنما أُخرجت من خلال كتاب و لم تتشكل من خلال الحراب، حيث كان الانحياز للقرآن، عندما ينفصل السلطان عن القرآن، والظفر بالمجتمع، لذلك كان ميدان التغيير والمجاهدة هو المجتمع بكل استحقاقاته، وكان الجهاد الكبير بالقرآن ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ

جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢)، ومعاودة ربط الأمة بالقرآن، بكل معطياته ومقاصده وتربيته وتزكيته ودعوته للإنسان، فبدأوا العمل بالعمق الاجتماعي وبناء الرؤية المستقبلية وتركوا العبث بالسطح الاجتماعي والسياسي للأيدلوجيا الجديدة أو الدين البديل، العلمانية الأتاتوركية، بعسكرها المدعوم من الغرب وسواعدها القوية الممسكة بالسلاح.

لقد أبصروا أن الجهاد إنما هو بالقرآن، بكل أبعاده، وأن هذا الجهاد هو سبيل الخروج من النفق، وليس المواجهة الخاسرة مع أقوى جيش وأخطر تغريب أُقيم على أنقاض الخلافة الإسلامية؛ بدأوا بالمجتمع وعزلوا السلطان عن ضمير الأمة، وأخذوا مواقعهم في خدمة المجتمع والتدرب على إدارته حتى وصلوا إلى القمة بهذا الجهاد، الذي يمثل حقاً القوة الناعمة، التي تثير الاقتداء، واستطاعوا استرداد الهوية وإحياء قيم الدين دون أن يخسروا ولو نقطة دم واحدة.

فهل يكون الأنموذج الدعوي الثقافي والسياسي التركي هو أحد النماذج المعاصرة، التي تصلح للدراسة والإفادة منه؟

وما أدري، لماذا نعدل عن النماذج الدعوية الثقافية الناجحة إلى نماذج المواجهة غير المتكافئة، الخاسرة؟ وهل هذا بكامل إرادتنا واختيارنا، أم أن الحقيقة أنه ليس لنا من الأمر شيء؟ إنما هي معارك ومعادلات دولية وتصفية حسابات نُزج بها، وتُستعار تضحياتنا المتميزة، وتُصرف أموالنا، ويُكرس التخلف في بلادنا وإنساننا لنبقى أدوات للاستعباد، وتزرع فينا حواس الذل، ويسهل علينا الاستبداد؟!

وقد نقول: إن المقاربة والمقارنة والتقويم والمراجعة تتطلب -فيما نرى- عدم الاقتصار على البحث في المنهج وظروف النشأة والرسالة والرؤية والفعل، وإنما كان المطلوب أن يعرض الباحث لبعض الإخفاقات والجوانب السلبية؛ لأنه ما من إنسان إلا ويؤخذ من كلامه ويرد، إلاّ يُعرف منه ويُنكر، فأين ما يُردّ إلى جانب ما يؤخذ؟ تلك فجوة كبيرة وخطيرة في دراساتنا، ما يزال العقل المسلم مسكوناً بها، وإلا فكيف نحقق الاعتبار والوقاية الحضارية ونصنع الارتقاء؟ هذا من جانب.

ومن جانب آخر، فإن عقد المقارنة والمقاربة بين الداعية «فتح الله جولن»، حفظه الله، و«مالك بن نبي»، رحمه الله، احتاج من الباحث إلى الكثير من الجهد في محاولة لتطويع المنهج للوصول إلى المشترك بينهما، فمالك مفكر في الجزائر المستعمَرة من قِبل فرنسا، بمشكلاتها اللغوية والعرقية والثقافية والشرعية، استطاع أن ينمي الحواس، ويوقظ العقل المسلم، ويقدم له أبجدية لقراءة الواقع واستيعاب شبكة العلاقات الاجتماعية، ويبصره بالوجهة المستقبلية للواقع القائم، حتى يدرك أعماقها وسننها الاجتماعية، بينما الداعية «فتح الله جولن» له ظروف نشأته وتحديات مجتمعه، لذلك جاء منهجه في حقل آخر، وإن التقيا بمشترك عام للمصلح والمفكر والداعية الإسلامي المنطلق من مرجعية الكتاب والسنة.

ويبقى أن نقول: إن دراسة حركات وأعلام التجديد وتقويم مسيرتها ونقد مناهجها هو المساهمة الحقيقية في بناء الوعي والارتقاء بالواقع الإسلامي، والتدريب على النقد واكتشاف مواطن الخلل.

إن من الخطورة بمكان اختزال الإسلام في شخص أو جماعة أو تنظيم أو زمان أو جنس أو جغرافيا، وقد بلغ ما بلغ الليل والنهار وجاء خطابه عالمياً عاماً، ومن ثم العبث في أحكامه، وتفصيلها وقولبتها حسب تصور أي جماعة أو تنظيم محكوم بظروف زمان ومكان بعينه.

لقد جاء الخطاب الإسلامي في الكتاب والسنة للناس، كل الناس، المؤمن والكافر، في كل الأوقات، لذلك لا يجوز اختزال تاريخه الحضاري بمفهوم أو مصطلح أو تفسير أو مذهب أو جماعة، وعسكرة أحكامه الشرعية وتاريخه الثقافي، كرد فعل لظرف موقوت؛ فالإسلام ليس حكراً على أحد من البشر؛ واختزاله في جماعة أو تنظيم أو طائفة وإخراجه من المجتمع ليكون اتجاه جماعة أو تنظيم أدى إلى إساءات خطيرة، ومحاصرات كبيرة، وأنشأ فهوماً معوجة وخسائر فادحة.

وحملة العِلْم العُدول من كل خَلَف هم المنوط بهم العودة بمفاهيم الإسلام النقية إلى الأمة، والعودة بالأمة إلى الكتاب والسنة.

المقدمة

الحمد لله الذي أخرج خير أمة للناس من بين أركمة التخلف في أودية التيه والضلال، والصلاة والسلام على من كانت بعثته إيذاناً بانبعاث هـذه الأمة إلى سماء المجد، وكانت هدايته معراجاً لتحقيق هذا الانبعاث المتجدد في كل زمان ومكان.

أما بعد:

فإن أمة المسلمين تمرُّ في هذه الحقبة بمنعطف تاريخي كبير، حيث تحاول صناعة مستقبلها بكل ما أوتيت من قوة، حيث تنتفض ضد أوضاعها الفاسدة المهترئة، وترتفع أصواتها منادية بالحرية والعدالة والكرامة والعيش الرغيد، وتدفع في سبيل ذلك أغلى ما تملك.

في هذه الأوقات الحرجة تشتدّ الحاجة إلى الأفكار السديدة والمناهج الرشيدة، من أجل أن لا تتحول تلك (الأصوات) إلى (أسواط)، وحتى لا تكتفي الجموع الهادرة بإطلاق (الانفعالات) وتعطيل (الفاعليات)، وحتى لا تكتشف هذه الجموع أن فجرها الذي هلّلت له وكبّرت قد صار فجراً كاذباً، تعْقبُه ظلمات حالكة وفتن مُدْلهمَّة، مما يؤدي إلى توسيع دوائر الإحباط وتعميق مساحات القنوط والسلبية.

إن أمتنـــا في أمسّ الحـــاجة إلى (الأفكـــار) الـــتي تعيـــد صـــياغة (الأشخـــاص) وتفعيل (الأشياء)، بطريقة بنّاءة تعتصر الجهـــود وتختـــصر الأوقات والتكاليف.

والواقع يقـــول: إن أمتنـــا غنية بمفـــكرين عظام يمتلكـــون قناديـــل الهـــداية، وبلاســـم العـــافية بل وإكسير الحياة الحرة الكريمـــة لهذه الأمة، ما امتـــلكت إرادة السير في دربهم، وأجادت تحويل أفكارهم إلى معـــارج للرقي الحضاري.

ويأتي في مقدمتهم رجلان عظيمان، الأول: مفكر عربي امتلك مقدرة كبيرة على هندسة الأفكار وإضاءة مجاهل الحياة بطريقة فاعلة، وهو المفكـــر الجزائري مالك بن نبي، الذي ينتمي إلى بلد عظيم أجاد صناعة (الـــشهادة) إلى حد الإبهار، لكنه لم يحسن حتى الآن صناعة (الشهود) الحضاري، حالـــه في ذلك حال بقية البلدان العربية في هذا العصر.

أما الآخر: فهو مفـــكر وداعية ومصـــلح تركي، حباه الله بقـــدرات هائلة في التفكير والوعظ والدعوة والبناء، وأهم منها امتلاكـــه للكيميـــاء الفكرية، التي نجح بواسطتها في إبداع موازنات العروج الحـــضاري الـــذي تنشده هذه الأمة، وهو الشيخ محمد فتح الله جولن، الـــذي بـــدأ نـــضاله الحضاري في الأناضول.

إذن، سنناقش هذه القضية المهمة جداً في هذا الظرف التاريخي، مـــن خلال الخطوات الآتية:

أولاً: عنوان البحث:

عنوان البحث هو: «معادلات العروج الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله جولن». ولما كان جوهر البحث في مشروعَيْ هذين العملاقين هو «الموازنات»، فمن المفيد أن نُبيِّن المقصود بهذا المصطلح.

الموازنات في اللغة: جمع موازنة، والموازنة في المعاجم اللغوية تأتي بمعاني: الاعتدال ورجاحة الرأي وقوة العقل، وكذا: المعادلة والمقابلة والمساواة والموازاة والمحاذاة[1].

أما الموازنات في الاصطلاح الذي نعنيه هنا، فهي: المعادلات التي تتقابل ثنائياتها وتتكامل بطريقة عقلانية فعَّالة، تؤدي إلى بناء الإنسان، وعمارة الأرض، واستنهاض الأمة الإسلامية للقيام بوظائفها نحو ذاتها ونحو البشرية جمعاء.

ثانياً: مشكلة البحث وأهميته:

تكمن المشكلة التي يعالجها هذا البحث في تفلُّت كثير من (الأفعال) التغييرية من عِقال (الأفكار)، وعدم اتسام بعض محاولات الإصلاح بالتوازن بين الثنائيات الحاضرة فيها.

---

(١) انظر: أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، ط١(بيروت: دار صادر) ٢٠٦/١٥؛ أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ضبط: إبراهيم شمس الدين، ط١(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ٦٣٠/٢؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (صادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة) ط٢ (اسطنبول: دار الدعوة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) ١٠٢٩/٢-١٠٣٠.

وتُمثّل دراسة هذه المشكلة أهمية بالغة للعوامل الآتية:

١- ارتفاع أصوات الربيع العربي، واعتقاد كثيرين أن تغيير الأوضاع السياسية سيؤدي إلى تغيير آلي لأوضاع التخلف، مع مافي هذا الاعتقاد من تجاوز للسنن وللوقائع، بل ولثوابت الفكر الإسلامي.

٢- السباق المحموم بين التيارات الطرفية على استقطاب الجماهير، وعملها الدائب على فصل الجماهير عن عقولها، عبر دفعها إلى (تقليد النموذج التاريخي للمسلمين بدون تمحيص، أو إلى (محاكاة) النموذج الغربي المعاصر بدون غرْبلة.

٣- التباين الحاد في الموقف من الحضارة الغربية، بين الداعين للذوبان فيها أو المتجهين للصراع معها، حيث انتقد «مالك بن نبي» جوانب الضعف والانحراف في هذه الحضارة، ودفع «جولن» نحو حوار الحضارات بدلاً من الصراع معها. وبذلك يُبعد الأول الأمة عن الغزو الثقافي (المرفوض)، ويدفعها الآخر نحو التفاعل الحضاري (المفروض).

٤- الجهود الجبارة التي قدمها هذان المفكران العلمان، وعدم معرفة كثير من العرب بهما، فضلاً عن أن يكونا قد استوفيا ما يستحقانه من الدراسة والتقدير والتأسّي، ولاسيما «جولن» الذي يجهله أكثر القراء العرب.

٥- ثراء مشروعيْ هذين المفكرين العظيمين، سواء على مستوى الفكر بالنسبة لمالك أو على مستوى الممارسة بالنسبة لجولن، مع إمكانية تحوُّل مشروعيهما إلى نواة لنهوض حضاري شامل للأمة، نظراً لوسطيتهما واعتدالهما، ولاحترام قطاعات عريضة من المسلمين لهما، بسبب عدم تحزب مؤسسيهما.

ثالثاً: أهداف البحث:

يسعى البحث لتحقيق جملة من الأهداف، أهمها:

١- معرفة (المعادلات) التي قدَّمها (مالك بن نبي) كوسائل للإقلاع الحضاري بالمسلمين من دركات الانحطاط إلى ذرى الفاعلية الحضارية.

٢- التعرف على (الموازنات) التي صاغها (فتح الله جولن) فكراً وفعلاً، من أجل تكرار العروج بأمة الإسلام من (هامش) الحياة إلى (متن) الحضارة.

٣- إجراء المقارنات المساعدة على فحص مشروعي «ابن نبي» و«جولن»، بإدراك نقاط التقارب والتقابل بينهما، لإثراء الاستفادة المفترض نُشدانُها من قبل المجتمعات والحركات الإسلامية.

رابعاً: منهج البحث:

سيستخدم الباحث المنهجين التحليلي والمقارن للاستفادة من إمكاناهما في دراسة قضايا هذا البحث المتشابكة، حتى يؤتي ثماره اليانعة. وسيتم التركيز على تجربة «جولن» أكثر من تجربة «ابن نبي»؛ لعاملين موضوعيين:

الأول: معرفة القارئ العربي نسبياً بابن نبي، ووجود دراسات علمية عنه أكثر من «فتح الله جولن» في الوطن العربي.

الآخر: ضخامة تجربة «جولن» التركية، فهي ذات بُعدين: البعد الفكري الذي يشترك فيه مع «ابن نبي»، والبعد العملي المتمثل

بتيار الخدمة الذي أسّسه «جـــولن»، وهو تيـــار عـــريض يمتلـــك آلاف المؤسسات الفاعلة في مجالات: التربية، والإعـــلام، والاقتـــصاد، والثقافـــة، والعمل الاجتماعي والخيري.

خامساً: هيكل البحث:

بجانب هذه المقدمة، سيتكون هذا البحث من أربعة مباحث:

- المبحث الأول: محطات في حياة ابن نبي وجولن
- المبحث الثاني: معادلات الإقلاع الحضاري عند مالك بن نبي
- المبحث الثالث: موازنات العروج الحضاري عند فتح الله جولن
- المبحث الرابع: النهوض الحضاري عند ابن نبي وجولن: مقاربات ومقارنات.

وسيتم اختتام البحث بإيجاز أهم ما توصَّل إليه من نتائج. أسأل الله أن يمنحني التوفيق والتفوُّق في إنجازه، وأن ينفعني وأمتي به، إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله في كل حال وعلى كل حال.

المبحث الأول
محطات في حياة ابن نبي وجولن

المطلب الأول: محطات في حياة مالك بن نبي:

وُلد «مالك بن نبي» عام ١٩٠٥م/١٣٢٣هـ في مدينة قسنطينة، وهي من أعرق مدن العلم والتدين في الجزائر. نشأ في أسرة (فقيرة) في المال، (غنية) في التدين والمحافظة وحب العلم والمعرفة، فقد كان أبوه موظفاً بسيطاً في إحدى الإدارات الحكومية في مدينة (تَبْسة)، وكانت والدته تساعد زوجها في رفد ميزانية الأسرة من خلال عملها الخاص كخياطة. وبلغ الفقر بهذه الأسرة إلى حد أنها لم تكن تستطيع في بعض الأحيان دفع أجرة الكُتَّاب لولدها «مالك»، فتولت والدته رهن سريرها مقابل المبلغ المطلوب في أحد الأشهر، وهذا يؤكد غنى الأسرة في الاهتمامات العلمية.

بدأ رحلة العلم من فترة مبكرة من عمره المديد، حيث تعلّم القرآن في أحد الكتاتيب، وعندما وصل إلى سن الدراسة النظامية، واصل الدراسة في الكُتَّاب من بعد الفجر حتى يحين وقت الدراسة في الثامنة صباحاً، حيث انخرط في مدرسة فرنسية من المدارس الكثيرة التي كانت منتشرة آنذاك لفرْنسة الشعب الجزائري.

بسبب عمل والده في مدينة تبسة انتقلت الأسرة إلى هـذه المدينـة، وهناك تعلم «مالك» حتى أنهى المرحلة الإعدادية (المتوسطة) سنة ١٩١٨م. وبسبب تفوقه الدراسي حصل على منحة لدراسة الثانوية، فاختار مدينتـه الأم قسنطينة، ورغم سفره إليها عام ١٩١٨م فلم يدخل المدرسة وقسـمها الداخلي إلا في العام الدراسي ١٩٢١/١٩٢٢م حيث يبدو أنه ظل يتأهـل لدخولها، وكان يحضر مجالس العلماء، واقترب في هذه الفترة مـن جمعيـة العلماء المسلمين، التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان يحـضر بعض فعالياتها، وهي الجمعية التي لعبت الدور الأكبر في اسـتنقاذ العروبـة والإسلام من الطمس والاجتياح الثقافي الفرنسي.

وانخرط في التعلم الذاتي، وخاصة في هذه المرحلة، حيث كان يـتعلم العلوم التقليدية على أيدي بعض المشايخ، وتعلم العلوم الحديثة على يد أستاذ فرنسي، وفي ذات الوقت كان شديد الإقبال على قراءة الكتـب الثقافيـة المتنوعة، ويبدو أنه اكتسب بسببها العقلية التحليلية في الفهم والغربلة والنقد، إذ كانت قراءاته كثيرة وشديدة التنوع، ولو كان يقرأ في اتجاه واحد، فلربما لم يكن قد اكتسب العقلية التحليلية التي نجح بواسطتها في تحليل الحضارات تشريحاً ومعالجة.

أكمل الثانوية سنة ١٩٢٥م، وفكّر بالمستقبل، فسـافر مع صديق له إلى فرنسـا، كعادة كثير من الشبان الجزائريين آنذاك للبحث عـن عمـل لائق، ولما لـم يجـد عمـلاً مناسباً عاد إلى الجزائر، وبحث عن عمـل في

بلاده، حتى حصل على وظيفة كاتب محكمة سنة ١٩٢٧م، وللخلافات مع بعض مسؤوليه في العمل قدم استقالته من وظيفته، وعلى إثر ذلك اشترك مع صهره وشخص ثالث في مطحنة كمشروع خاص، ولكن الأزمة الاقتصادية التي وقعت في العالم سنة ١٩٢٩م وسميت بالكساد العظيم، يبدو أن رياحها وصلت إلى الجزائر، وكان من آثارها بيع «مالك» وشريكيه للمطحنة.

واقترح عليه بعدها والداه الذهاب إلى فرنسا لإتمام دراسته أسوة ببعض الجزائريين، فسافر سنة ١٩٣٠م وحاول في البداية دخول معهد الدراسات الشرقية، لكنه لم يُقبل لأسباب سياسية كما أورد في مذكراته، فسجل نفسه في معهد اللا سلكي وتخصص في قسم الكهرباء ليتخرج مهندساً كهربائياً سنة ١٩٣٥م، لكنه آثر هندسة الحضارات، وإضاءة المجتمعات بأفكاره التجديدية، وكَهْرَبَة وطنه بكتاباته التنويرية.

في بداية دراسته وبالذات في عام ١٩٣١م تعرَّف على فتاة فرنسية محترمة وتزوجها، فاعتنقت الإسلام متأثرة به حيث كان قدوة حسنة؛ إذ أحسن تمثُّل قيم الإسلام وتسمَّت باسم خديجة، ولم يُخَلِّفْ منها حيث كانت عقيماً، واستمرت معه إلى أن سافر إلى مصر سنة ١٩٥٦م، حيث لم يعد إلى فرنسا نهائياً، ولم تغادر هي بلادها، وفي تلك الأثناء تزوج من إحدى قريباته في الجزائر وخلَّف منها فتاتين.

أثناء دراسته في باريس، ثم أثناء عمله بعدها، صار شعلة من النشاط في حقول الفكر والثقافة والسياسة، وبالذات في ما يرتبط بمحاربة الاستعمار ونشر الوعي العام، ولذلك واجه في عمله صعوبات عديدة. وكان أن تعرَّف على شخصيات فرنسية وجزائرية وأجنبية كبرى في تلك الحقبة من حياته، وحاور بعضها عن قرب.

بعد تخرجه مهندساً ظل نحو عقدين من الزمن في فرنسا، فعمل في عدة أعمال، لكنه لم يجد نفسه إلا في الكتابة، حيث عمل مراسلاً لصحيفة لوفيجارو - كما تذكر بعض المصادر - وبدأ منذ عام ١٩٤٧م بتأليف الكتب باللغة الفرنسية، واستمر على ذلك حتى انتقل إلى مصر سنة ١٩٥٦م من أجل ترجمة وطباعة كتابه «الفكرة الأفروآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج».

وفي مصر قررت له الحكومة المصرية مرتباً، فاستقر فيها، وطبعت وزارة الإعلام كتابه آنف الذكر، وتنقل محاضراً في أقاليم ما كانت تسمى بالجمهورية العربية المتحدة ولاسيما في سوريا، بعد أن أعاد تعلم اللغة العربية في القاهرة وفي مكة المكرمة، وبعثها في ذاته من جديد!

بقي في مصر متفرغاً للكتابة والمحاضرة والتأليف من عام١٩٥٦م إلى عام١٩٦٣م، عندما عاد إلى بلاده بعد استقلالها سنة ١٩٦٢م عن فرنسا، وأصبح مديراً للتعليم العالي إلى أن استقال منه سنة ١٩٦٧م،

تفرغ بعدها للعمل الفكري وكان غزير الإنتاج إلى أن توفاه الله يوم ٣١ أكتوبر١٩٧٣م[١].

ترك عدداً كبيراً من التلاميذ والمتأثرين بفكره، ومنهم: اللبناني عمر مسقاوي، الذي قام بجمع تراثه ونشره والمحافظة على حقوق ورثته، والمصري د. عبد الصبور شاهين والذي ترجم أكثر كتب ابن نبي من الفرنسية إلى العربية.

ومن هؤلاء: الجزائري رشيد بن عيسى، الذي ظل وفياً لأفكار مالك رغم انتمائه فيما بعد لتيارات إسلامية حركية أبرزها الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وهناك أيضاً المفكر السوري جودت سعيد الذي حاول أن يقتفي آثاره في مؤلفاته، وقد قدم له ابن نبي كتابه المعروف: «حتى يغيروا ما بأنفسهم»[٢]

---

(١) هذه الترجمة أُخذت بتصرف كبير من مصادر عدة هي:
- مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ط٤ (دمشق: دار الفكر، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).
- عبد الله العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية، ط١ (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢٣هـ/١٩٩٣م) ص٢٢٧-٢٣٤.
- د. أسعد الحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، ط١(بيروت: دار النفائس، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص١٣-١٩.
- فتحي يكن (إشراف)، الموسوعة الحركية، تراجم إسلامية من القرن الرابع عشر الهجري، ط٢(عمان: دار البشير، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص٢٠٣-٢٠٥.

(٢) د.فؤاد البنا، تيارات التجديد في الفكر الإسلامي الحديث، ط٢ (صنعاء: مؤسسة أبرار، ٢٠١٠م) ص٣١١.

وهو الكتاب الذي عنْوَنه جودت سعيد بهذا الجزء من الآية القرآنية التي أكثر «ابن نبي» من الاستدلال بها كما لم يفعل مع أي آية أخرى.

وترك أيضاً ثروة فكرية ضخمة تركزت في عدد من الكتب، وهي: بين الرشاد والتيه، تأملات، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، شروط النهضة، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الظاهرة القرآنية، الفكرة الإفريقية الآسيوية، فكرة كمنولث إسلامي، في مهب المعركة، القضايا الكبرى، مذكرات شاهد للقرن، المسلم في علم الاقتصاد، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مشكلة الثقافة، من أجل التغيير، ميلاد مجتمع، وجهة العالم الإسلامي.

و«سلسل مالك بن نبي كتبه تحت عنوان: (مشكلات الحضارة)، وقد درس فيها مشاكل العالم الإسلامي، ومحض مشكلة الاستعمار بشكل خاص، فوصل إلى نتيجة مهمة هي: أن محصلة عوامل التخلف من جهل وفقر ومرض وأوثان وانحطاط وانتكاس في مجتمع ما بعد الموحِّدين أدت إلى الاستعمار. وبيَّن أن الاستعمار ليس ظاهرة خارجية بقدر ما هو ظاهرة داخلية، تدعمها أسباب اجتماعية، وأطلق على مجموع هذه العوامل التي تنخر المجتمع من الداخل اسم: (القابلية للاستعمار)[1].

---

(١) غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم، ط٣(بيروت: دار القلم، ١٩٧٧م) ص٥٥.

المطلب الثاني: محطات في حياة فتح الله جولن[1]:

- ولد محمد فتح الله جولن في ١١ نوفمبر ١٩٣٨م من أسرة متدينة تنتسب إلى آل البيت، في قرية تنتمي إلى محافظة «أرضروم»، وهي من أكثر المناطق تديناً ومحافظة في تركيا، فقد اعتنقت الإسلام مبكراً على يد الرعيل الأول من الصحابة الكرام أيام الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وتقع هذه المحافظة في شمال شرق هضبة الأناضول، ومن تدابير القدر أن فتح الله ولد في اليوم الثاني لموت مؤسس العلمانية في تركيا مصطفى كمال أتاتورك!

- بدأت أمه رفيعة هانم بتعليمه القرآن وهو ما زال في السنة الرابعة من عمره، وواصل دراسة القرآن حتى فهمه وأتم حفظه، أما أبوه رامز أفندي فقد علّمه أسس علوم الشريعة وقواعد اللغتين العربية والفارسية، بحكم أن كثيراً من المؤلفات الإسلامية التراثية أُلفت بهاتين اللغتين.

- بدأ فتح الله يدرك مشاكل المسلمين من خلال مجالس أبيه التي كان يحضرها بعض الصلحاء من قريته ومنطقته، حيث كان إماماً لأحد المساجد، وبدأ الابن يتعامل مع القضايا الإسلامية بروح المسؤولية فكان شيخاً في إهاب طفل. وكان العمود الرئيسي في المبنى العلمي لجولن هو القراءة والتعلم الذاتي، وبهذا تتلمذ على أيدي الغزالي وابن تيمية وابن القيم وأبي حنيفة

---

(١) د.فؤاد البنا، الفكر الإسلامي، ط١ (صنعاء: جامعة العلوم والتكنولوجيا، ١٤٢٣هـ/٢٠١١م) ص٢٠٧-٢١٢.

والشافعي وغيرهم من القدامى، وأمثالهم من المحْدَثين كحسن البنا وسيد قطب والمودودي ومحمد إقبال وبديع الزمان النورسي وغيرهم، وقد أخذ من الجميع وترك، وبالتالي أوجد ذاته المستقلة المتميزة. وبقدر اهتمامه بالعلوم التي هي غذاء العقل، فقد اهتم بمجالس الذكر التي هي غذاء الروح، ومن هذه المرحلة المبكرة بدأ التوازن الشديد عنده بين العقل والروح.

- حصل على الشهادة الابتدائية النظامية عن طريق التعلم عن بعد، لكنه كان أكبر من المدارس الحكومية، حيث سعى للاستفادة ممن بقي من أهل العلم الشرعي، فكان دائم الطلب، دائب الحركة للبحث عن هؤلاء، وكان كثير التنقل من واحد إلى آخر، نظراً لأنه لم يجد من يُشبع نهمه، فقد كان بحراً يطلب المدد من سدود أو بحيرات في أحسن الأحوال. جمع في تحصيله العلمي بين العلوم الشرعية التقليدية والآداب وعلوم الاجتماع والنفس، وانفتح بعدها على كل علوم الغرب، بما فيها العلوم المادية كالفيزياء والكيمياء والفلك.

- أثناء رحلة الطلب تعرف في طريق قطاره على رسائل النور سنة ١٩٥٧م، وكان عمره ١٩ سنة، وهي لمجدد تركيا قبل جولن: بديع الزمان سعيد النورسي . وفي هذه الرسائل وجد ضالته، وأشبع نهمه، وروى ظمأه، ولذلك أحب بديع الزمان حباً جماً، فصار أحد أنجب تلاميذه، رغم أنه لم يلتقِ به وجهاً لوجه أبداً، ومع ذلك تفوّق على من تتلمذوا عليه مباشرة، في استلهام فكره.

- بعد محاولات عدة استطاع الحصول على وظيفة رسمية، كإمام لمسجد، وكان نصيبه قد دفعه إلى مدينة أدِرْنة التي تقع في القسم الأوربي من تركيا (تراقيا الشرقية). وهناك تعرض لابتلاءات كثيرة لكنه استعصم من غوايات الشيطان بأمر الله وحبله المتين، فنجّاه الله كما نجى يوسف من امرأة العزيز، وأنجاه كما أنجى إبراهيم، عليه السلام، من النار، لكنها هنا نار الشهوة والغواية المتحالفتين مع الشيطان!

- أثناء عمله كإمام في أدرنة طُلب لأداء الخدمة، وعندما انتهى منها عاد إلى أدرنة مرة ثانية، وبقي فيها فترة، وعندما اتسع تأثيره وكثرت معارفه، اشتد عليه التضييق، فطلب من بعض معارفه في الإدارة الدينية في أنقرة مساعدته للانتقال من أدرنة.

- انتقل عمله إلى مدينة أزمير سنة ١٩٦٦م التي تقع في جنوب غرب تركيا، وتطل على البحر الأبيض المتوسط، وهي أهم المضايق الجاذبة للسياحة الخارجية والداخلية، ولذلك تكاد أن تكون أكثر المدن التركية تغرباً، وبهذا أضافت هذه المدينة طاقة إلى طاقة التحدي التي امتلأ بها جولن، كحال حسن البنا مع مدينة الإسماعيلية في مصر.

- عُين مديراً لمدرسة دينية تابعة لأحد المساجد في أزمير، وهي تتبع الحكومة رسمياً، لكن تمويلها كان يأتي من جمعية خيرية شكّلها الأهالي لهذا الغرض، ومن هنا التفت إلى أهمية الأهالي في تمويل مشاريع الخدمة التي أسسها فيما بعد.

- بدأ يتحرك في أزمير على أكثر من صعيد، حيث كان يخطب، ويؤُمّ، ويعظ، وأسس في تلك الأثناء جمعية «الانبعاث»، لكنه سرعان ما عاد وحلها، لما رأى عدم انسجام مؤسسيها، وعدم وضوح الغايات من إيجادها، وبالتأكيد أنه استفاد من هذا الدرس السلبي بطريقة إيجابية.

- تولى جمع التبرعات من أصدقائه ومعارفه التجار، من أجل بناء أول ثانوية للأئمة والخطباء في أزمير، ومبنى للمعهد الإسلامي للتعليم العالي التابع لجامعة أزمير، والذي كان مبناه متهالكاً، وبذلك ذاع صيته، وزاد معارفه، ولاسيما وسط طلاب وأساتذة جامعة أزمير.

- ذهب للحج عام ١٩٦٨م، وكانت عودته من مكة إلى أنقرة، فدعي هو ومفتي أزمير لزيارة بعض البيوت التي أعدها طلاب النور لسكن الطلاب، وهناك أعجب المفتي بما رأى من أنشطة دينية واجتماعية للطلاب، فأخبر جولن أنه يريد مثل ذلك في أزمير، وهنا انطلقت شرارة فتح الله لتنير الكثير من الدروب المظلمة. وبدأ منذ عام١٩٧٠م بإقامة المخيمات الصيفية للطلاب في أزمير وضواحيها.

- تأثر به في أزمير تلاميذ كثيرون من طلبة الجامعة والتجار، ويبدو أنه بدأ معهم عملاً منظماً منذ عام ١٩٧١م، وهو العام الذي تعرض فيه للاعتقال، بعد الإنذار الذي وجهه الجيش للحكومة، بحجة وجود محاولات من داخلها وخارجها للانتقاص من العلمانية الأتاتوركية.

- قام في أزمير بحملة نشطة لبناء عدد من المساكن الطلابية، وانتقل بعدها إلى إيجاد معاهد الإعداد للجامعة، ولما كانت مخرجات هذه المساكن والمعاهد من أفضل الكوادر الطلابية، فقد توسعت في أنحاء تركيا خلال سنوات، حتى وصلت إلى كل الأطراف، فضلاً عن اسطنبول وأنقرة.

- وكان منذ عام ١٩٧٠م قد بدأ تنظيم مخيمات صيفية للطلاب، بالتعاون مع بعض من تأثر به وأحبه وآمن بأفكاره وطريقته في إصلاح الشباب، وانتقلت هذه العدوى إلى تركيا كلها فيما بعد.

- أصبح خلال هذه الفترة واعظاً متجولاً في كل مناطق جنوب غرب تركيا، إضافة إلى بعض المناطق الأخرى، ألقى خلالها آلاف الدروس العامة والخاصة، والمحاضرات، والمواعظ، وخطب الجمعة.

- وفي الفترة من ١٩٧٠م إلى ١٩٨٠م كان نشاطه قد وصل إلى الذروة، وكانت التيارات الإسلامية ذات الاتجاه السياسي كذلك نشيطة، إضافة إلى عوامل أخرى أدت بقائد الجيش كنعان إيفرين إلى الانقلاب على الحكومة الديمقراطية - التي كان نجم الدين أربكان أحد أعمدتها - وصار فتح الله جولن أحد المطلوبين للقبض عليهم .

- في الوقت الذي كان فتح الله مطارداً، قام بعض تلاميذه ببناء أول مدرسة نموذجية للتعليم الأساسي سنة ١٩٨١م، وهي مدرسة الفاتح، ثم توالت المدارس، وانتشرت في كل مدن تركيا.

- ظل جولن متخفياً من عام ١٩٨٠م إلى ١٩٨٦م، وهذا منحه تفرغاً للتركيز على بناء تلاميذه بناء فولاذياً، ليكونوا أهلاً لتحمل المسؤولية، فكانوا لها أهلاً.

- عندما وصل تورجوت أوزال إلى السلطة بعد عودة الديمقراطية سنة ١٩٨٦م، حدث انفراج للحريات في تركيا، ولاسيما ما يرتبط بالأنشطة الإسلامية، فتصاعدت وتيرة عمل فتح الله وتلاميذه الذين صاروا يُعرفون بتيار الخدمة، وظهروا منظمين، رغم نفيهم لكونهم تنظيماً من أي نوع، فهم يصرون على أنهم أصحاب خدمة، ممن أحبوا هذا الدين وتأثروا بجولن، مسخرين طاقاتهم وأموالهم وأوقاتهم لخدمة وطنهم وأمتهم.

- بدأ جولن الوعظ في اسطنبول منذ عام ١٩٧٧م، لكنه ظل ينطلق في كافة مناشطه وتحركاته من مدينة أزمير، التي طلعت منها (شمسه) رغم أنها تقع في (الغرب)، وهذه من عجائب فتح الله، وفي عام ١٩٩٦م استقر نهائياً في اسطنبول.

- منذ أن وطأت قدماه أرض اسطنبول - عاصمة المسلمين طيلة قرون - بدأ فتح الله حملة واسعة لزيارة الصحف والأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني ورجال الثقافة والإعلام والفن والرياضة، ثم دعا الجميع إلى موائد الطعام عند تلاميذه (أبناء الخدمة)، فتقابل المتخاصمون والمتنازعون لأول مرة وجهاً لوجه، واكتشفوا بمساعدة جولن أن المسافة بينهم ليست بذلك البعد التي كانت تبدو عليه من قبل.

- أنشأ عام ١٩٩٦م «وقف الصحفيين والكتاب» الذي أصبح مؤسسة عملاقة أقامت عشرات الفعاليات داخل وخارج تركيا حول الحوار بين الأديان والقوميات والمذاهب والطوائف، وتوزعت بين مؤتمرات وندوات وحوارات ومحاضرات، شارك فيها نجوم الفكر والثقافة والأدب والفن من بلدان إسلامية وغربية. ويتبع هذا الوقف عدد من وسائل الإعلام، ولاسيما المجلات الثقافية والفكرية.

- عندما وقع عام ١٩٩٧م الانقلاب العسكري المبطّن ضد الحكومة المنتخبة - التي قادها نجم الدين أربكان -، هاجر فتح الله إلى أمريكا وأقام فيها بضعة أشهر للعلاج، وعندما انقشعت العاصفة عاد إلى تركيا ليواصل دوره في قيادة تيار الخدمة الذي أصبح أحد أهم أسس النهضة التركية المعاصرة، ولاسيما المنتظرة منها، إذ يمتلك هذا التيار مئات المدارس النموذجية وعشر جامعات، وعشرات الصحف والمجلات والدوريات المختلفة، ومئات العمارات والبيوت السكنية للطلاب، وتسع قنوات فضائية، وعشرات المواقع الإلكترونية التي تتحدث بـ ٢٢ لغة عالمية، وأقسام للترجمة إلى أهم لغات العالم الحية (٤٢ لغة).

- وبسبب وجود مخاطر على حياة جولن من عدد من الأمراض القاتلة، ومن بعض الجهات الخفية في تركيا التي تستهدف اغتياله لإحداث فتنة داخلية، فقد هاجر في مارس ١٩٩٩م إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهو منذ ذلك العام مقيم في ولاية بنسلفانيا في بيت على

قمة جبل تحيط به غابة، يمارس الكتابة وتعليم تلاميذه علوم القرآن، رغم منع الأطباء له من ذلك.

- حصل عام ٢٠٠٨م على المركز الأول بين أكبر مائة شخصية هي الأكثر تأثيراً في ذلك العام على مستوى العالم، وذلك في استفتاء قامت به مجلة «فورين بوليسي» الأمريكية الذائعة الصيت في الأوساط الأكاديمية، بالتعاون مع مجلة «بروسبيكت» البريطانية المشهورة.

- أنشأت له عدة جامعات في الولايات المتحدة وأستراليا وإندونيسيا كراسي باسمه، ومراكز علمية متخصصة بدراسة فكره، وأقيمت عنه وعن تجربته عشرات المؤتمرات والندوات والورش النقاشية، إضافة إلى عشرات الرسائل الأكاديمية التي أعدت أو تعد عنه وعن جوانب متعددة من خبراته وتجاربه، ولاسيما في دائرة التعليم والتربية والعمل الإعلامي والاجتماعي.

- تعرض للاعتقال عدة مرات، وحوكم في بعضها، لكن براءته ثبتت في كل مرة من التهم المنسوبة إليه.

- ترك فتح الله آثاراً ضخمة، توزعت بين الآلاف من شرائط الكاسيت وشرائط الفيديو التي احتوت على كثير من خطبه ومواعظه ودروسه ومحاضراته، وبين الكتب التي وصلت إلى خمسة وستين كتاباً، ترجم بعضها إلى أكثر من عشرين لغة، منها الإنجليزية والبلغارية والألبانية والإندونيسية والروسية والكورية، وقد ترجم إلى العربية خمسة عشر كتاباً من كتبه حتى الآن.

المطلب الثالث: أهم الخطوط المشتركة في حياة المفكرين:

من خلال قراءة السيرة الذاتية المختصرة لهذين العلمين الشاهقين في عالم الفكر، ورغم تباعد الزمان وتناءِ المكان، واختلاف الظروف الذاتية والموضوعية بينهما إلا أنه يمكن بسهولة ملاحظة بعض نقاط التشابه بينهما، وأهمها هي:

١- دور الأسرة في التربية:

لعبت أسرة جولن دوراً مشهوداً في تربية وتوجيه ابنها، فقد كانت أسرة متدينة تعيش في بيئة محافظة حتى في أيام علمانية أتاتورك المتطرفة، وكانت أم فتح الله على قدر من العلم والتدين والأخلاق، أما أبوه فكان بيته مجلساً من مجالس العلم واجتماع الوجهاء وأصحاب الاهتمامات العامة وهو الذي علّم ابنه مبادئ بعض العلوم واللغتين العربية والفارسية.

أما مالك ومع عدم وجود تفاصيل دقيقة حول هذه المرحلة المبكرة من عمره، إلا أن اهتمامات الأسرة بالدين بادية من خلال الحرص الشديد على تعليم ابنها في مدرسة قرآنية وهو مازال في السنوات الأولى من عمره رغم فقرها الشديد، ورغم الإغراءات التي كانت تبذلها فرنسا للأطفال وأسرهم حتى يلتحقوا بالمدارس الفرنسية، مقابل التضييق المعروف على متعلمي العلوم الشرعية واللغة العربية.

وقد استمر اهتمام الأسرة بمالك حتى بعد التحاقه بالتعليم الرسمي الفرنسي، فقد ظل يدرس في كُتّاب القرآن، ثم إنه في المرحلة الثانوية درس

في معهد شرعي لتخريج مساعدي قضاة وكُتّاب في المحاكم الشرعية. وتتضح بصمة الأسرة في هذه المرحلة من خلال اهتمامات ولدها في القراءة والتعلم الذاتي ثم في حياته كلها، حيث ظل ملتزماً بالإسلام في أحلك الظروف، كما تحدث عنه من يعرفون عن قرب[1].

٢- دور القرآن في صياغة شخصيتيهما:

من يقرأ تأريخ المجددين والمفكرين والفقهاء الكبار في كل عصر ومصر، سيجد أهم جميعاً خرجوا من مشكاة القرآن، بل هؤلاء هم من البيِّنات على عظمة القرآن وقدراته الخارقة في صياغة الشخصيات الإنسانية والاعتلاء بها نحو مدارج الكمال الإنساني الممكن.

وقد كان المحضن الدافئ لمالك وجولن بعد الأسرة هو الكُتّاب القرآني، حيث يبدو أن الله هيأ لهما من يلفت أنظارهما إلى أهمية تدبر القرآن بجانب الحفظ الذي طغى في العصور المتأخرة، حيث إن التدبر هو الفريضة. ولإدراكهما لأهمية هذه الفريضة في حياة الفرد والأمة فلم ينيا عن التذكير بها، والحثّ عليها، وتوضيح السبل الموصلة إليها، مثل استشعار القارئ أن القرآن أنزل عليه هو، وأنه أُنزل في هذا الزمان، وهذا ما اتفقا عليه كما يلاحظ من يقرأ كتبهما.

٣- التزام طريق التوازن منذ الصغر:

وازن جولن بين سائر الثنائيات منذ طفولته المبكرة، عندما كان يضع لنفسه جدولاً لأنشطته اليومية، فكان يوازن بين حق ربه وحق أسرته وحق

---

(١) انظر مثلاً: د. أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، ص٢٠-٢١.

مجتمعه، ويوازن في أخذه بين القلب والعقل، حيث يتردد على مجالس الفقه والعلوم الشرعية عامة، ويرتاد مجالس الذكر التي كانت تقيمها الطرق الصوفية.

وجمع مالك في تلقيه للعلم بين العلوم التقليدية (الشرعية) والعلوم الحديثة (المادية أو الطبيعية)، فكان منذ البدء يدرس يومياً - كما أسلفنا - في كُتّاب قرآني وفي مدرسة فرنسية، وحتى خارج الدوام الرسمي كان يتتلمذ عند بعض علماء الشريعة، ويدرس بعض العلوم على أيدي بعض المدرسين الفرنسيين، فجمع لعلمه بين الأصالة والمعاصرة.

واستمر هذا النظام في الابتدائية والإعدادية، وعندما نجح بتفوق وصار أهلاً لدخول الثانوية في قسنطينة، ظل عامين قبل الالتحاق بالثانوية، يحاول الإبقاء على هذا التوازن، ولذلك توزعت دراسته - كما يقول أحد الباحثين[1] - في اتجاهين: عند الأستاذ مارتن في المدرسة الفرنسية، وعند الشيخ عبدالمجيد في الصباح في الجامع الكبير حيث يدرس اللغة العربية.

ومع طغيان المادية أيام الاستعمار الفرنسي للجزائر وأيام العلمانية المتطرفة في تركيا، إلا أن الرجلين بسبب دور الأسرتين ولتوازنهما الذاتي الفطري، قد بقيا على علاقة وثيقة بالتيارات الروحية، حيث تعرف مالك على الطريقة العيساوية عن طريق عمه محمود في قسنطينة، ثم تعرف على جمعية علماء المسلمين بزعامة ابن باديس، وتعرَّف جولن على طريقة صوفية بعيدة عن البدع فنهل منها، ولذلك ظلت صورة الصوفية مشرقة في ذهنه.

---

(١) هو: د. أسعد السحمراني في، المرجع السابق، ص١٤.

٤- التعلم الذاتي:

التعلم الذاتي في حياة جولن هو الأصل؛ لأنه لم يدخل التعليم النظامي إلا في المرحلة الابتدائية، حيث لا يحمل إلا الشهادة الابتدائية وفق نمط ما يسمى اليوم بالتعلم عن بعد، لكن هذا التوقف أعطاه طاقة للتعلم الذاتي أكثر من ذي قبل، فقد كان يسمع مسائل العلم من مجالس أبيه التي يرتادها علماء منطقته، وتعرَّف عبرهم على علماء آخرين، حرص على زيارتهم والتتلمذ على أيديهم، حتى تحصّل على مبادئ العلوم الشرعية وعلوم اللغات والآداب العربية والتركية والفارسية، وأتقن ذلك كله بالقراءة الذاتية التي تجمع بين التوسع الأفقي والعمق الرأسي.

وتجاوز ذلك إلى تعلم مبادئ بعض العلوم الحديثة، وبعض اللغات الأوربية، وقرأ أساطين الفلسفة والثقافة الغربيتين، بجانب أئمة الإسلام العظام في العقيدة والفلسفة والفقه والتصوف والحديث وغيرها من العلوم.

وعبْر هذه الجامعة المنزلية: (القراءة) ظل يتعملق باستمرار حتى صار العَلَم الذي يشار إليه بالبنان من كل أنحاء تركيا، ثم من العالم الإسلامي كله، ثم أصبح يُرى في كل بلدان العالم!!

أما ابن نبي ورغم أنه تخرَّج من سُلّم تعليمي نظامي حديث إلا أنه كان يترقى عبر التعلم الذاتي، الموازي للتعليم النظامي الذي ابتدأه بكُتّاب القرآن، وانتهى إلى التتلمذ على بعض علماء (جمعية علماء الجزائر) وشيخها ابن باديس الذي قابله شخصياً، وأحبَّه كما أحبّ جولن بديع الزمان النورسي، مع فارق أن جولن لم يلتق بديع الزمان وأن مالك شق طريقه بمعزل عن ابن باديس.

ومما عرفناه من قبل أن مالك تخرج من المعهد الجامعي سنة ١٩٣٥م أي أن سنه كان حينها قد وصل إلى الثلاثين عاماً، مما يعني أنه فقد ثمان سنوات من عمره، ومن يبحث عن تفاصيل هذه السنوات من المصادر الشحيحة عن حياته سيجد أنه قضاها في التتلمذ على أيدي العلماء وفي القراءة الذاتية، فقد كان شديد النهم للقراءة الشاملة. وعلى سبيل المثال فإنه رغم اتجاهه العلمي والفكري المبكر كان كثير القراءة في الأدب، حيث قرأ الشعر في عصوره الجاهلية والأموية والعباسية. وتأثر بشعر امرئ القيس والشنفري وعنترة والفرزدق والأخطل وأبي نواس، وبأصحاب المدرسة الحديثة كحافظ إبراهيم ومعروف الرصافي، وشعراء المهجر وغيرهم.

وقد تبحر في الثقافة الغربية حتى فاق بعض أبنائها، وهذا واضح من قاموس الأسماء الغربية التي اكتظت بها كتاباته وكتبه، كما أشرنا من قبل.

٥- الجدِّية في حياتيهما:

وُلد جولن في قلب العاصفة الأتاتوركية التي اقتلعت حتى الثياب التركية التقليدية واستبدلتها بثياب غربية، ولم ينجح في المحافظة على نفسه أمام هذه العاصفة التي أحرقت الأخضر واليابس فحسب بل حوَّل هذه النار إلى برد وسلام بالنسبة لمئات الآلاف من الأتراك.

ومن المؤكد أن هذا الرجل في قمة الجدِّية، فقد ظل دائب الحزن كثير البكاء وهو الضحَّاك، دائم الحث لتلاميذه على مسابقة الزمن من أجل استنقاذ الأجيال، ونقل تركيا من الهامش إلى المتن، وانتشال الأمة من القاع إلى القمة.

لقد أجاد عمارة الأوقات، وسَبْك الخطط، وتعظيم الفاعلية، ومراكمة الإنجازات، لأنه جاد من طراز نادر، فأثمر كل تلك الثمار اليانعة، أجيالاً وكتباً ومؤسسات تُفرح الأولياء وتغيظ الأعداء!!

أما ابن نبي فإن خروجه من تلك البيئة التي تقتل الرجولة والإباء والفعالية، وتصنع أكواماً من الغثائية، والتي أعدها فرنسا عبر دراسات وخبرات عميقة من أجل استلاب الجزائر إلى الأبد، ووصوله إلى تلك المكانة العظيمة، هو برهان قاطع على امتلاكه جدية من طراز رفيع.

وإن من عرف هذا الرجل عن قرب أو من غاص في أعماق فكره[1]، يدرك أنه صاحب معدن نفيس ونادر الوجود، فقد كان إما سابحاً في ملكوت العبادة أو سائحاً في عالم الكتابة، عمر سنواته الأولى بكل ما جعل نفسه بذلك السموِّ وما جعل قامته بذلك السموق، وعمر سنواته الأخرى بكل ما أهَّله للبروز في هندسة الأفكار: تشريحاً وشرحاً، بناء وتنظيماً، تمحيصاً وتدقيقاً، مما جعله (مالكاً) لنظرية مميزة في إحياء الإنسان وبناء الحضارة.

٦- التأثر بمجددي عصريهما:

يتميز العظماء بامتلاك حواس إضافية، تُمكِّنهم من وقت مبكر من معرفة الناس، وتمييز الغث منهم عن الثمين، مع استفادتهم من كل خبرة صائبة أو علم نافع، وهذا ما فعله مالك وجولن.

---

(١) انظر مثلاً: المرجع السابق، ص٢٠-٢٣.

فقد تأثر مالك بمجدد الجزائر الكبير في عصره الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وتأثر جولن بمجدد تركيا الأعظم في عصره وهو بديع الزمان النورسي، ورغم أن جولن لم يلتق بديع الزمان كما فعل مالك مع ابن باديس الذي التقاه سنة ١٩٢٨م، إلا أنه ارتبط بفكره ودعوته أكثر مما فعل مالك الذي ابتعد عن جمعية العلماء وانتقدها بقوة عندما قبلت المشاركة في العمل السياسي.

ومع حب جولن الشديد للنورسي وإشادته الدائمة به، واستدلاله بفصوص حِكمه إلا أنه لم يتوقف عند اجتهاداته، فقد بنى عليها وزاد من روائع اجتهاداته واقتباساته الأخرى الكثير، فأوجد بذلك كله تياراً عظيماً شغل الناس بأخبار خدماته وقصص تفانيه!

٧- الوظيفة الحكومية ومحطة (اللاسلكي):

بدأ مالك حياته العملية كاتباً في محكمة آفلو التابعة لولاية وهران، وذلك سنة ١٩٢٧م، وانتقل بعدها إلى فرنسا لدراسة الكهرباء في معهد اللاسلكي بباريس، وكان جولن بدوره قد افتتح حياته بأداء الخدمة الإلزامية في الجيش التركي، وكان عمله هناك في اللاسلكي، حيث يبدو أنه علّمه النفاذ إلى القلوب بدون واسطة وبدون استئذان، ثم تعيَّن بعدها في وظيفة حكومية صغيرة وهي واعظ في بعض المساجد.

وربما كانت بدايتهما في وظيفة حكومية أحد العوامل التي ساعدتهما على الوصول إلى شاطئ التوازن والاعتدال في كل شيء، بما في ذلك عدم الاصطدام بالسلطات الحاكمة.

٨- خارطة الإنتاج الفكري:

من يقرأ كتب مالك بن نبي التي تقارب العشرين سيجد أنها تتوزع بين كتب كاملة، وكتب كانت محاضرات ثم جمعت في كتاب واحد ضمن عنوان جامع.

وهذا الأمر أكثر وضوحاً في إنتاج جولن، فقد ألقى مئات المحاضرات العميقة إضافة إلى آلاف الدروس والخطب والمواعظ، وقد جمعت بعض المحاضرات المتقاربة في كتب، مثل محاضرات السيرة النبوية التي جمعت في مجلد ضخم تحت عنوان «النور الخالد».

مما يجدر التذكير به في هذا المقام أن كتب جولن تزيد عن ثلاثة أضعاف كتب مالك، أي أنه كان أغزر في الإنتاج، وأكثر تفرغاً حتى أنه لم يتزوج أبداً، وبجانب ذلك كله فقد كان داعية ومربياً وواعظاً له آلاف من أشرطة الكاسيت كما يقول تلاميذه ومحبوه، وهناك إذاعة خاصة في تركيا بمواعظ ودروس فتح الله جولن.

وهكذا، فقد تشابها في كثير من محطات حياتيهما، ومع ذلك فلكلٍ شخصيته ومنهجه، ولكلٍ بصماته المميزة في الفكر والفعل الحاضرين في واقع العالم الإسلامي.

ولكن يبقى سؤال بالغ الأهمية وهو: هل تقاربا أم تباعدا، تشابها أم تباينا في معادلات النهوض وموازنات العروج الحضاري؟

إن إجابة السؤال هي مضمون المباحث الثلاثة، التي تمثل جوهر هذه الدراسة، حيث سندرس معادلات كل مفكر منهما بمعزل عن الآخر في مبحثين منفصلين، وفي المبحث الأخير سنعقد المقارنات ونقيم المقاربات للإجابة المباشرة عن السؤال الآنف الذكر.

المبحث الثاني

معادلات الإقلاع الحضاري عند مالك بن نبي

- تمهيد:

امتاز فكر مالك بن نبي بحضور خصيصة العدل الشمولي فيه، حيث التوازن الدقيق عنده بين الثنائيات الفكرية التي تمثل (روافع) للنهوض الحضاري إن تم الالتزام بهذا العدل، أو (خوافض) نحو التخلف والانحطاط، إن أسيء فهمها أو اختلّ منهج التعامل معها.

ونجح في الجمع بين فهم مقاصد الإسلام الحضارية والوعي بالواقع مع استيعاب فائق لسنن التغيير وأسباب النهوض كما تُقدمها العلوم الإنسانية ولاسيما علم الاجتماع، مما أوصله إلى المعادلات التي نحسب أن توازنها سيصنع درجات سُلّم النهوض، كما صنع ويصنع اختلالها دركات الانحطاط في المقابل.

ومن خلال استقراء أهم كتب ابن نبي يمكن القول إنها ثمان معادلات أساسية، تنتصب كل معادلة منها لتصنع درجة في سُلّم الرقي الحضاري، وهي:

١- معادلة (عوامل السقوط والنهوض) بين الداخل والخارج.
٢- معادلة (رؤية النهوض) بين الأصالة والمعاصرة.
٣- معادلة (وقود النهوض) بين المنهج والمفردات.
٤- معادلة (مادة النهوض) بين الواجبات والحقوق.
٥- معادلة (جنود النهوض) بين الفكر والروح.
٦- معادلة (طائرة النهوض) بين جناحي الفرد والمجتمع.
٧- معادلة (حركة النهوض) بين الأفكار والأفراد.
٨- معادلة (جسم النهوض) بين المضامين والأشكال.

وسنحاول شرح كل عنوان من هذه العناوين باختصار بسبب طبيعة هذا البحث المحدودة.

أولاً: معادلة (عوامل السقوط والنهوض) بين الداخل والخارج:

من المعلوم أن كثيرين من علماء المسلمين يُرجعون مشاكل الأمة ومعضلاتها الكبرى إلى عوامل خارجية بالأساس، وتوجد أقلية في الطرف الآخر تبرئ الاستعمار من كل مسؤولية، وتُحمل العوامل الداخلية الكامنة في بلدان المسلمين كامل المسؤولية أو جلها.

وبين هذين الطرفين هناك تيار وسطي استقرأ نصوص الشريعة، واستوعب التجارب التاريخية للمسلمين في السقوط والنهوض، وتأمل ملياً الواقع المعاصر، ليخرج بمعادلة متوازنة تعطي للعوامل الداخلية والخارجية صورة من صور التضافر، وإن كانت العوامل الداخلية تلعب دوراً أكبر من حيث قوة التأثير وبداية الانحراف والسقوط.

ومن هؤلاء مالك بن نبي الذي مال إلى هذا الفهم، وتعمق في وقائعه دراسةً وتحليلاً وتمحيصاً إلى أن بلور رؤيته في نظرية كاملة سماها: «القابلية للاستعمار»، حيث أكد أن أي أمة لا يمكن أن تُستعمر ما لم تحمل في ذاتها بذور «القابلية للاستعمار».

وقد أكد هذه الحقيقة في سائر كتبه وكتاباته، وفي مناسبات وسياقات متعددة، وبطرائق وأساليب مختلفة.

ففي كتابه «شروط النهضة»(١) أوضح أن قيام نهضة إسلامية معاصرة بحاجة إلى شرطين رئيسين هما: مطابقة التاريخ للمبدأ القرآني: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وإمكانية تطبيق هذا المبدأ في هذا العصر. ولتحقيق الشرط الثاني فإن الأمر بحاجة إلى ثلاثة عناصر وهي: الإنسان والتراب والوقت.

وعند النظر لهذين الشرطين وما يتفرع عنهما من عناصر، يتضح بجلاء أن العوامل الداخلية هي الحاسمة، مع حضور العوامل الخارجية التي تستغل الثغرات المحدثة والثغور المتروكة دون حراسة في جُدُر الأمة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ لتخريب أي شروط للتقدم وإحباط أي محاولة للنهوض الحضاري.

---

(١) ترجمة: عمر مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ط٤ (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

ولأن جبهة الأفكار أخطر الجبهات في هذا السياق فقد أولاها اهتمامه الكبير في سائر كتبه، ولاسيما في كتابه الشهير: «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»(١) كأهم أساس لمشكلات الحضارة التي تعاني منها أمة المسلمين.

وفي كتابه «ميلاد مجتمع»(٢) أبرز دور عوامل التخلف ودور الاستعمار في تدمير «شبكة العلاقات الاجتماعية»(٣).

ولخطورة هذين العاملين في الحؤول دون أي محاولة للنهوض الحضاري، فقد أكد أن نجاح أي ثورة في بناء وضع جديد والحفاظ على مكتسباتها مرهون بتصفيتها للاستعمار، ولن يكون ذلك فعالاً إلا بتصفية الإنسان من «القابلية للاستعمار»، وإن تصفية الاستعمار في الإنسان مشروط بتصفيته في الأرض ويجب أن يتقدمها(٤).

وذهب إلى أن الاستعمار أينما حل «كان يلوث الإنسان، حتى أصبحت تصفيته من رواسب الاستعمار أهم عمل ثوري في الثورة»(٥).

وظل يلاحظ في أكثر كتاباته أن الشعوب التي لم يحمل إنسانها «القابلية للاستعمار»، مهما تعرضت لظروف صعبة بل ولهزائم عسكرية، فإنها تعاود الإقلاع الحضاري بنفس السرعة التي لفظت بها الاستعمار.

---

(١) ترجمة: د. بسام بركة، د.أحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
(٢) ترجمة: عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، د. ت).
(٣) انظر: ميلاد مجتمع، ص٧٦-٨٦.
(٤) بين الرشاد والتيه، ط٦ (دمشق: دار الفكر، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ص٥١.
(٥) المصدر نفسه، ص٥٢.

ومن هذه الشعوب الحية الشعبان الياباني والألماني اللذان تعرضا لهزيمة ماحقة في الحرب العالمية الثانية، وتعرضت أراضيهما للاحتلال من قبل الحلفاء، لكنهما نهضا بقوة أثارت إعجاب العالم، لأن الاستثمار الحقيقي في الإنسان كان قد سبق تلك الظروف[1]. ولهذا اهتم بقضية بناء الإنسان، وتفعيل قضايا التربية، والتخطيط، والنقد الذاتي.

وفي كتابه «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة»[2] أولى عناية فائقة بإيضاح ظاهرة الأفكار التي يؤدي ضعفها أو موتها إلى تشكيل «القابلية للاستعمار»، وكيف يعمد الاستعمار إلى وأد كل فكرة صحيحة، وتشجيع الأفكار التي تُبقي «القابلية للاستعمار» حاضرة في بنيان العالم الإسلامي.

واهتم في هذا الكتاب بإبراز ترسانة وطرائق الاستعمار في تحطيم الأفكار، وأوضح كيف تندمج قطاعات عريضة من المسلمين في هذه المواجهة بدون وعي، حيث تتحول كثير من التيارات والشخصيات التقليدية إلى أسلحة تجتهد في الفتك بالأفكار المتجهة لمحاربة القابلية للاستعمار، بحسبانها أفكاراً دخيلة أو عميلة، لأنها لم تتجه لمحاربة الاستعمار مباشرة، كما حدث لابن نبي نفسه، مما أشار إليه مراراً في هذا الكتاب، وفي كتب أخرى، أهمها: «مذكرات شاهد للقرن»، و«في مهب المعركة»[3].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص١٧٢.

(٢) د.ط (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

(٣) انظر مثلاً: ص١٠٨-١٠٩ من هذا الكتاب.

ومن شدة ما لاقاه هذا المفكر من نوائب ومصاعب في حياته الفكرية والمهنية، ورغم شهرته بتحميل العوامل الداخلية التي يسميها «القابلية للاستعمار» المسؤولية الأكبر عن تخلف المسلمين، وإحباط كل أفكار ومحاولات النهوض، إلا أنه في هذا الكتاب «الصراع الفكري..» أظهر أصابع الاستعمار وكأنها وراء كل شيء وتستطيع عمل أي شيء، مما قد يراه بعض القراء تأثراً بنظرية المؤامرة.

غير أننا إذا قرأنا ابن نبي بصورة كاملة، وبعيداً عن ظروفه الخاصة، فإننا سنصل إلى ما ذكر هو نفسه أنه خلاصة خبرته في هذا الموضوع، وهو تمازج عوامل التخلف والصراع الفكري بين الاستعمار والقابلية له، لكن العناصر الاستعمارية لا تستطيع التأثير إذا لم تساعدها مكونات «القابلية للاستعمار»[(١)].

وبهذا التحليل العميق والتوازن الدقيق، يكون ابن نبي قد صنع أول درجة في سُلّم الترقي الحضاري المنشود، فالنهوض لا يمكن أن يكون إلا ذاتياً، ولا يمكن أن يأتي إلا من الداخل، وبهذا وحده يكون أي تغيير أصيلاً وليس دخيلاً، وهذا يقودنا إلى الدرجة الثانية في سُلّم النهوض.

---

(١) بين الرشاد والتيه، ص١٩٧-١٩٨.

ثانياً: معادلة (رؤية النهوض) بين الأصالة والمعاصرة:

لا يمكن أن تنجح أي رؤية في صناعة حضارة ما لم تجمع في بنيتها الفكرية والعملية بين الأصالة والمعاصرة.

هكذا يستخلص من يقرأ فكر ابن نبي، لكن هذه المعادلة لا يمكن أن تتحقق إلا بالخلاص من المفردات التي يصنعها الاستعمار والتي تصنع القابلية له داخل العالم الإسلامي.

والأفكار التي تصنع القابلية للاستعمار في أي مجتمع يسميها ابن نبي: «الأفكار الميتة»، أما الأفكار الاستعمارية فيسميها «الأفكار القاتلة»، وكلاهما أفكار تقليدية، لا يختبرها العقل، ولا تستقيم أمام حاجات الواقع المعاصر، ولهذا حذر من التقليد، مؤكداً أنه يُنتج أفكاراً ميتة لأن أصحابها قد ماتوا وصاروا في ذمة التاريخ، أما تقليد الغرب فينتج أفكاراً مُميتة(١).

وبالإضافة إلى المصائب التي ستنزل على رأس المجتمع الذي يستضيف الأفكار الميتة والأفكار المُميتة، بسبب خصائصهما، وبسبب تصارعهما وتآكلهما، فإن هذا المجتمع سيتعرض لانتقام الأفكار الأصيلة التي خذلها(٢).

---

(١) انظر: مشكلة الأفكار، ص١٤٦-١٥٢.

(٢) انظر: نفس الكتاب، ص١٥٣-١٦٠.

وتصبح الأفكار قاتلة عندما تُستورد من محيط ثقافي آخر، وتُقتطع من تجربة حضارية مغايرة، ولهذا كان شديد الدأب في التحذير منها، وكذا من الأفكار الميتة التي يشتد خطرها في صناعة الانفصام القائم اليوم في حياة المسلم المتدين، إذ أن الشعائر في واد والمعاملات في واد آخر[1].

ومثلما جعل وزر «القابلية للاستعمار» أكبر من وزر الاستعمار نفسه، فلم يتردد هنا عن اعتبار الأفكار الميتة - وهي كما يرى الأفكار الموروثة من عصر ما بعد الموحدين - أخطر على المسلمين من الفئة الأخرى (الأفكار القاتلة) أو المميتة[2].

ورأى أن التقليد - بشقيه التاريخي والتغريبي - لا يمكن أن يوجد الأصالة المنشودة أو الفعالية المطلوبة، ولا يمكن أيضاً أن يبتكر أي جديد يحقق مصلحة للأمة أو يدرأ عنها مفسدة، وأكد أنه لا يمكن مواجهة فعالية المجتمعات الأخرى إلا بفعالية ذاتية تكون ثمرة التزاوج المشروع بين الأصالة والمعاصرة، وهي المرتبطة بقراءة العقل المنضبط للواقع بصورة صحيحة وسوية[3].

---

(١) انظر: المصدر نفسه، ص٧٥-٧٦.

(٢) انظر: في مهب المعركة، ط٧ (دمشق: دار الفكر، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ص١٢٩-١٣٠.

(٣) انظر: مشكلة الأفكار، ص١٠٨-١١٠.

وحلل بتوسع في أماكن متعـــددة من كتاباته مخاطر التقليد والتغريـــب أو الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، ولفت الأنظار إلى خطورة خفية تكمن في المجموعتين، وهي أن الأفكار الميتـــة تتســـلح بسلاح (الأصالة) والـــسلفية، أما الأفكار القاتلة فتتدثر بدثار (المعاصرة) والحداثة[1].

وفي فصل تحت عنوان «بين الأفكار الميتة والأفكار القاتلة» دعا إلى أن «نمسك إذا ما اقتضت الظروف تنفسنا العقلي، وأن نتخذ أشد الاحتياطات ضد بعض أسباب العدوى الخطيرة المحتملة...»[2].

ولهذا فقد حذّر مراراً وتكراراً من التقليد، سواءً تذرع بالأصالة وتدثّر بالسلفية، أو تحجج بالمعاصرة وتَزَمَّلَ بالحداثة.

ومما قاله عن تقليد الغرب بعد دراسة متأنية وتأمل طويل وخبرة عميقـــة: «فإنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلاً مكان أمته ومركزها، بـــل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلـــة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن في ذلك تـــضييعاً للجهد ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار»[3].

وقد بيّن من خلال دراسته لتجارب الإقلاع الحضاري في ألمانيا واليابان والصين أن النهوض كان ذاتياً ونابعاً من حاجات وتجارب وأفكار داخليـــة،

---

(١) انظر نفس الكتاب، ص١٤٣.

(٢) في مهب المعركة، ص١٢٧.

(٣) شروط النهضة، ص٥٣.

مع استفادة من خبرات الآخرين التي يتم استثمارها وإعادة ترتيبها وفق مناهج ثقافية خاصة.

وأشار في مواضع عديدة إلى الطلاب الصينيين واليابانيين الذين يذهبون للدراسة في الغرب، وكيف يذهبون محصنين بثقافتهم الوطنية، «بينما غالباً ما يحدث للطالب الذي يذهب من بلادنا، أن يعود بشهادة ولكن بعد أن يترك روحه في مقاهي أو خمارات الحي اللاتيني أو في النوادي الوجودية بـ(سان جرمان)»[1].

ولأن الأصالة ضرورية لحفظ الهوية وتحقيق الرقي الحضاري كضرورة الماء لحياة الإنسان، فإنه يدعو للاعتصام بالأصول التي تكوِّن هذه الأصالة: «لقد كان الإسلام الحصن الذي فشلت تحت أسواره جميع المحاولات التي استهدفت سلب الشعب الجزائري شخصيته على مدى قرن من الزمان، كما كان الحافز الأيديولوجي الرئيسي الذي دعم جهده البطولي خلال الثورة.

ولكي نلخص هذه الكلمات لابد لنا أن نقول: إن علينا العودة إلى الأصول والمنابع التي منها نبع تاريخنا»[2]. والشعب الجزائري هنا مجرد نموذج لبقية الشعوب العربية والإسلامية بالطبع.

(١) بين الرشاد والتيه، ص١٢٢.

(٢) نفسه، ص٨٦.

وكما أنه يفرق بين التاريخ الإسلامي والمنابع التي استقى منها هذا التاريخ، داعياً للعودة إلى المنابع دون التاريخ، فإنه يُفرق في رؤيته للغرب بين وجهه الاستعماري الذي يرفضه جملة وتفصيلاً، ووجهه الحضاري الذي يدعو إلى الاقتباس منه كل نافع ومفيد ولكن دون تكديس كما يؤكد دائماً.

ونختم هذه الفقرة بقوله: «ويكفينا كي نقوم بعملنا على ما يرام، أن نسير طبقاً لمبادئ لا غنى عنها، ولو أتى نصُّها الحرفي على لسان غيرنا، أي على لسان من هو على غير سفينتنا»[1].

وما فتئ - في هذا السياق - يؤكد على ضرورة الاقتباس المبصر للمفردات والأشياء الضرورية ودون تكديس، وهذا ما يؤكد بدوره على ضرورة تفعيل المنهج في كل شؤون صناعة الحياة والصعود في مراقي الحضارة، وهذا ما ستتناوله المعادلة الآتية.

ثالثاً: معادلة (وقود النهضة) بين المنهج والمفردات:

عملية النهضة معقدة وبحاجة إلى كثير من المفردات: (الأفكار والقدرات والأشياء)، بعضها ستكون ابنة بيئتها، وبعضها الثاني يمكن اقتباسها من الخارج، أما البعض الآخر فسيتم استدعاؤها من التاريخ إذا ثبتت جدواها في هذا العصر، ولابد من ابتكار مفردات أخرى، بحسب المتغيرات والتطورات والواردات.

---

(١) بين الرشاد والتيه، ص١٠٢.

هذه المفردات الضخمة إن لم يوجد منهج يتحكم بها ويضبطها ستتحول إلى أكوام، تسبب فوضى عارمة وتُشيع قيم التآكل والصراع داخل المجتمع المسلم.

وهذا ما حثّ عليه مالك بن نبي في كافة كتبه، حيث أكد على ضرورة التوازن بين الأشياء والمنهج، وعلى ضرورة التوازي بين الكم والكيف.

ومن ذلك أنه في كتابه «شروط النهضة»[1] خصص فصلاً تحت عنوان: «من التكديس إلى البناء»، حذر فيه من تكديس المفردات التي تشكل وقوداً للنهضة من دون تدخل المنهج الذي يرسم الخطط و(الاستراتيجيات) لتوظيف كافة الطاقات ووضع سائر المفردات في أماكنها المناسبة حتى تتم عملية البناء الحضاري.

لكنه لم يملّ من التحذير من خطورة الترقيع ومعالجة الأعراض، ومن خطورة البحث عن دواء لمشاكل العالم الإسلامي في صيدلية الغرب، مؤكداً من الناحية الكيفية والناحية الكمية استحالة التقليد الحضاري، وتوصَّل في نهاية الفصل إلى صوغ معادلة النهوض الحضاري كالتالي:

- ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت.
- أو حضارة = إنسان + تراب + وقت[2].

---

(١) نفسه، ص٤٤-٥١.

(٢) بين الرشاد والتيه، ص٥٠.

ويعبر عن المنهج ووظائفه بمصطلحات عدة حسب السياق، ففي «ميلاد مجتمع» حث على ضرورة الجمع بين الأفكار والأشياء والأشخاص لبناء مجتمع النهوض الحضاري، لكن فاعلية هذا المجتمع لن تصل إلى مداها الأقصى إلا بمنهج ينظم عملها، وهو يشير إلى وظيفته من خلال الحديث عن شبكة العلاقات الاجتماعية، حيث يقول: «ففاعلية الأفكار تخضع إذن لشبكة العلاقات، أي أننا لا يمكن أن نتصور عملاً متجانساً من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالاً مؤثراً»[1].

وحثّ في ذات السياق على ضرورة التوازن بين الكم والكيف في سائر ميادين الحياة، وقد أشار إلى خطورة اختلال التوازن في بعض الإدارات الثورية بين الكم والكيف، مؤكداً أن للشيئية نتائج خطيرة على الصعيد الاجتماعي، وهو التطور القصوري أي استلاب سلطة المجتمع وتبديد وسائله[2].

وفي حديثه عن الشبكة الاجتماعية أكد على أن تطورها إنما يتم بالتعادل بين الكيف والكم[3].

---

(١) ميلاد مجتمع، ص٣٥.

(٢) مشكلة الأفكار، ص٨٠.

(٣) ميلاد مجتمع، ص٣٥.

أما زيادة الأفراد القادرين على العمل في ميادين الإنتاج مع زيادة متوسط ساعات العمل فإنه يصبح عامل إقلاع حضاري، ولذلك فإن الدول الغربية تُشجع زيادة النسل في بلدانها، وتشجع الأكفياء من العالم الثالث على الهجرة إليها(١).

ويبدو من تحليل ابن نبي لقضايا المنهج والأشياء، أنه يعد المنهج ثابتاً في كل الظروف، بينما الأشياء وسائر المفردات متغيرة، يمكن أن تزيد أو تنقص، تتقدم أو تتأخر، تُحذف أو تضاف.

وفي كل الموضوعات والقضايا التي تعالج مشاكل الحضارة وتُوصل إلى النهوض الحضاري كان من الواضح أنه يمتلك باقتدار خارطة الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي وعلم الاجتماع(٢). وكان ينطلق في تحليلاته من استيعاب كامل لهذه الخارطة.

رابعاً: معادلة (مادة النهوض) بين الواجبات والحقوق:

تشبه هذه الدرجة في سُلّم الصعود الحضاري الدرجة التي قبلها في أهميتها البالغة في إيجاد الفاعلية لمحاولات النهوض.

ومن يستقرئ كتابات ابن نبي يجد أنه يرسم خط الصعود الحضاري ومنحناه دائماً عند الحديث عن الحقوق والواجبات، فالمجتمع الصاعد هو الذي يتسابق أبناؤه لأداء واجباتهم دون السؤال عن حقوقهم، والمجتمع

---

(١) انظر: بين الرشاد والتيه، ص١٧٩-١٨١.

(٢) انظر مثلاً: الصراع الفكري، ص١١٨.

المستقر حضارياً - وهو الذي وصل إلى ذروته الحضارية وتوقف - هو الذي تتوازن فيه الحقوق والواجبات، أما المجتمع الذي يتسابق أبناؤه للبحث عن حقوقهم دون القيام بواجباتهم فهو المجتمع الذي يسير في منحنى الهبوط.

ومن هذه الزاوية يعيد صعود المجتمع الإسلامي الأول - مجتمع الصحابة - إلى هذا العامل، حيث كان الصحابة يتسابقون على أداء واجباتهم بشغف بالغ، «إنه الطور الحضاري الموسوم بأروع أشكال التقشف التي كان الرسول، عليه الصلاة والسلام، مثلها الأعلى في حياته الشخصية والعائلية، وهو يتميز كذلك بالمواقف الأشد بذلاً من صحابته - كأبي بكر وعثمان - الذين وضعوا ثرواتهم في خدمة الإسلام والمجتمع الإسلامي»[1].

ولشعوره بأهمية إنسان الواجب وبالذات في مراحل الثورات في تاريخ المجتمعات والأمم، وفي حالة بلاده الجزائر، فقد كان شديد المعارضة لانخراط مجاميع من الثوار في العمل السياسي تحت لافتة الاستعمار الفرنسي، لأنه لم يكن إلا صورة من صور الدهاء الاستعماري، كما أثبتت الأيام، لأن طبيعة العمل السياسي تدفع الناس للتسابق على نيل الحقوق، وهذا ما يكون غالباً على حساب الواجبات وهي وقود الثورات ضد الاستعمار وضد التخلف[2].

---

(١) مشكلة الأفكار، ص٤٥.

(٢) انظر: في مهب المعركة، ص٧٧.

وقد أصيب الشعب الجزائري بخيبة أمل كبيرة من تلك التجربة كما يبدو من تحليل ابن نبي للأحداث، ولذلك أطلق الجزائريون على الصورة المزيفة من السياسة، وهي التي تتم تحت عين المستعمر وبتوجيه منه، أطلق عليها مصطلح (البوليتيكا).

ويعلق ابن نبي على هذا المصطلح فيقول: «إن هذه الكلمة طلقة رصاص تجاه المخادعة والنفاق، إنها مكنسة كنس بها الشعب المزابل التي تكومت في سوق (البوليتيكا). إنها كلمة انتقام وثأر! لأنها تثأر لمن تبقى لديه صفاء بصر على الرغم من الاختلاسات التي مرت.

إنها تثأر للذين نادوا بالواجبات ورفعوا أصواتهم فوق من ينادي بالحقوق فقط، كأنما الحق شيء يعطى مجاناً.

فالفرق بين السياسة و(البلوتيك) هو ذلك: أولاً: فعندما يرتفع الصخب في السوق، وتكثر حركات اليد واللسان، وعندما لا يسمع الشعب غير الحديث عن (الحقوق) دون أن يُذكّر بواجباته، وعندما يشرع بالطرق السهلة الناعمة، فتلك هي (البلوتيك)»[1].

ولهذا ما فتئ يؤكد على ضرورة العناية الفائقة بالتوازن بين الحقوق والواجبات: «فمن أجل دفع الآلة الاجتماعية في الحركة، أي من أجل تحقيق شروط الإقلاع، يجب أن يقوم التخطيط على مسلّمة مدرجة كمبدأ عام

---

(١) بين الرشاد والتيه، ص٩٨.

لكل تشريع اجتماعي اقتصادي ألا وهي: «كل الأفواه تستحق قوتها، وكل السواعد يجب عليها العمل».

«فكل وطن متخلف يستطيع دفع عجلته على هذا الأساس الدستوري الذي يتكفل سائر الحقوق، ويفرض جميع الواجبات، ويحقق بذلك الحركة الاجتماعية التي تتغلب على كل نوع من الركود»[1].

هذا من أجل دفع الآلية الاجتماعية، أما من أجل الاستثمار الاجتماعي فهو يؤكد على نفس القانون: «يجب القوت لكل فم (حقوق)، ويجب العمل لكل ساعد (واجبات) »، ويعلق على ذلك قائلاً: «والمسلّمة الأولى (القوت لكل فم) تفرض منذ اللحظة الأولى شروطاً على الثانية لتطبيقها، إذ نحن لن نستطيع تشغيل السواعد كلها إذا لم نأخذ على عاتقنا إطعام الأفواه جميعاً»[2].

ويرى أن هذا الطريق هو طريق استعادة المجتمع الإسلامي لفاعليته، وهو «أن يضع دفعة واحدة في أساس تخطيطه مُسلّمة مزدوجة:

أ- كل الأفواه يجب أن تجد قوتها.

ب- بجميع الأيدي يجب أن تعمل.

عندئذ سوف لا تكون أفكاره مثقله بعدم الفعالية؛ لأن الأيدي سادرة في تحريك عجلة ديناميتها الاجتماعية.

---

(١) بين الرشاد والتيه، ص١٧٥.

(٢) نفسه، ص١٨٦.

والمدافعون عنه سيأخذون باعتبارهم: «أنه ليس المطلوب الدفاع عن أصالة الإسلام، بل مجرد إعادة فعاليته إليه بتحريكهم قواه الإنتاجية»(١).

ومن أجل أن يكون المسلم مهتماً بأداء واجباته كاهتمامه بأخذ حقوقه ينبغي أن يتم المزاوجة في بناء شخصيته بين الفكر والروح، وهذا موضوع المعادلة الخامسة.

خامساً: معادلة (جنود النهوض) بين الفكر والروح:

إن القاعدة الصلبة التي ستتولى تحمل أعباء النهوض الحضاري بأمتها، لابد أن تجمع في بنائها بين الفكر والروح، ولهذا كانت أول سور القرآن (اقرأ) وثانيها سورة (المزمل) التي قال مطلعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المزمل:١-٢).

وعندما تتمازج الأفكار (العقلية) مع الأحاسيس (الروحية) والمشاعر (القلبية) بمقادير مناسبة فإنها تُكوِّن ما يسميه مالك بـ(التوتر الداخلي) - أي الإيماني - مهما كان ما يؤمن به المجتمع .

ولذلك فإنه يعيد صلابة المجتمع الإسلامي في مواجهة حروب الردة، وفاعليته في إقامة دولته إلى هذا التوتر، فهو: «الذي يحدد خصائص مجتمع في منطلق حضارته، ويميزه عن مجتمع آخر في مرحلة ما قبل التحضر، أو ما بعد التحضر..»(٢).

---

(١) مشكلة الأفكار، ص١١٨.
(٢) انظر: مشكلة الأفكار، ص٤٥.

ولا يتوانى عن إطلاق مصطلح التوتر الداخلي على الإيمان الحي، لأنه يريد الإشارة إلى حساسية صاحبه ودفعه نحو مربعات الفاعلية، مثلما فعل عندما تحدث عن قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك التي اشتهرت بغزوة العسرة[١].

«وفي هذا الجو المتوتر كانت الأفكار المطبوعة تضع بصماتها المقدسة في جميع الأفكار الموضوعة، وفي جميع المواقف، وفي جميع الأمكنة..»[٢].

وكمثال حديث لعملية البعث الفكري والروحي، ضرب المثل بالحركة التي قادها في الجزائر جمعية العلماء المسلمين سنة ١٩٢٢م تحت قيادة عبد الحميد بن باديس، حيث كانت ما سماها بمعجزة البعث تتدفق من كلمات (بن باديس)، فكانت تلك ساعة اليقظة، حيث بدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك[٣].

وقد أوجدت هذه الحركة الإسلامية حراكاً داخل المجتمع الجزائري، حيث بفضل دعوتها امتلكت كافة التيارات «إرادة الحركة والتجديد والفرار من الزوايا الخرافية إلى المكاتب العلمية، ومن الخمارات الحقيرة إلى مواطن أكثر طهارة وفائدة.

---

(١) انظر: الكتاب نفسه، ص٧٣.

(٢) نفسه، ص٧٣.

(٣) شروط النهضة، ص٢٦.

ولقد كانت حركة الإصلاح التي قام بها العلماء الجزائريون أقرب هذه الحركات إلى النفوس وأدخلها إلى القلوب، إذ كان أساس منهاجهم الأكمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١)[١].

وقد وجدت جمعية العلماء قبولاً واسعاً لدى الشعب الجزائري لأنها اقتربت أكثر من فطرة الشعب ومن ثقافته وواقعه، وكذا من سنن الله في التغيير، بدمجها المتساوق بين الفكر والروح، وبين الثقافة والأخلاق.

وتحت راية هذه الجمعية: «كانت الأمة تقدم تضحياتها لبناء المدارس والمساجد من أجل البعث الفكري والبعث الروحي، الّذين هما عماد كل حضارة في سيرها الحثيث»[٢].

وبسبب عدم حدوث هذا التوازن في عالم المسلمين المعاصر لاحظ ابن نبي «أن هناك انفصالاً بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي، هناك افتراق بين المبدأ والحياة. والمسلم يعيش اليوم هذا الانفصال الذي يمزق شخصه شطرين: شطر ينظم سلوكه في المسجد، وشطر ينظمه في الشارع»[٣].

---

(١) شروط النهضة، ص٢٣.

(٢) نفسه، ص٣٦ (بتصرف بسيط).

(٣) ميلاد مجتمع، ص٩٨.

وقد شبه هذا الانفصام بـ(الدش الاسكتلندي)، لأنهم يصبون منه ماء ساخناً ثم يتبعونه بماء بارد[1]، ولذلك عالج هذا الانفصام بتحليل دقيق، وتوصل إلى ضرورة الموازنة بين العنصرين الفكري والروحي[2].

ولأن الأخلاق ثمرة طبيعية للجانب الروحي، فإنه ما فتئ يدعو إلى الجمع بين الثقافة والأخلاق، فقد حذر من خطورة العلم بدون أخلاق، وخصص فصلاً عن (السياسة والأخلاق) بدأه بمقولة كاتب غربي عاش في القرن السادس عشر ويدعى «رابليز» وهي: «العلم بغير ضمير ليس إلا خراب الروح»[3] وأكد فيه أن العلم «إذا تجرد من الأخلاق فإنه يمر حتماً إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق، سواء كان ذلك في الإطار الوطني أو الإطار الدولي»[4].

وختم هذا الفصل بما سماه أقصى تلخيص وهو: «إذا كان (العلم دون ضمير ما هو إلا خراب الروح) فالسياسة من دون أخلاق ما هي إلا خراب الأمة»[5].

---

(١) نفسه، ص٩٨.

(٢) انظر: نفس المصدر، ص٩٨-١٠١.

(٣) بين الرشاد والتيه، ص٧٣.

(٤) نفس الكتاب، ص٧٥.

(٥) نفسه، ص٨٠.

وللعـــلاقة الوثيقة بين الثقافة والأخـــلاق، فقد ذكر بأن تطور الثقافة في بلد ما يعني أن البذور الأخلاقية والجماليـــة فيـــه صـــارت أقـــرب إلى الكمال[1].

ولأهمية الأخلاق والجمال في الحضارات، فقد أقام المعادلة الآتية:

- مبدأ أخلاقي + ذوق وجمال = اتجاه حضارة.

وعلّق على هذه المعـــادلة بالقـــول: «وتعـــــد إذن هـــذه المعادلـــة مقياساً عاماً يدل على اتجاه الحضارة، كما يدل ما يسميه علماء الرياضـــية (الدال lediseriminant) في المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية»[2].

ولاهتمامه بدور الأخلاق مهما كان نوع الثقافة، فقد عـــرّج علـــى النموذج الشيوعي الذي طبقه في جمهورية كوبا زعيمها فيـــدل كاســـترو، حيث وضع حوافز أخلاقية، بجانب الحوافز المادية مما أدى إلى إثراء الإنتاج، وإلى النجاح في تجاوز المؤامرات[3].

وفي ذات السياق ظل يحث على استثمار الفكر في تنظيم الطاقة الحيوية للفرد، من خلال إعمال العقل بكل ملكاته، ومن ذلك تدبر القرآن الـــذي كان ســـلاح المجتمـــع الإســـلامي الأول، حيث قال: «وقد تم هذا العمل في المجتمع الإسلامي الأول بفضل رعاية الفكرة القرآنية، لا على أنها تُدرس

---

(١) شروط النهضة، ص١٠٧.

(٢) نفسه، ص١٠٨.

(٣) انظر: بين الرشاد والتيه، ص٢٧.

وتعلم على يد فقهاء في الشريعة، ولكن على أنها (حقيقة) عاملة مؤثرة، تجمع في نظامها مباشرة كل ما يقوم به الفرد من أعمال وإشارات، على ما جاء في حديث ابن عمر وحديث جندب، رضي الله عنهما: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، فتتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها»(١).

وكان وهو يُنظّر لميلاد المجتمع الإسلامي من جديد في هذا العصر، قد ختم كتابه بالتأكيد على أن الطريق هو الطريق الأول وهو تدبر القرآن كأنه أنزل اليوم، حيث قال: «فنحن بحاجة إلى إعادة تنظيم طاقة المسلم الحيوية وتوجيهها، وأول ما يصادفنا في هذا السبيل هو أنه يجب تنظيم تعليم (القرآن)، بحيث (يوحي) من جديد إلى الضمير المسلم الحقيقة القرآنية كما لو كانت جديدة، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير»(٢).

وقريب من هذا السياق حثه على ضرورة الجمع بين المثالية والواقعية في كافة شؤوننا ومنها الشؤون السياسية، حيث قال: «إن كل سياسة تتطلب شيئاً من المثالية توحي بمسوغاتها، وشيئاً من الواقعية تحدد وجوه تطبيقها والطرق الفنية للإنجاز».

---

(١) ميلاد مجتمع، ص١٠١.
(٢) نفسه، ص١٠٧.

«ويجب أن نلاحظ أن (المثالية) التي نتحدث عنها ليست صنفاً من (السوريالية) وتجريداً يسبح فوق الواقع، فوق الشروط الحقيقية، فوق المعطيات الطبيعية لوضع معين، إنها لا تتنافى مع (الواقعية)، بل تقتضيها على مستوى كبير»[1].

وعليه، فقد دعا إلى حل مشكلة الوحدة العربية في ضوء الجمع بين المثالية والواقعية[2]، وفعل مثل ذلك مع مشكلة النفط[3]، وبعد انتهائه من معالجة هذه المشكلة أكد على ذات القاعدة بقوله: «ولابد أن نكرر بأن اجتياز هذه المرحلة يتطلب من (المثالية) بقدر ما يتطلب من (الواقعية) للأسباب التي ذكرناها.

فإذا قدرنا الأشياء بمقياس (المثالية) عرفنا ما يتطلبه منا تحقيق ذلك من تقشف وتضحية.

وإذا قدرناها بمقياس من (الواقعية) عرفنا الشروط الفنية التي تجعل تحقيقها ممكناً»[4].

ومن المؤكد أن المزج بين الفكر والروح، وكذا بين الثقافة والأخلاق هو حاجة فردية وجماعية، وهذا ما ينقلنا إلى المعادلة الآتية من معادلات النهوض الحضاري عند مالك بن نبي.

---

(١) بين الرشاد والتيه، ص١٦٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٦٣.
(٣) راجع: نفس المصدر، ص١٦٤-١٦٥ .
(٤) بين الرشاد والتيه، ص١٦٨.

سادساً: معادلة (طائرة النهوض) بين جناحي الفرد والمجتمع:

وُجدت عدد من النظريات الاجتماعية والسياسية في الغرب التي خلقت نوعاً من التنازع بين الفرد والمجتمع، واجتهد أصحابها لمحاولة التوفيق - أو التلفيق أحياناً - وانتقلت هذه المعضلة إلى بعض المحسوبين على الفكر الإسلامي، حيث تشيَّع بعضهم لهذا الطرف وآخرون للطرف الآخر.

غير أن الذين تعمقوا في قراءة مصادر الإسلام ووعوا التجربة الذهنية للمسلمين أيام الخلافة الراشدة وجدوا أن الإسلام حل هذه المعضلة على أفضل وجه، إذ أن الانسجام بين الطرفين كان أحد أهم عوامل فاعلية الإسلام الذي صنع (خير أمة أخرجت للناس).

ومن يقرأ إنتاج مالك بن نبي يجده في طليعة العلماء والمفكرين الإسلاميين المعاصرين الذين درسوا هذه القضية، وحولوها من أداة لـ(التآكل) في الواقع إلى أداة لـ(التكامل)، بحيث يبدو للناظر كأن نهضة الأمة طائرة تطير بجناحي الفرد والمجتمع.

وإذا كان الفرد معروفاً، فإن المجتمع كما يعرِّفُهُ بن نبي «ليس مجرد مجموعة من الأفراد، بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتم طبقاً لنظام معين»[1].

ويشترط في مسمى المجتمع إذاً أن يشترك أفراده في اتجاه واحد، من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية واحدة، ومن ثم يتولى هذا المجتمع تركيب

---

(١) ميلاد مجتمع، ص١٥.

عوالم الأشخاص والأفكار والأشياء، بحيث يحقق هذا التركيب في اتجاهه وفي مداه «تغيير» وجوه الحياة، أو بمعنى أصح تطور هذا المجتمع[1].

ويبدأ تكوين هذا المجتمع من الفرد نفسه، بتحويله من فرد إلى شخص، «وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع»[2].

وقد حلل بن نبي الأسباب المسؤولة عن ظاهرة الفردية - عند المسلمين عموماً والعرب خصوصاً - في ثنايا عدد من كتبه، وأبرزَ العوامل التي تصنع المجتمع، وذلك بصياغة الأفراد صياغة اجتماعية، بحيث يصبحوا (أشخاصاً) مؤتلفين مع غيرهم، لا أفراداً مرتبطين بذواتهم أو بالقطيع فقط كالقبيلة مثلاً!

ومن أهم هذه العوامل والوسائل:

١- المدرسة: التي تقوم بتربية الفرد، عبر تخليته من أسباب الفردية والأنانية ودفعه للتحلي بقيم الائتلاف مع المجتمع الذي ينتمي إليه أو يعيش بين ظهرانيه[3].

٢- التربية الاجتماعية: وهي وسيلة فعالة - في الأساس - لتعليم الفرد كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يشترك مع بعضهم في تكوين مجموعات تغير

---

(١) نفس الكتاب، ص٢٤.

(٢) نفسه، ص٢٨.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٦٢.

شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يُكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ[1].

٣- علم النفس: وهو - بمساعدة الدين - يتولى التدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف (أنا) الفرد، ثم في توجيه هذه الطاقة تبعاً لمقتضيات النشاط الخاص بهذه (الأنا) داخل المجتمع، وتبعاً للنشاط المشترك الذي يؤديه المجتمع في التاريخ[2].

٤- الدين: وقبل هذه العوامل وبعدها فإن الدين عامل حاسم في تكوين الشخصية الاجتماعية التي تصبح لبنة في جدار المجتمع أو خلية في جسمه الحي.

وفي تاريخ أمة المسلمين - والعرب بالذات - لعب الدين دوراً محورياً في صناعة المجتمع المسلم الذي صار مضرب المثل في المتانة والائتلاف بعد أن كان العرب مضرب المثل في التمزق والاختلاف.

وإنها لشهادة من مفكر خبير، تبحَّر في العلوم، وعاش في الغرب، حيث قال: «إن روح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين أول مجتمع إسلامي، حتى كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن يُنكحه من يختار من أزواجه بعد أن يطَلّقها له، لكي يبني بذلك أسرة»[3].

---

(١) نفسه، ص٩٣.

(٢) بتصرف من الكتاب نفسه، ص٦٨.

(٣) شروط النهضة، ص٩٦.

ويفسر دور الدين في هذه المهمة الضخمة من ناحية علم النفس، بحيث يقدم تفسيراً علمياً متماسكاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى[1].

ولما كانت المجتمعات الإسلامية مكونة من بشر، فإن ظروفاً وعوامل عدة قد تُظهر التنافس بين الفرد والمجتمع، وتظهر من ثم الضعف البشري، ولكن الإسلام بواقعيته الملازمة لمثاليته قد عرف كيف يعطي للفرد مساحة للتنفيس دون أن يُخلّ بمصالح المجتمع، مع امتلاكه كافة التوجيهات الضرورية لتحويل الفرد إلى كائن اجتماعي، مما يحفظ التوازن، بحيث تبقى فاعلية الفرد دون أن يفقد المجتمع تماسكه ولحمته، وبجانب ذلك أوجد الإسلام حلولاً للمشاكل التي قد تقع في سياق التناقض بين الفرد والمجتمع كما يفعل علم النفس الفردي والاجتماعي[2].

ومن ضمن المقترحات التي اقترحها ابن نبي كمفكر إسلامي لحفظ التوازن بين الفرد والمجتمع، فكرة توجيه العمل، بحيث لو طُبقت كما اقترح فإنها تصبح عاملاً عملياً جديداً في تحقيق التوازن المنشود[3].

ولأهمية التوازن بين الفرد والمجتمع في عملية النهوض الحضاري، وهو التوازن الإيجابي لا السلبي بالطبع، أي الذي يُبقي فاعلية كل طرف، فقد بيَّن

---

(١) انظر: ميلاد مجتمع، ص٦٦-٦٧.

(٢) انظر: شروط النهضة، ص٨٠.

(٣) راجع: المصدر نفسه، ص١١٤-١١٥.

الآثار الأخرى لهذا التوازن، مثل حديثه عن الفكرة التي تعمل في بناء المجتمع بقدر اندماج الفرد في المجتمع(١).

وحذر في المقابل من خطورة الفردية على المجتمع، وحلل الظروف التي تخلق الفردية أو تهيئ المناخ المناسب لظهورها وانتعاشها وتضخمها، ومن ذلك فساد العلاقات الاجتماعية فإنه يعيد الفردية إلى أي مجتمع مهما كان(٢).

وأوضح أن المجتمع الذي يدور فيه عالم الأفكار حول محور الأشياء، فإنه يكون مهيئاً لبروز الفردية(٣).

وقد استجاب الإسلام لحاجات الفرد وحاجات المجتمع، عبر اندماج الفرد في المجتمع وتحوله إلى شخصية: «فإن اطراد اندماج الفرد يتدرج مستجيباً لطبيعته من ناحية، ومن ناحية أخرى مستجيباً لنسق من أصول وقواعد في الحياة يمكن تعريفه وهو في مرحلة متقدمة بمثابة عقد اجتماعي»(٤).

وفي إطار العلاقة بين الفرد والمجتمع قام بدراسة مشكلة المرأة، فكل طرف منهما - الرجل والمرأة - هو شطر في هذا المجتمع، وعند التعارض بين مصلحة الفرد والمجتمع يقدم المجتمع(٥).

---

(١) انظر: مشكلة الأفكار، ص٢٨.

(٢) انظر: ميلاد مجتمع، ص٤٠.

(٣) انظر: مشكلة الأفكار، ص٣٤.

(٤) مشكلة الأفكار، ص٤٩.

(٥) انظر: شروط النهضة، ص١٢٤.

ومع ذلك فقد اعترف بمشكلة المرأة، إلى حد أنه قال: «فإن مشكلة المرأة مشكلة إنسانية يتوقف على حلها تقدم المدنية»[١] بل وذهب إلى أن «تطور المجتمع يرتبط فعلاً بتطور المرأة، والعكس صحيح...»[٢].

وذكر بأن من فضل الإسلام على المرأة أنه أنقذها من الوأد، حيث كان يتم دفنها في التراب وهي حية، ولكن المسلمين اليوم عندما أساؤوا فهم دينهم دفنوها في الجهل بدلاً عن التراب[٣].

ومهما كانت مشاكل المرأة التي درس بعضها بعمق، بعيداً عن التسطيح والتقليد، فقد حث على ضرورة دراسة مشكلتها ضمن واقع المجتمع المسلم الآن، وليس انطلاقاً من التراث الإسلامي أو من واقع الحياة الغربية.

وكعادته العملية والواقعية فقد تمنى على النساء عقد مؤتمر عام «يحددن فيه مهمة المرأة بالنسبة لصالح المجتمع، حتى لا تكون ضحية جهلها، وجهل الرجل بطبيعة دورها، فإن ذلك أجدى علينا من كلمات جوفاء ليس لها في منطق العلم مدلول»[٤].

---

(١) نفسه، ص١٢٦.

(٢) في مهب المعركة، ص٩٧.

(٣) نفسه، ص٩٩.

(٤) شروط النهضة، ص١٢٧.

وهكذا، أبرز ابن نبي عبقرية الفكر الإسلامي وتوازنه المدهش في صناعة طائرة النهوض بجناحي الفرد والمجتمع، من خلال تحويل الفرد إلى شخص بحيث يصير وحدة مؤتلفة في البناء الاجتماعي.

ولكن: ما الضامن ألا تظهر في هذا الشخص أعراض الشخصانية وتورُّم الذات؟.. هذا ما تناقشه المعادلة الآتية، وهي درجة أخرى من درجات سلم النهوض الحضاري، تحدد العلاقة المتوازنة بين الأفكار والأشخاص.

سابعاً: معادلة (حركة النهوض) بين الأفكار والأشخاص:

من المعلوم أن صناعة الحضارة عند مالك بن نبي تتم من خلال الانسجام الكامل بين ثلاثة عناصر، هي: الأفكار والأشخاص والأشياء.

وإذا كان الأشخاص غاية بالنسبة للأشياء، فإنهم يصبحون وسيلة بالنسبة للأفكار، وعندما يتحولون إلى غاية تحدث مشاكل كبرى وتتوقف طائرة الحضارة عن الإقلاع.

ولهذا فقد اهتم ابن نبي بدراسة العلاقة بين الأفكار والأشخاص اهتماماً بالغاً، وعمل بمهارة فائقة نتيجة هضمه لمقاصد الإسلام ووعيه بثقافة العصر على إبراز الانسجام الذي يجب أن يكون بين الطرفين، وعلى التحذير من تبادل المقاعد بين الأفكار والأشخاص، وذلك عندما يتم تجسيد الأفكار وشخصنة الرؤى.

وأول ما يلفت النظر إليه هو أن عالم الأفكار ينبغي أن يظل في المقدمة، مؤكداً أن تقدم عالم الأفكار يؤدي إلى التوحد والتآلف في عالم الأشخاص،

كما حدث في التآخي بين المهاجرين والأنصار في دولة المدينة المنورة التي أقامها الرسول ﷺ[1].

وعندما تتراجع الأفكار يتضخم الأشخاص والأشياء: «هكذا يتواصل الاطراد في المجتمع كما في الفرد حتى نقطة الارتداد والانكفاء، هنا تجمد الفكرة، وتتجه المسيرة نحو الوراء، إذ ينقلب المجتمع الإسلامي على أعقابه ليعود على إثر مراحل عوالمه الثلاثة.

هنا لا يعود عالم أشخاص على هيئة النموذج الأصلي الأول، بل يصبح عالم المتصوفين، ثم عالم المخادعين والدجالين من كل نوع، ولاسيما من نوع (الزعيم)»[2].

ويُبرز جوهر تفوق المشروع الصهيوني في المنطقة العربية وهو انسجام الأفكار والأشخاص والأشياء في هذا المشروع، وتناقضها في المقابل في المشاريع والدول العربية[3]..

وبسبب تراجع الأفكار في البلاد الإسلامية وعدم عناية المثقفين أنفسهم بالفكر، فإن هذه البلاد أكثر من أي بلاد أخرى، تعاني في هذا الزمن وثنيات الأشخاص والأشياء[4].

---

(١) مشكلة الأفكار، ص٤٠.
(٢) نفسه، ص٤٠.
(٣) انظر: بين الرشاد والتيه، ص٣٢.
(٤) انظر: شروط النهضة، ص١٦٣.

ولا تتقدم الفردية والشخصـــانية فقط بسبب تأخر الأفكار، بل أشار إلى عـــوامل أخرى اجتماعية، مثل إصـــابة شبكة العلاقات الاجتماعيـــة، فإن إصابتها في أي مجتمع ستؤدي بهذا المجتمع قطعاً إلى مواجهـــة ســـيئات الروح الانفرادية[1].

- عواقب تقدُّم الشخصانية وتأخر الأفكار:

لقـــد أبدع في توضيـــح الخسائر والمضـــار والمشـــاكل التي ســـتنتج عن تراجع الأفكار وتقدم الشخصانية في أي مجتمع، ويمكن تلخيص أهمهـــا على النحو الآتي:

١- رفْض المثل الأعلى أو استبداله بمثل آخر:

فعندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما، فإن سائر أخطاء الشخص ينعكس ضررها على المجتمع الذي جسد في شخصه مثَلَه الأعلى، «وســـائر انحرافات ذلك الشخص تترصد كذلك في خســـائر، وتكون هذه الخسارة إما في رفضه للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في ردة حقيقية يعتقد عبرهـــا بإمكانية التعويض باعتناق مثل أعلى آخر»[2].

---

(١) بين الرشاد والتيه، ص٤٧.

(٢) مشكلة الأفكار، ص٨١.

٢- بروز آفة الاستبداد السياسي والفكري:

«إن عبادة (الرجل السماوي) كعبادة (الشيء الوحيد) منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي المعاصر، وتكون أحياناً سبب ما نشهده من حالات إفلاس سياسي مذهل»[١]. والاستبداد أشبه بمرض فقدان المناعة، حيث إن جسم المجتمع قابل لكل العلل والآفات، ولكل الغزاة والمعتدين.

٣- وضع الأشخاص في مواجهة الأفكار:

يقول ابن نبي عن هذه المعضلة الناتجة عن تجسيد الأفكار وتضخم الأشخاص: «(فالرجل السماوي) أو (الرجل النجس): هما اللذان يُستغلان بصفة دائمة، ويُزجَّان حتى دون علمهما من أجل إجهاض بعض الأفكار.

إن تناقض الفكرة والوثن قد ضمن بصفة عامة للاستعمار نجاحه الباهر في الإجهاض السياسي في بلادنا، مستخدماً غالباً مثقفينا أنفسهم»[٢].

إن اختلال التوازن الثقافي بين الأفكار والأشخاص بيئة خصبة لاستنبات المغالاة وولادة الطغيان.

ويتأصل هذا الخلل حينما لا يكون عالم الأشخاص هو الذي يستقطب النشاطات الثقافية بل بوجه خاص فإن شخصاً معيناً هو الذي يستقطب[٣]، ومن ثم يصبح الشخص المستقطب مقدساً عند الناس، وهذا ينقلنا إلى الآفة الرابعة.

---

(١) نفس الكتاب، ص٨٢.
(٢) مشكلة الأفكار، ص٨٣.
(٣) نفسه، ص٩٥.

٤- تقديس الأشخاص:

إن اختلال العلاقة بين الفكرة والشخص، يؤدي إلى بروز تطرف يثمر تحول الشخص إلى وثن. يقول بن نبي: «وبفضل تلك العلاقات المنحرفة نحو التطرف فإن الشعب الجزائري أقام قبب مرابطيه وأوليائه، وحافظ على عكوفه عليهم عبر قرون ما بعد الموحدين»[1] وهذا هو ديدن المجتمعات الإسلامية، مع وجود فوارق نسبية بالتأكيد، حيث أصبح الأحياء يستنجدون بالموتى!!

٥- الانكباب والمشي على الرؤوس:

«لقد انقلب الجهاز الذي أخذ يسير وأرجله في الهواء ورأسه إلى أسفل، وهذا هو المظهر الجديد للمشكلة حينما أخْلت الفكرة مكانها للوثن»[2]. فعندما يظهر الطاغية ويمارس الناس أمامه الصَغار، فإن هرم المجتمع ينقلب، ويصبح الوضيع رفيعاً، واللص شريفاً، والخائن أميناً، والأحمق حكيماً، وهلم جرا!!

٦- غياب الموضوعية والإنصاف وبروز التعصب:

ويمنع غياب الموضوعية من الاستفادة من الآخرين في إيجابياتهم، ويمكّن العدو من العبث بمصائرنا . وقد ذكر ابن نبي أن الاستعمار أجاد اللعب بهذه

---

(١) نفسه، ص٩٦.

(٢) نفسه، ص١٠١.

النقطة، حيث قال: «فمثلاً هو - أي الاستعمار - يعلم بأنه حينما يقول الشيطان: اثنان زائد اثنين يساوي أربعة، فإن المسلمين سيقولون: ليس هذا صحيحاً لأن الشيطان قال ذلك.

وعلى العكس من ذلك فإذا ما ارتفع صوت له سمة (الصدق) يقول: اثنان زائد اثنين يساوي ثلاثة، فإن المسلمين سيقولون هذا حق لأن هذا الرجل الصادق قد قال ذلك»[1].

وذكر ابن نبي أن مظاهرات خرجت في مصر سنة ١٩١٩م تصرخ في شوارع القاهرة: (نظام الحماية مع زغلول خيرٌ من الاستقلال مع عدلي باشا) وعلّق قائلاً: «وهذه البدع ستستمر ما دام عالمنا الثقافي محكوماً بالأشياء والأشخاص»[2]. وفي مثل هذه الأجواء المحرومة من (هواء الموضوعية) تشيع (الأهواء)، وتتسيَّد العصبيات المذهبية والطائفية والعرقية والقبلية والحزبية!

٧- الثورات المضادة:

الاستعمار يعرف علل المسلمين ومجتمعات العالم الثالث عامة، ومن ثم فإنه يستغل الثغرات ونقاط الضعف، ومنها الشخصانية، حيث يستغل -مثلاً- بعض الزعامات والقيادات لتشكيل ثورات مضادة

(١) مشكلة الأفكار، ص١٢٣.

(٢) نفسه، ص١٢٨.

ولخدمته - أي الاستعمار- بدون وعي منها[1]. وضرب مثلاً لذلك من الثورة الجزائرية، وقد حدث في كل الثورات وسائر البلدان أشياء من هذا القبيل.

٨- غياب النقد الذاتي وتراكم الأخطاء والعلل المسببة للسقوط:

عندما يُقَدس الأشخاص، فإن الشعوب تكون قد قبلت المهانة ومارست الاستخذاء، ومن ثم يصل القادة إلى حد الاستبداد والطغيان، وفي مثل هذه البيئة تكثر الأخطاء وتتكاثر الجراثيم والميكروبات، ولذلك فإن الاستعمار يشجع مثل هذه الحالات بطريقة غير مباشرة، حيث يقضي على خصمه من الداخل، وهو فقط يراقب ويوجه ويستثمر!

يقول مالك بن نبي: «ومن هنا ندرك ما سيبذل الاستعمار من جهد لعزل الأفكار عن المجال السياسي حتى أن عمليات الرقابة والتصحيح والنقد الذاتي، التي من شأنها أن تكشف نواياه وتعطل مشروعاته تصبح غير ممكنة في البلاد المستعمرة.

إن الاستعمار شيطان: ولكنه لو جهر بإعجابه (بمركب الأفراد) وشكره على الخدمات التي يقدمها له، عن شعور أو عن غير شعور، لكان دون شك شيطاناً بليداً..»[2].

---

(١) انظر: مشكلة الأفكار، ص١٢٤-١٢٥.

(٢) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص٢٨.

ولخطورة غياب النقد في بلادنا العربية، وما يترك هذا الغياب من آثار سيئة وتداعيات سلبية، فقد أكثر ابن نبي من الحديث عنه بألم شديد، رابطاً إياه بداء الشخصانية وغياب أو ضعف الأفكار[1].

ولخطورة الشخصانية - أو التجسيد كما يسميها - فقد اهتم القـــرآن بهذا الموضوع، وزرعه في الوعي الإسلامي بقوله تعـــالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وعلّق على هذه الآية فقال: «هذا التحذير ليس موجـــهاً لتفادي خطأ أو انحراف مستحيل من الرسول ﷺ، ولكنه من أجل الإشـــارة إلى خطـــر تجسيد الأفكار بحد ذاته»[2]. وقد تحدث عن مـــبررات الثـــوريين العـــرب لتكميم الأفواه ومنع النقد، ونقدها بقوة، حتى أنه قال ذات مرة: «فـــالثورة حين تخشى أخطاءها ليست بثورة، وإذا هي اكتشفت خطأ من أخطائها ثم التفتت عنه فالأمر أدهى وأمر»[3]. ويبدو أن هذا المفكر الكبير مـــن أكثـــر المفكرين العرب اهتماماً بالنقد في دائرتي الفكر والفعل.

والنقد الذاتي إذا وُجد سيقود إلى التدقيق، ومن الأمور التي تحتـــاج إلى تدقيق العناية بالمضامين والأشكال، وهو محطتنا الأخيرة في هذا البحث.

---

(١) انظر مثـــلاً: مشـــكلة الأفكار، ص٨٢-٨٣، ١٢٦-١٢٧؛ بين الرشـــــاد والتيـــه، ص٤١-٤٣؛ في مهب المعركة، ص ١٠٦-١٠٨.

(٢) مشكلة الأفكار، ص٨٢.

(٣) بين الرشاد والتيه، ص١٨.

ثامناً: معادلة (جسم النهوض) بين المضامين والأشكال:

من يقرأ كتب ابن نبي سيجده شديد العناية بالمضامين والمعاني والمقاصد، لكنه لم يُفرط أبداً بالأشكال والمباني والوسائل، وهي التي سوف نبرز عنايته بها في هذه الفقرة، أما المضامين والمعاني فهي جوهر فكره كله، ولا تحتاج إلى إيضاح أو تدليل وتمثيل.

وسنضرب المثل باللبس الذي أولاه عناية غير متوقعة منه في مشروع النهضة، حيث قال: «وليس اللباس من العوامل المادية التي تقر التوازن الأخلاقي في المجتمع فحسب، بل إن له روحه الخاصة به. وإذا كانوا يقولون: (القميص لا يصنع القسيس) فإني أرى على العكس من ذلك، فإن القميص يسهم في تكوين القسيس إلى حد ما، لأن اللباس يضفي على صاحبه روحه، ومن المشاهد أنه عندما يلبس الشخص لباساً رياضياً، فإنه يشعر بأن روحاً رياضية تسري في جسده ولو كان ضعيف البنية، وعندما يلبس ثياب العجوز فإن أثر ذلك يظهر في مشيته وفي نفسه، ولو كان شاباً قوياً.

ولم يكن نزع الطربوش والاستعاضة عنه بالقبعة في تركيا الكمالية بالشيء البسيط، فقد كان أتاتورك يعلم أن الطربوش جزء من الفكر العتيق، فكر الباحثين عن التسلية وقتل الوقت، أولئك الذين سئموا الحياة، وباتوا يدخنون النرجيلة، ويتلهون بكركرتها عن كر دقائق الزمن، تسلية لأنفسهم بحياة تنابلة السلطان».

«لقد كانت فكرة مصطفى كمال التي دبرها قنبلة، ولكن تأثيرها لم يتم لأن صاحبها لم يفكر في الشروط الأخرى لنهضته»[1].

ويؤكد مرة أخرى أنه لا شك «في أن مصطفى كمال حينما فرض القبعة لباساً وطنياً للشعب، إنما أراد بذلك تغيير نفس لا تغيير ملبس، إذ أن الملبس يحكم تصرفات الإنسان إلى حد بعيد»[2].

وفي نهاية فصل خصصه لدراسة مشكلة الزي في كتابه (شروط النهضة) أكد بيقين جازم: «أنه لمن الغباوة أن ننكر اليوم مشكلة الزي المناسب لرجال النهضة ونسائها، ولكننا نكون أكثر غباوة إذا ما استسلمنا في ذلك إلى التقليد البحت، بلا التفات إلى مقتضيات أحوالنا من حيث دستور الجمال وضيقنا الاقتصادي والقيام ببعض الواجبات كالصلاة مثلاً»[3].

إذاً، هو لا يعتبر اللبس أمراً شكلياً أو كمالياً أو هامشياً، بل يضعه في صلب قضية النهوض الحضاري، حيث يؤثر على نفسية الإنسان بهذا القدر أو ذاك.

وقد اهتم بصورة عامة بالجمال لما له من تأثير على جمال أفكار الإنسان وجمال مشاعره، وجمال سلوكياته وتصرفاته، وجعل من شروط

---

(١) شروط النهضة، ص١٣٣.

(٢) نفس المصدر، ص٩٩.

(٣) نفسه، ص١٣٤.

النهضة ما سماه بـ(التوجيه الجمالي) ودَرَسَه في فصل خاص ضمن كتابه (شروط النهضة)[1].

وفي هذا السياق يقول: «فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل، وتوخياً للكريم من العادات.

ولا شك أن للجمال أهمية اجتماعية هامة، إذا ما عددناه المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع.

والواقع أن أزهد الأعمال - في نظرنا - له صلة كبرى بالجمال، فالشيء الوحيد قد يختلف تأثيره في المجتمع باختلاف صورته التي تنطق بالجمال، أو تنضح بالقبح، ونحن نرى أثر تلك الصورة في تفكير الإنسان وفي عمله وفي السياسة التي يرسمها لنفسه، بل حتى في الحقيبة التي يحمل فيها الإنسان ملابس سفره»[2].

والذين لا يهتمون بالمظاهر والأشكال قد يتهمون ابن نبي بالمبالغة عندما يجعل للجمال كل هذا التأثير في صناعة الحضارة، من مثل قوله: «والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا، وأن

---

(١) نفسه، ص٩٧-١٠١.
(٢) شروط النهضة، ص٩٨.

نتمثل في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا مسحة الجمال نفسها، التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي.

يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات والروائح والألوان، كما يثيرنا منظر مسرحي سيء الأداء.

إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه»[1].

وتتضح أهمية الجمال البالغة في رؤية ابن نبي وتأثيرها الشديد على عملية النهوض الحضاري ليس من تقريراته فحسب في هذا المجال، بل من لغته التي أصبحت - كما في النص الأخير - أقرب إلى الوعظ والحث والدفع، كأنه يخشى أن لا يصدقه قومه، كما تعوَّدوا على اعتبار هذه الأشياء أموراً ثانوية، ولذلك استخدم أسلوباً وعظياً غريباً على أسلوبه الفكري المميز، والقائم على التقرير والوصف والتحليل.

وتتأكد عنايته بـ(الأشكال) كمكملات ضرورية لـ(المضامين) من عنايته بالفنون الجميلة، حيث خصص لها فصلاً في كتابه (شروط النهضة)[2].

---

(١) نفسه، ص١٠٠-١٠١.

(٢) نفسه، ص١٣٥-١٣٨.

وفي نهاية المبحث نشير إلى أن ابن نبي في تنظيمه للعلاقة بين تلك الثنائيات، ظل دائب التأكيد على ضرورة المزج المتناغم بين هذه العناصر، محذراً من مجرد التكديس، فإن التكديس لا يؤدي إلى البناء الحضاري المطلوب. ويستدعي البناء حضور الفكر والخطط والموازنات الدقيقة بين الأشياء على شكل معادلات كيميائية.

وضرب المثل بالماء الذي يتكون من تفاعل عنصري الهيدروجين والأوكسجين[١] بمقادير مضبوطة متوازنة، فإن الإنسان لو كدَّس ملايين الأطنان من هذين العنصرين ثم بقي ينتظر أن يتكون الماء فإنه لن يتكون وحده.

وبنفس المنطق دعا إلى تحليل المنتجات الحضارية والبحث عن مكوناتها، عندها سيخرج المرء بحقيقة عامة هي أشبه بمعادلة كيميائية:

- حضارة = رجل + تراب + وقت[٢].

ومن هنا فإن التخطيط لحضارة لا يستدعي التفكير في منتجاتها وتكديسها، وإنما في أشياء ثلاثة: الإنسان والتراب والوقت، بحيث تحل مشاكلها حلاً علمياً، من خلال البناء المتكامل للإنسان، والعناية بالتراب وبالزمن[٣].

---

(١) جاء في (كتاب تأملات، ص١٧٠) ذكر الأيدروجين والأوكسجين. والعنصر هو الهيدروجين كما أثبتناه في المتن، وقد تم تصحيح هذا الخطأ في مقام آخر (نفس الكتاب، ص٢٠٠-٢٠١).

(٢) تأملات، ص١٧١.

(٣) المصدر نفسه، ١٧٢.

وهكذا، فإن المعادلة الرئيسة للإقلاع الحضاري تتكــون عنــده مــن التفاعل الخلاّق بين هذه العناصر الثلاثة: الإنسان والتراب والوقت: «مجموع منتجات حضارية = مجموع إنسان + مجموع تراب + مجموع وقت»[1].

وفي ذات السياق يقول: «وبالتالي يمكن أن أكتب النتيجة التحليلية في صورها النهائية:

- حضارة = إنسان + تراب + وقت»[2].

وبعقل المهندس وروح المفكر، كتب مالك بن نبي هــذه المعــادلات المتوازنة لتحقيق الإقلاع الحضاري لهذه الأمة التي طال انحطاطها، وخسرت وخسر معها العالم الكثير بسبب هذا الانحطاط.

وهكذا يتكامل المبنى مع المعنى، وتتمازج الأفكار مع الأشياء، وتتحــد المضــامين مع الأشــكال، وتتضافر الجواهر والمظاهر لتكوين رافعة أخرى من الروافع المســؤولة عن صنــاعة النهضة عند مالك بن نبي. فماذا عــن فتح الله جولن؟

هذا ما سنعرفه في المبحث الآتي.

---

(١) تأملات، ص ١٩٩.

(٢) نفسه، ص ٢٠٠.

المبحث الثالث

موازنات العروج الحضاري عند فتح الله جولن

- تمهيد:

من يقرأ حياة المفكر والداعية التركي محمد فتح الله جولن، يدرك أن الله منحه عدداً كبيراً من المواهب والملكات النفسية والعقلية والاجتماعية، ونشّأه في بيئة خصبة جغرافياً واجتماعياً، وتقلّب في ظروف متباينة، وواجَهَ تحديات وابتلاءات شتى، كل ذلك بجانب إرادة الرجل الصلبة، ومواهبه الثرية، وإخلاصه الجمّ، وعلمه الغزير، وحركته الواسعة، ودعوته اللطيفة، يبدو أنها قد تضافرت في إيجاد فكر عادل متوازن وحركة متزنة معتدلة، بحيث ارتقى إلى قمة الحكمة التي تجعل المرء مسدداً في أفكاره وأفعاله، يضع الشيء في مكانه وزمانه المناسبين، بمقداره وهيئته المتكاملتين، وصدق المولى عزّ وجلّ إذ يقول: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩).

وبامتلاك جولن لهذه الموازنات، أوجد قاعدة مهمة للعروج الحضاري المنشود في هذه الأمة.

ومن خلال استقراء كاتب هذه السطور لكتابات جولن الفكرية ومناشطه الدعوية هو وتلاميذه في «تيار الخدمة»، بدا له أن هذا العملاق امتلك ميزاناً دقيقاً وازن به بين الثنائيات التي يمكن أن تشكل (عوامل للنهوض الحضاري في حالة التوازن، وإذا اختل هذا الميزان يمكن أن تستحيل إلى (عوائق) أمام هذا النهوض.

ومع كثرة الثنائيات التي وازن بينها جولن بميزانه الدقيق الذي يشطر الشعرة إلى أربعين شطراً، فمن الممكن الإحاطة الموجزة - في هذا المبحث - بأهمها، وهي ثماني موازنات عادلة على النحو الآتي:

أولاً: الموازنة في صياغة (رؤية العروج) بين الشريعتين القرآنية والفطرية:

في المبتدأ نتعرف على مصطلحي: الشريعة القرآنية والشريعة الفطرية عند جولن، فالشريعة القرآنية هي القرآن نفسه، وقد عرّفه بأنه: «مجموعة القوانين الإلهية، النازلة من الخبير المتعال والمشرقة على عالم بني الإنسان، والتي تتناول الإنسان من جميع جوانبه، من قلبه وروحه وعقله وجسمه»(١).

وهذا التعريف الذي ينظر إلى القرآن كشريعة قانونية، يريد منه صاحبه لفت الأنظار - بقوة - إلى أن القرآن جاء لتطبيقه في الحياة كمنهج متكامل يجب على المسلم فهمه واتباعه.

---

(١) فتح الله جولن، الموازين، ص١٨٤.

وبالمناسبة فإن أحد مصطلحات التعامل مع القرآن وهو (التلاوة) يـــأتي في العربية بمعنى الاتباع المباشر، وهذا ما جسده بالفعل رسول الله محمد ﷺ وصحابته الكرام، فصاروا بفضل ذلك الاتباع خير أمة أخرجت للناس[1].

أما الشريعة الفطرية فيقصد بها جولن آيات الأنفس والآفاق، وما يرتبط بهما من قوانين اجتماعية وكونية[2].

ومن مجموع آيات القرآن الكريم تتكون لدى المسلم رؤية متكاملـــة حول طرق التعامل مـــع الكون والحيـــاة، ومركز الإنسان في هذه المجـــرة، مما يؤدي إلى صنع رؤية للنهوض الحضاري.

وتصبح هذه الرؤية كاملة وناضجة وفاعلة، بهذا التفاعل الخلاق بـــين الشريعتين القرآنية والفطرية، ما دام هذا التفاعل ملتزماً بالشروط الآتية:

١- توحيد مصدر (الآيات) والقراءة الكلية لها:

آيات القرآن كلام الله، أما آيات الأنفس والآفاق فهي مخلوقاته، أي أن مصدرها واحد، فلا تعارض ولا تباين بينهما، فالقرآن يصنع نظرة الإســـلام العامة للإنسان والكون والحياة، بل وما وراء الكون والمادة، وقراءة آيـــات الإنسان والأكوان تساعد على استمطار المزيد من سحب القرآن.

---

(١) انظر كتابنا: تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بالمجتمعات الإسلامية، ط١ (صنعاء: نفت للخدمات العامة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

(٢) انظر: أسئلة العصر المحيرة، ص١٠، ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٤.

ولدور القرآن الكبير في استكشاف مجاهل الطبيعة، ومعرفة مجاهل الإنسان، قال جولن عن هذا القرآن: «الشمس بالنسبة لعالمه النوراني مجرد حشرة مضيئة، والقمر مجرد أرض قفراء وسوداء وقع بعض الضوء على وجهه. هو بلمعانه الظاهري، وعمقه الداخلي، وغنى محتوياته مائدة آتية من وراء السماوات.. مأدبة لا يستغني عنها أحد حتى الملائكة الكرام التي حملتها وتسلمتها من يد ليد كباقة من الورود العطرة حتى وصولها إلينا..»[1].

وعن الطبيعة المودعة في فطرة الإنسان، والطبيعة المتجسدة في هذا الكون بكل ما فيه من كائنات، فإن جولن يرى أن هذه الطبيعة ليست «إلا نقشاً من يد صاحب القدرة اللانهائية وقانوناً وضعته يد القدرة الخالقة وكتاباً ينطق بحكمته جل وعلا»[2].

ومثلما أن آيات القرآن ناطقة باسم الله، فإن آيات الإنسان والكون تشير إلى الله الخالق اللطيف الخبير.

إن «الذين يتأملون قوانين الطبيعة وقوانين الحياة بعمق ويعرفون قيمتها، يرون في ألوان الزهور وفي حركة الأغصان، وفي هدير الرعود، وفي تغريد الطيور جمالاً لا يمكن وصفه، ويرون في كل صوت تقديساً وتسبيحاً لصاحب القدرة اللانهائية. ويرون في الضوء والحرارة والجاذبية والعلاقات الكيميائية وفي القوانين التي تحكم الأحياء وتسوقهم آثار تجليات إلهية»[3].

(١) ترانيم روح وأشجان قلب، ص٥٣.
(٢) الموازين، ص٢٠٦.
(٣) نفسه، ص٤٤.

ولهذه العلاقة الوثيقة بين الشريعتين، فقد جعل جولن أول شرط من شروط المُبلِّغ لهذا الدين العظيم هو تطبيقه الآيات الكونية الظاهرة في الآفاق والأنفس على الآيات القرآنية المتلوَّة، ومن ثم صياغة مركب منهما. وبمقدار نجاحه في هذا الميدان يوفق في تبليغه وإرشاده. وبخلافه لا شيء إلا الإسراف له ولمخاطبيه»[1].

ولكي يصل إلى هذا المركب الممزوج بدقة لابد له من إعمال طاقاته كافة في فهم واستيعاب آيات الشريعتين، وهذا هو الشرط الثاني.

٢- إعمال كافة القدرات العقلية في قراءة (آيات الشريعتين):

من يقرأ القرآن سيجد أن حجر الزاوية في فهمه هو (التدبر)، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:٢٤)، أما حجر الزاوية في التعامل مع آيات الكون فهو (التفكر)، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران:١٩٠-١٩١).

ولم تخرج آيات الأنفس عن هذا الإطار، حيث طالب القرآن الإنسان بـ(التبصر) بها، مثل قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات:٢١).

---

(١) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص٩٧.

ومن المعلوم أن التدبر والتفكر والتبصر عمليات عقلية، يستدعي القيام الوافي بها تفعيل كافة القدرات العقلية من: تحليـــل وتركيـــب واســـتقراء واستنباط وخيال واستظهار.

هذه هي الرؤية القرآنية، كما بدت لي، وهذا هو الفكر الذي ينتمـــي إليه ويدعو له جولن.

ولأن القرآن هو الأصل، فقد لَفَتَ الأنظار إلى علاقته الوثيقة بآيـــات الأنفس والآفاق، ولاسيما في هذا الزمن الذي انتصبت فيه الكشوف العلمية كأدلة حسية على أن هذا القرآن كلام الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فـــصلت:٥٣)، وأظهرت هذه الآيات مدى جـــدة القرآن كأنه أنزل في هذا الزمن، حيث لا يزال شبابه يتجدد، وقد تحدث عن هذه الظاهرة مراراً، مبيناً أسبابها[1].

و لم يملّ من التأكيد على أن هذا العلم يخدم القـــرآن بكـــشوفاته[2]، وعلى أن آيات القرآن ستجمع صفحات هذا الكون المبعثـــرة، وأن شمـــسه ستشرق من جديد في هذا الزمن، لتتبدد الغيوم السوداء، وسيُحدث النهضة التي أحدثها أول مرة، لأنه ما زال بنفس الجدة والقدرة، فمن يقرأه بتـــدبر يعتقد أنه قد تنـــزل على الناس الآن[3].

---

(١) انظر مثلاً: أسئلة العصر المحيرة، ص٧١ – ٧٥.

(٢) انظر: نفس المصدر، ص٩.

(٣) انظر: ترانيم روح وأشجان قلب، ص١٥ – ١٧.

وما فتئ يقـــول باعتزاز: «إن الزمن كلما شاخ وتقـــدم في العمـــر ونضج وتكامل، وقرب من أشراط الســـاعة، ومن «آخر الزمان» كلمـــا لمعت حقائق القرآن كالنجوم اللامعة في كبد السماء بالنـــسبة للمحققـــين والباحثين، وتبينت سلامته ومتانته وعمق تعاليمه، وأصـــبح أكثـــر إقناعـــاً لقلوب الناس»[1].

ومع هذا السخاء القرآني إلا أن الأمر بحاجة إلى جهد المؤمن، فإن من يراجع القرآن والسنة «بصفوة الحسّ وأذن الاحتياج» لن يعود خالياً، ولـــن يموت أبداً من يلجأ إليهما، ولكن بتعمق وإخلاص[2].

وظل يحث المسلمين على ضرورة التفكر الواعي بمآسي بُعـــدهم عـــن القرآن الكريم، ويحذرهم من العقاب الأخروي كذلك[3]، ورغـــم إشـــادته دوماً بإيجابيات مسلمي هذا العصر، ونقده اللطيف لهم، إلا أنه نقدهم بقوة في موضوع القرآن، ونعتهم بأنهم: «أصبحوا لا يفقهون شيئاً من كتاب الله. فهم في واد والقرآن في واد آخر. وغدا ارتباطهم بالقرآن شكلياً محضاً»[4].

ولهذا حثّ على تدبر القرآن، والتفاعل معه بالقلب والعقل، حيث بيَّن أن «الشرط الأساس للاستفادة من القرآن من هذه الجهة هو انفتاح القلوب

---

(١) أسئلة العصر المحيرة، ص٧٥.

(٢) انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ص٤١.

(٣) انظر: طرق الإرشاد، ص٥٩.

(٤) انظر: طرق الإرشاد ، ص٥٩.

نحوه. ولأجل ذلك على القارئ أن يسدد نظره ويلقي سمعه نحو القرآن. وأن يتوجه إلى القرآن الكريم بكيانه كله، إذ من المحال الاستفادة من القرآن على الوجه المطلوب باتباع سبيل آخر»، واستدل في هذا السياق بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢)، حيث أوضح أنه مع كونه لا ريب فيه، إلا أنه «لا يستفيد منه على الوجه المطلوب إلا المتقون. والمتقون هم أفضل الناس معرفة بالشريعة الفطرية، فكما لا يكون المهمل تقياً، لا يستفيد من القرآن أيضاً، حيث إن قلبه قد مات، والآية الكريمة تُبيِّن ذلك: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (محمد: ٢٠)»[1].

ولأن الإلفة – وهي الاعتياد – تجعل الإنسان يمر أمام آيات الكون والأنفس لاهياً غافلاً، فقد حذر من خطورة هذه الإلفة على الشريعة الفطرية، واعتبر من يقع فيها صاحب روح وأحاسيس ميتة، وصاحب بصيرة عمياء، مؤكداً أنه سيصير أسيراً لما اعتاد عليه، وسيلغي عقله، ومن ثم لن يستفيد شيئاً من هذه الآيات، ولهذا دعا الإنسان للتحرر من الجمود والتحنط، بتجديد نفسه وروحه بعيداً عن مصيبة الإلفة، وأورد ست نقاط يحتاجها من سقط في هاوية الإلفة[2].

---

(١) نفسه، ص٩٦.

(٢) انظر: أسئلة العصر المحيرة، ص٥٤ –٥٧.

وحتى يحس المرء بالتوافق والانسجام بين الشريعة القرآنية والشريعة الفطرية، فلابد أن يكون أكثر حرية في الفكر والإرادة، ولهذا دعا المسلمين إلى أن يكونوا كذلك[1].

٣- المزاوجة الدائمة بين (فقه الواجب) و(فقه الواقع):

في عشرات المواضع من كتبه، وبأساليب متعددة، ولغة راقية، حثّ جولن على الجمع بين آيات الشريعتين القرآنية والفطرية، ومما يثمره ذلك الجمع وصول القارئ إلى ناصية التمكن من فقه الواجب: (القرآن والسنة)، وفقه الواقع: (الناس والكون)، إذ بهذا الجمع يتجنب المرء الوقوع في مزالق خطيرة وكثيرة، ويتحصل على مكاسب جمة وعظيمة.

وقد أكثر من ذكر مآسي العالم الإسلامي، رابطاً إياها بمخالفة الشريعة الفطرية، حيث أوضح أن لهذه المخالفة عقاباً معظمه دنيوي وبعضه أخروي[2].

ومن العقاب الدنيوي: الخذلان، حيث يحدث التآكل الروحي والمعنوي في العالم الداخلي للمجتمع، مما يؤدي إلى انقطاع الأنعم الإلهية عنه، وأورد

---

(١) انظر: فتح الله جولن، نحو حضارة عالمية من المحبة والتسامح، ص٤٠، نقلاً عن د. جيل كارول، محاورات حضارية – حوارات نصية بين فتح الله جولن وفلاسفة الفكر الإنساني، ترجمة: إلهام فتحي، أحمد سعيد، ط١ (القاهرة: دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ص٥٨.

(٢) ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٤.

قول الله عزوجـــل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، وعلق عليه بالقول: «هذه الآية الكريمة تذكرنا بقاعدة مهمة في الظهور والخذلان، أو العز والذل، وتحدد هذا الفراغ الهائل في مـــسلمي العصر الحاضر»[١].

وحذر من أن الجهل بالقوانين الاجتماعية، وعدم التعالج بشكل علمي، سيؤدي إلى انقلاب كل شيء رأساً على عقب، مؤكداً أن هذا الأمر مرتبط بمسألة البقاء أو الزوال[٢].

وعبَّر عن هذه الحقيقة في مقام آخر بقوله: «إن الفطرة تقوم بكـــسر أرجل الذين لا يعرفونها، ولاينظمون سيرهم حسب قواعـــدها، وتـــسحق أرواحهم، بينما تكون لينة كالشمع في أيدي الذين يعرفونها، ويتناغمون مع روحها في سلوكهم وحركاتهم وسكناتهم ويُكسبونها لحناً داوودياً»[٣].

ومن يتأمل في الفتوق الموجودة في حياة مسلمي هذا الزمان، سيتوصل إلى أن إحدى الثمار المرة لهذا الفصل بين الشريعتين القرآنية والفطرية، هـــي العلمانية، فقد تمكنت من الحركة في الفراغات التي صنعها هذا الانفـــصام، ولهذا ظل دائب التأكيد على اتفاق العلم والدين. وسجل في هذا الـــسياق المقولة الشهيرة للعلامة (ألبرت أينشتاين): «العلم دون دين أعمى، والـــدين دون علم أعرج»[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥.

(٢) انظر: الموازين، ص٧٩.

(٣) ترانيم روح، ص١٦٠.

(٤) الموازين، ص١٢٨.

وبعد التخلية في هذه القضية، ببيان آثار وتداعيات انفصال الشريعة الفطرية عن الشريعة القرآنية، شرع جولن بالتأصيل لضرورة الوصل بين الشريعتين.

وكان في وصفه لوارث الأرض قد جعل الوصف الرابع: «إعادة النظر في ملاحظاته عن الكائنات والإنسان والحياة، وتمييز الصحيح من الخطأ فيها بميزان دقيق»[(١)]، وأورد في هذا السياق ثلاث نقاط تنتصب كلها كجسور بين الشريعتين، عند التأمل العميق فيها[(٢)].

وفي ذات السياق جعل الوصف السابع لوارث الأرض: الفكر الرياضي، معيداً نهضة المسلمين في العصر الذهبي، وكذا في الحضارة الغربية في هذا العصر، إلى هذا الفكر المكتظ بالقوانين الرياضية، وهي التي تصبح ثقافة صاحبها المتحلي بها «من الفيزياء إلى الميتافيزيقيا، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف»[(٣)].

ولفت الأنظار إلى منهج القرآن في مخاطبة الناس والذي ينبغي أن يتحلى به المؤمن، وهو مراعاة الفروق الفردية، ومخاطبته لمختلف المستويات من الناس[(٤)].

---

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص٤٤.
(٢) انظر: المصدر نفسه، ص٤٤-٤٦ .
(٣) نفسه، ص٤٩-٥٠.
(٤) انظر: طرق الإرشاد، ص١١٨.

ولهذا دعا إلى معرفة المخاطب، واستخدام الأسلوب المناسب للتفاهم معه[1]. وحثّ على الدوران حول المقاصد، والبدء بالكليات، وإتقان فقه الأولويات، مع الإشارة إلى أن هذه الأولويات نسبية، فما يقدم لشخص قد يؤخر على آخر[2].

ودعا إلى معرفة ثقافة العصر، وأبدى أساه على أحوالنا الحاضرة التي تدمي القلوب شباباً وشيباً، معيداً ذلك إلى ضحالة ثقافة من يتقدم إلى الإرشاد والتبليغ. وأوضح مداخل التغريبيين إلى أجيال المسلمين: «فلقد صرعوا جيلنا بالفيزياء، وأركعوهم بالكيمياء، وأنزلوا على رؤوسهم الشهب بالفلك»، داعياً المبلّغ أمام هذا الموقف إلى أن لا يقف مكتوف اليدين، بل يأخذ بيد هذا الجيل، مستعملاً نفس الوسائل[3].

وذهب إلى أن معرفة ما يحدث في الكون هو السبيل إلى فهم الآيات التكوينية، وأن من لا يفهم هذه الآيات يُضرب عليه الذل والمسكنة، مؤكداً مرة أخرى أن القرآن الكريم يشرح هذه الآيات التكوينية ضمن آياته البينات: «ولا يعد تالياً للقرآن الكريم حق تلاوته من كان يسد أذنه عن هذه الآيات التكوينية ولو ختم القرآن يومياً. فلقد أرسل الله القرآن ليتدبر الإنسان ويفكر في آياته، وكل من ينصر القرآن عليه أن يفهم هذا الأمر»[4].

---

(١) انظر: طرق الإرشاد، ص١٠٥-١٠٦.
(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١١٠.
(٣) نفسه، ص١١١.
(٤) نفسه، ص١١٢.

وفي ذات الدرب جعل من طرق فهم الواقع ومن صفات المبلّغ: «النظر من زاوية العصر» إلى كل المسائل قبل أن يتطرق إليها[1].

٤- استثمار كافة الآيات في (عبادة الحق) و(خدمة الخلق):

بمفهوم العبادة الشامل يكون استيعاب آيـــات الـــشريعتين القرآنيـــة والفطرية عن طريق إعمال العقل فريضة، أما نقل هـــذا الفقـــه إلى الحيـــاة لاستعمـــار الأرض وخدمة الناس فإنه فريضـــة أكبر، ومن ثم لا انفـــصام ولا انفصال بين طاعة الله وخدمة الإنسان، فكلاهما عبادة.

ومن المعروف في الفقه الإسلامي أن الشُعب الإيمانية التي بين المرء وربه تكون من جنس العبادة اللازمة، أما الشُعب التي بينه وبين الناس فهي مـــن العبادات المتعدية.

وإذا استُثنيت الأمور المتصلة بوحدانية الله، فإن العبادة المتعديـــة أكـــبر أجراً من العبادة اللازمة.

هذه هي رؤية الفكر الإسلامي الناضج، وهذا ما يتأكـــد أن جـــولن ينتمي إليه كما تنطق كتاباته، وتتحدث أعماله.

ولهذا فإنه كثيراً ما يربط بين الشريعتين، مبيناً لثمار قراءة آيات كـــل شريعة في فهم واستيعاب آيات الشريعة الأخرى، والانطلاق بها من دائـــرة الانفعال إلى عالم الفاعلية[2].

---

(١) راجع: نفس المصدر، ص١١٥-١١٧.

(٢) انظر مثلاً: أسئلة العصر المحيرة، ص١٠.

وعلى سبيل المثال، نرى مثل هذا الربط في قوله: «إن فهم المحتويات اللدنية للقرآن لا يتيسر إلا لمن يسمع في القرآن صوت الوجود كله، ويستمع في أعماقه إلى كل موسيقى روح الإنسان من خوف وأمل، ومن حزن وفرح، ومن غم وبهجة. والأرواح السامية المتجاوزة للزمن التي تستمع إلى القرآن وكأنه أنزل عليها تجد فيها لذة فواكه الجنة وألوان وجمال حدائق الفردوس، وأنهار وشلالات سفوح الريان ومناظرها»... فتنساب معها [1].

والقرآن هو سبيل وحدة المسلمين ما اجتمعوا على الإيمان به والتصديق بما جاء به مثلما حدث في جيل الصحابة[2].

«والقرآن منبع نور لأكثر الجماعات نورانية والتي سيطرت على مصير العالم، وعاش فيها مئات الآلاف من العلماء والفلاسفة والمفكرين»[3].

وبهذه العلوم أوجد تلك الحضارة العظيمة، بجانب القيم الحضارية الأخرى التي خرجت من كلمات القرآن، كالعدالة الاجتماعية والحرية والمساواة المتوازنة، والخير والشرف والفضيلة والشفقة حتى على الحيوان، بجانب تحريم الظلم والشرك والجهل والرشوة والربا والكذب وشهادة الزور[4].

---

(١) ترانيم روح، ص١٣٦.
(٢) الموازين، ص١٨٥.
(٣) نفس المصدر، ص١٨٤.
(٤) الموازين، ص١٨٦.

لقد أوجد القرآن بهذه القيم السامية أناساً يسعون في الأرض، وهم أشبه بالملائكة، حيث أراهم الطريق المؤدي بهم إلى سعادة الدارين، وفتح أبواب هذه السعادة على مصاريعها أمامهم[1].

وبثقة كاملة واعتزاز كبير وصل إلى القول: «بأن القرآن كما لم يقم بالأمس بخداع الذين آمنوا به واتبعوه و لم يحيرهم، كذلك لن يخدع الذين سيتوجهون إلى جوه الرباني ويؤمنون به بعد هذا اليوم، ولن يُخيب آمالهم..»[2].

إن هذا الدين إكسير الحياة لهذه الأمة، بامتلاكه لقيمة العدالة الفكرية التي توازن بين سائر الثنائيات، ومنها ثنائية الثوابت والمتغيرات التي أجاد جولن رسم خارطتها بطريقة متوازنة تثير الدهشة والانبهار!

ثانياً: الموازنة في رسم (خارطة العروج) بين الثوابت والمتغيرات:

من خلال خبرة الباحث بفكر جولن مقارنة بقادة الفكر والتجديد في العالم الإسلامي المعاصر، يبدو أن نقطة التفوق الرئيسة في فكره هي إحاطته الشديدة بخارطة الثوابت والمتغيرات، رغم أنه لم يحظ على مستوى التعليم النظامي إلا بقسط متواضع، وجُلّ علمه كان تعلماً ذاتياً. وكأكاديمي يمتلك

---

(١) ترانيم روح، ص٥٩.

(٢) نفس المصدر، ص٦٢.

قدراً من المعرفة بخبايا التعليم النظامي، يبدو لي أن نقطة الضعف هذه هـــي سبب رئيسي في تفوقه الفكري الذي بزّ أصحاب الشهادات العاليـــة مـــن أصحاب التعليم التقليدي الكابح للمواهب والقابليات.

ويتضح وعيه بخارطة الثوابت والمتغيرات، وعدله بين طرفيها، من خلال وعيه بالعناوين الآتية:

١- جمع الإسلام بين (الثبات) و(التطور):

الإسلام دين للأبد والخلود لكل بني الإنسان في مختلف مناطق الأرض؛ والخصيصة الرئيسة التي منحته القدرة على البقاء واستيعاب سائر النـــاس في شتى الظروف، هي جمعه بين الثبات في الأصـــول والكليـــات والمقاصـــد، والمرونة والتطور في الفروع والجزئيات والوسائط.

يقول جولن: «الإسلام ثابت من جهة، ومتغير ومتطور مـــن جهـــة أخرى، فهو كشجرة باسقة أصلها في الأرض وفرعها في الـــسماء، فقـــد ضربت جذورها في الأعماق، تعجز أي عاصفة مهما اشتدت عن اقتلاعها، وأغصانها ممتدة للجهات الأربع، تعطي في كل فصل أثماراً جديدة»[1].

و لم يكفّ عن التأكيد على أن وطنه وأمته لا يمكن لهمـــا أن يغـــادرا مراتع التخلف إلا بالعودة إلى القرآن، وقد أكد على هذا الأمـــر حـــتى في أســـوأ الظروف السيـــاسية التي مرت بها تركيـــا، أثنـــاء ليـــالي الـــشتاء العلمانية القارسة.

---

(١) ترانيم روح، ص١١.

لكنه ظل يقرن هذه العودة بالوعي الذي لا يمكن أن يكـون إلا ثمـرة لتدبر القرآن، كما أسلفنا، وهذا يعني أنه يرى أن الإقلاع الحضاري لا يمكن أن يتم إلا بجناحي النقـل والعقـل، والنقل هو منبع الثوابـت، والعقـل منبت المتغيرات.

ومن وسائل تدبر القرآن - التي انحاز إليها حتى يظل القرآن جديـداً، ويستمر كتاباً للخلود، وتظل معانيه غير متناهية - شعور القارئ بأنه أنـزل عليه في هذا الزمن، أو كما يقول جولن: «على الفرد أن يقـول لنفـسه: صحيح أني لست بنبي، ولكني أشعر أن آيات القرآن البالغـة سـتة آلاف ونيف وكأنها قد أنزلت عليّ»[1].

وهذا ما كان يحث عليه مالك بن نبي أيضاً، حتى أنه ذكر في أحد كتبه أن والد المفكر الباكستاني الشهير د.محمد إقبال، كان ينصحه وهـو طفـل صغير بأن يقرأ القرآن كأنه أنزل عليه هو!

وبالجمـع بين النص القرآني الثابت والعقل الإنساني المتجدد تكـون طائرة الإقلاع الحضاري قد جمعت بين جناحي الأصالة والمعاصرة، حيـث يقول جولن: «وعلينا في هذا السياق أن نواصل السير في إطار ديننا وتراثنـا وأعرافنا وعاداتنا وتقاليدنا، مع أخذ ما يستجد من تفسيرات الزمان بعـين الاعتبار، وبمرور الزمان ستكون قيمنـا الذاتية جزءاً لا يتجزء من طباعنـا.

---

(١) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص٣٢٢.

وما نقتبسه من الخارج سيصطبغ بصبغتنا وسنتبناه فيكون لوناً مهماً من ألوان الخطوط في نسيج أطلسنا الذاتي، الفكري والثقافي»[1].

وبمثل هذه الوصفة، جعل من (الأصالة) موجهاً لارتياد (العصر)، وجعل من المعاصرة دافعاً للمحافظة على الأصالة وأداة لإبراز تألقها.

وبالعودة إلى ما سطره عن الثوابت، يمكن القول: إن أثبت الثوابت النظرية عنده هي (الإيمان)، وأثبت الثوابت العملية هي (الإنسان).

فعلى مستوى الإيمان فإنه لا يقدمه كأمر غيبي أو بصورة فلسفية مجردة، بل يراه ضرورة فردية ووطنية وأممية وعالمية، لعمارة الدنيا قبل الآخرة.

ومع الحرج الذي لقيه الإيمان في تركيا، فإن هذا لم يمنع جولن من تقديمه كحاجة وطنية ماسة يمكن أن يكتب به الوجود لتركيا أو يكتب عليها الفناء بغيابه، حيث يقول: «إن أساس حياتنا المعنوية قائمة على الفكر الديني والتصورات الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقاً منه، فإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة للوراء»[2].

أما الإنسان فهو المخلوق المركزي في هذا الكون وهو أثمن ما في الوجود الإلهي، وقد عبر عن هذه الحقيقة بأساليب كثيرة، حيث يقول

(١) ونحن نبني حضارتنا، ص٢٢.
(٢) ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٧.

- مثلاً -: إن البشر - وهم أعظم مرآة تعكس قدرة الله ومعجزة خلقه - «يمثلون مرآة لامعة، وهم إحدى ثمار الحياة الرائعة، ومصدر للكون بأكمله، وبحر يبدو كقطرة صغيرة، وشمس تشكلت كبذرة ضئيلة، ولحن عظيم رغم مكانتهم المادية المتدنية، وهم سر الوجود كله مجموعاً في جسم صغير. إن البشر يحملون روحاً يجعلهم يساوون الكون بأكمله بما يمتلكون من ثراء في شخصياتهم. وهو ثراء يمكن أن يتطور إلى تفوق»[1]، بل وذهب إلى أن الإنسان يمتلك قيمة أكبر من قيمة الملائكة[2].

ولهذا سخر كافة جهوده وجهود تلاميذه لخدمة هذا الإنسان، على المستوى الوطني والأممي والدولي، حيث يحاولون تقديم كل ما يستطيعون من أجل إسعاد الناس في الدنيا والآخرة.

ومن المفارقات العجيبة أن عنوان المتغيرات - وهو التجديد - هو إحدى الثوابت الأساسية في فكره، وهي في الحقيقة من أهم ثوابت الدين نفسه، إذ بها يستطيع الإسلام استيعاب حاجات الناس المتعددة والمتجددة، ويستطيع هضم النافع المفيد في كل الحضارات، وبذلك يكون الإسلام ديناً عالمياً ويكتب له الخلود إلى قيام الساعة.

---

(١) نحو حضارة عالمية من المحبة والتسامح، ص١١٢؛ نقلاً عن: د. جيل كارول، محاورات حضارية، ص٣٦.

(٢) انظر: د. جيل كارول، محاورات حضارية، ص٣٧.

وتشتد الحاجة للتجديد في هذا الزمن: فـ«إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى بعث ما بعد الموت، وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وبإفادة دافئة، إلى «إحياء» ..إحياء يستجيب لمتطلبات أصناف البشر كلهم ويحتضن الحياة كلها، في كل زمان ومكان، بقدر السعة والعالمية التي تعد بها مرونة النصوص، ضمن الجد والجهد للحفاظ على صفاء أصل الدين»(١).

لقد أجاد جولن العض على الثوابت بالنواجذ، وأبدى مرونة شديدة في التعامل مع المتغيرات، وهذا يؤدي إلى مفردة أخرى من مفردات الإقلاع الحضاري، وهي موضوع العنوان الآتي.

٢- الثوابت قاعدة (الوحدة) والمتغيرات قاعدة (الحرية):

ظلت الحرية والوحدة رافعتين أساسيتين من روافع الإقلاع الحضاري، ومع ذلك استمرت العلاقة بينهما شائكة وتشكل معضلة لكثير من المفكرين، بما فيهم بعض المنتسبين للفكر الإسلامي الذين لم يتقنوا فقه نصوص ومقاصد الإسلام أو لم يُجيدوا استيعاب فقه الواقع، فتوسعت عند بعضهم الحرية حتى زعزعت الوحدة، وتضخمت الوحدة عند بعض آخر حتى اجتاحت الحرية(٢).

---

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٩.

(٢) يمكنك في هذا السياق مراجعة كتابنا: منطلقات الخطاب الإسلامي المعاصر في مواجهة المتغيرات العالمية، ط١ (تعز: مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م) ص٦-١١٦.

غير أن فتح الله جولن ليس من الصنف الذي تشابهت عليه البقر، فبإتقانه لخارطة الثوابت والمتغيرات استطاع أن يجعل من الثوابت قاعدة للوحدة، ويجعل من الحرية عنواناً للمتغيرات، مما أدى إلى الجمع بينهما بطريقة منسجمة، فجعل الوحدة والحرية قيمتين متعاونتين لا متباينتين.

لقد عدّ من الطبيعي الاختلاف في التفكير، مستثنياً الثوابت التي أوجب الاتفاق حولها، وهي: «القواعد والأركان والأصول الأساسية»[١].

«ولما كانت الدعوة واحدة والحق بجانبها، والأهداف والمبادئ الأساسية واحدة، فإن الاختلاف في الوسائل والطرق يجب ألا يكونا سبباً للخلاف والفرقة»... «والحقيقة أن الطرق المؤدية إلى الله تعالى متعددة بتعدد الأنفس والأمزجة بشرط بقائها ضمن دائرة أهل السنة والجماعة. ويجب أن يُحترم كل طريق من هذه الطرق وتُؤيَّد كل خدمة مقدمة»[٢]. والجدير بالذكر أن فهمه لأهل السنة والجماعة فهم واسع، ودون أن يقوده هذا الفهم إلى زعم امتلاك الحقيقة المطلقة وتسفيه الفرق الأخرى.

ولتأصيل هذه القضية ظل يعاود الكرَّة إلى عصر النور، عصر الصحابة الذهبي، الذي طار فيه المؤمنون بجناحي الحرية والوحدة إلى آفاق الدنيا، فأزالوا الكثير من العروش الظالمة واجتثوا الدول القاهرة للناس.

---

(١) الموازين، ص٨٢.

(٢) نفس المصدر، ص٨٨.

وضرب المثل للانسجام والتناغم القائم بين الأفراد بأنه: «كالانسجام الموجود بين الأصوات في السمفونية، أي كان صوت كل فـرد متناغمـاً ومتلائماً مع الجو العام»[1].

وظل يوصي تلاميذه بالتمحور حول الثوابت، والتسلح بالأخوة وفقـه الإعذار، وأن لا يسمحوا بجعل الخلاف في الفكر وفي الفهم وسائل للفرقـة وللعداء، بل ودعاهم لعد هذا الخلاف مصدر غنى فكري[2].

ومن الثوابت التي دعـا للتمحور حولها: القواسم المشتركة، وهـي كما قال: «وحدة أسس الإيمان وأسس العبادة والعمل، ووحـدة الـوطن والثقافة، ووحدة الماضي والتاريخ والأيام التي تقاسمنا معاً حلوهـا ومرهـا، ووحدة المصير المشترك، ووحدة الأعداء في الخارج»، ثم قال: «أجل فهـذه النقاط المقدسة المشتركة فيما بيننا أقوى بكثير من العوامل الثانوية والجانبيـة للخلاف، وأكثر ثقلاً ووزناً في الواقع، حيث لا تملك عوامـل التفرقـة أي عناصر ذات بال»[3].

وبهذا الانسجام، حقق جولن وحدة (الراية) في العقول والقلوب مـع تعدد (الآراء)، لكنه لم يتوقف عند المبادئ والشعارات والأخلاق، بل انتقل إلى التربية والسياسات والمباني.

---

(١) الموازين، ص٩٠.
(٢) نفسه، ص٩٣.
(٣) نفسه، ص٩٢.

٣- الجمع بين (المعاني) و(المباني):

مع اهتمام جولن باللب لم يهمل الأشكال، ومـع عنايتـه بالمعـاني والجواهر لم ينس المباني والمظاهر، سواء في تحليله لعوامـل الـسقوط، أو في تنظيره لعوائق النهوض.

لقد لاحظ أن عوامل التخلف التي ظهـرت في الدولـة العثمانيـة، اجتمعت فيها المظاهر والمضامين، كالزي والفكر وفلسفة الحيـاة، والحـس التاريخـي، والنظـام الأخلاقي، والفضائل والفن وغيرهـا، ممـا أدى إلى اهتـزاز الأواصر الروحية واجتفاف منابع الفضيلة، وتعميـق الهـوة بـين الحاضر والماضي[1].

وحتى لا تتحول الحرية - التي هي طاقة الحركة في ميدان المـتغيرات - إلى فوضى، فإن إيجاد الضوابط الفكرية والعملية لها هـو الكفيـل بعـدم ارتكاسها في مضمار الحيوانية[2].

ومن المؤكد أن الضوابط لا تقف عند الإيمـان والضمير والأخـلاق، بل تتعداها إلى القوانين والقواعد والإجراءات والمؤسسات.

ويبدو اهتمامه بالتناغم بين الشكل والمعنى مبثوثاً في رؤيته لكثير مـن القضايا والموضوعات، بما فيها ما قـد يـراه الـبعض غـير جـوهري في

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص١٠٩.

(٢) انظر، الموازين، ص١٢٤-١٢٥.

(استراتيجية) النهوض الحضاري، كالشعر مثلاً، فإنه يدعو إلى عدم التضحية فيه بالشكل من أجل المعنى، ولا المعنى من أجل الشكل، ويحث على ارتباطهما كارتباط الروح بالجسد[1]. وفي مضمار الفن سلك سبيلاً قريباً مما فعله في الشعر والأدب[2].

ومن الأمور الأساسية التي استخدمها في تحويل خارطة الثوابت والمتغيرات إلى واقع منسجم ومساحات متناغمة: التربية، فهي النار التي تستخدم لتطهير الإنسان من شوائبه حتى يصبح ذهباً خالصاً، ولذلك نجحت التربية في تحقيق الوحدة والتآلف بين أفراد «الخدمة»، ثم بينهم وبين الآخرين[3].

ومن اهتمامه بالمبنى، اهتمامه باللغة والشعر والأدب، والفن، والثياب، وفنون العمارة، والعادات والتقاليد الأصيلة، فقد أولاها اهتماماً كبيراً في عدد من كتبه، ولاسيما في كتاب (الموازين).

وبالتأكيد فإن التوازن بين المبنى والمعنى لا يعني أبداً التسوية بينهما، فالمعنى أهم، ولذلك حث على القراءة المتدبرة للقرآن وليس مجرد التلاوة، وعلى إقامة الشعائر التعبدية وليس مجرد الأداء حتى تؤتي ثمارها المرجوة منها.

---

(١) نفس المصدر، ص١٥٦.

(٢) انظر: ونحن نبني حضارتنا، ٥٩-٦٠.

(٣) انظر: الموازين، ٩٥، ١١٥.

ولهذا دعا في قضية التجديد إلى انصباب الاهتمام على الجـــوهر، وإن كانت العبارات توهم الانسلاخ تماماً من القالب إلى اللب، ومن الشكل إلى الجوهر[1]، غير أن القراءة الكلية لفكره، ومشاهدته في الواقـــع، تؤكـــدان الانسجام الشديد بين مكونات المشروع الحضاري لهذا المفكر الداعية، الذي جاء في غفلة من هذا الزمن الماكر.

٤- الجمع بين (المناهج) و(البرامج):

مثلما جمع بتوازن بين المباني والمعاني، جمع بذات التوازن بين المنـــاهج التي هي من الثوابت، وبين البرامج التي هي من المتغيرات. والـــبرامج هـــي الوســـائل والأســـاليب والآليات التي تحقق الغايات، وتجســـد القـــيم في واقع الحياة.

ولأهمية البرامج في تطبيق المناهج وتحقيق المقاصد، فقد أوجب استخدام كافة الوسائل المشروعة للوصول إلى الهدف الجليل الذي يمليه الفكر الـــذاتي للأمة[2]، وبدا للعيان أن فكره يـــوازن بـــين الأهـــداف وبـــين المـــشاريع والسياسات التي تحقق هذه الأهداف[3].

وفي ذات السياق دعا من يريدون الدولة والسلطة إلى التسلح بفكـــر سام يمنحهما الحياة في المجتمع ويغذيهما، وإلى برمجة كل شيء بموجب هـــذا

---

(١) انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٩.
(٢) ونحن نبني حضارتنا، ص١٣.
(٣) انظر: نفس المصدر، ص٣٨.

الفكر، والالتفاف كخيوط المغزل حوله[1]، ووصف مهندس الروح الربـــاني الذي يشعر بالمسؤولية نحو العالم كله بأنه «يخاصم الشرور التي تخفق العـــالم كله، وإنساننا خاصة، يقوم ويقعد مع آلام البرامج التي ينبغي إنجازها لـــدفع تلك الشرور... ولا يملّ من ابتلاع حلول العثرات غصة بعد غصة، ولا يكل من مداهمة المعضلات، طافحاً في حب جـــاد للواجـــب، وحـــرص علـــى المسؤولية، وشعور بالإحسان... ويئن أنيناً تحت مسؤولية إحياء الانـــسجام العام والحقيقة»[2].

وفي قراءته لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٤)، لفت الأنظار إلى إمكانية إيجاد مؤسسات مدنية مختلفة، غايتها تحصيل الرضا الإلهي لتحقيـــق هذه الأمور الثلاثة – الواردة في الآية السابقة – مع اشتراطه لوجود الشورى في هذه المؤسسات[3].. وفي حديثه عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكر ذكر أنه لم «تؤسس مؤسسات لتوفي هذه المهمة حقها بصورة منظمة، فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك المجتمع عاليه سافله، وهيهات أن يحظى ذلك المجتمع أو تلك الأمة بدوام البقاء»[4].

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص١١٨.
(٢) ونحن نقيم صرح الروح، ص١٠٠.
(٣) أضواء قرآنية، ص١٤١.
(٤) طرق الإرشاد، ص٦٩.

والأمور ذات الصلة بالبرامج والآليات كثيرة، ولهذا فإن المؤتمر الدولي - الذي انعقد في أكتوبر ٢٠٠٩م في القاهرة عن الإصلاح في العالم الإسلامي - خصص جلسة كاملة للبرامج والآليات التي استخدمها «تيار الخدمة» من أجل إحداث التغيير المطلوب[١].

وبسبب هذا العدل المتوازن بين المناهج والبرامج، فقد أوجد تلاميذه في «تيار الخدمة» مؤسسات ومشاريع في كل المجالات، باستثناء المجال السياسي الذي ما زال حتى الآن - على الأقل - يرفض الدخول في معمعته لعوامل عديدة ليس هذا المقام مقامها.

وبالعدل بين الشريعتين القرآنية والفطرية امتلك أهل الخدمة رؤية التغيير، وتمكنوا من ناصية الإصلاح باتضاح خارطة الثوابت والمتغيرات في أذهانهم، لكن ذلك لا يعني تحقيق التغيير، إذ لابد من أمور أخرى، ومنها تحديد عوامل وعوائق التغيير ومدى توزعها بين الداخل والخارج، وهذا ما فعلوه، باستنادهم إلى رؤى أستاذهم كما في الثنائية الآتية.

ثالثاً: الموازنة في تحديد (عوامل العروج) بين الداخلية والخارجية:

لم يكن فتح الله جولن أبداً من أصحاب الرؤى العوراء أو النظرات القاصرة في تحديده لعوامل وعوائق النهوض، بحيث يحصرها في الداخل أو في الخارج، فإن قراءته الشمولية لمصادر هذا الدين ولتأريخه الذهبي، وللتاريخ البشري عامة، وللواقع الإنساني المعاصر كافة، قد أوصلته إلى شاطئ الرؤية

---

(١) انظر: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، خبرات مقارنة مع حركة فتح الله جولن التركية، ط١ (القاهرة: دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ص٢٨٤-٣٢٩.

الكلية المتوازنة، بعيداً عن أمواج التطرف، وعواصف الغلو، ودون الوقوع في فخ التهويل أو التهوين.

وستتضح هذه الرؤية الناضجة من خلال النقاط الآتية:

١ – التخلف الحضاري ثمرة (الوهن الداخلي) و(الغزو الخارجي):

يبدو عند قراءة أدبيات جولن مدى وعيه الكامل بتضافر العوامل الداخلية والخارجية في صناعة الواقع السيء الذي تعيشه البلدان الإسلامية[1].

غير أن الموازنة لا تعني المساواة، فهو يرجح كفة العوامل الداخلية ويسميها – كمالك بن نبي – «القابلية للاستعمار»، ويرى الأولوية للخلاص منها حتى لا تجد العوامل الخارجية محضناً دافئاً وأرضاً خصبة، مما يؤدي بالمجتمعات الإسلامية إلى رفضها ولفظها.

و لم يكف عن ربط بُعد المسلمين عن متن الحياة وما يسميه بالتوازن الدولي بالبعد عن القرآن: «وقد غدا قدراً مقدوراً لا يتبدل للمسلمين المحرومين من بركة الوحي، احتياجهم إلى غيرهم في كل الميادين والساحات حتى غدوا شحاذين سألة في أبواب الآخرين، يرقبون ما في أيديهم. والحقيقة أن بداية التقهقر والانحطاط تتزامن مع انهيارنا الداخلي»[2].

---

(١) انظر مثلاً: ونحن نبني حضارتنا، ص١٠.

(٢) طرق الإرشاد، ص٤٠.

ولهذا فإنه يستغرب بحث البعض عن عوامل التخلف خارج عالمنا الداخلي، حتى أنه قال ذات مرة بسخرية مريرة مضحكة - من باب شر البلية ما يضحك -: «ما من سبب يدعونا إلى البحث عن عدونا في الخارج لأن عدونا في داخلنا.. جالس في قصره، واضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، يتطلع من الشُباك على ضياعنا، ويضحك ضحكاً مكتوماً»(١).

وبهذا الرسم (الكاريكاتوري) والتصوير البديع يمضي لتشريح عوامل الخلل الداخلي، من أجل إقناع القراء بخطورة الوضع، وضرورة الالتفات إلى العوامل الداخلية في الإصلاح، ومن أجل تجديد الذات بعد كل هذه الغفلة والترهل والوهن.

وفي هذا السياق استمر في القول: «إن العالم الإسلامي اليوم يعاني مما هو فيه من أمراض وعلل وفقر إلى حد البؤس، فلا بد له من انتفاضة ورجوع إلى ذاته، فروحه يكابد الذل، وعقله يعاني من القصور والضعف، وأعضاؤه تضطرب من العلل والأسقام، فلئن لم يسعف عاجلاً ويضمد فوراً فلربما يتدهور أكثر فأكثر»(٢).

وهو دائماً شديد التأثر وكثير البكاء لحال أمته التي تعاني من عشرات المعضلات، ولابد أن ألمه يشتد عندما يرى أن المسلمين هم المسؤول الأول عن آلام أمتهم، بل وصل حنقه إلى الدعاة عندما يراهم يضحكون وكأنهم غير

---

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص٩٣.

(٢) طرق الإرشاد، ص٦٦.

مبالين بمآسي أمتهم، حتى أنه ذات مرة دعا طلبته - المقيمين معه في الطابق الخامس بإحدى المدارس التابعة للخدمة - وأمرهم بالمغادرة إلى ديارهم، لأنه رآهم يضحكون ويمرحون ويستسيغون النوم، كأن شيئاً لم يقع(١).

ولاهتمامه البالغ بعوامل التخلف الداخلية، فقد تابع أستاذه بديع الزمان النورسي في الاعتقاد بأن أعداء الأمة ثلاثة: «الفقر والفرقة والجهل»، حتى أمكننا القول: إن هذا الثالوث عنده هو مثلث (برمودا) - الذي يقع في المحيط الأطلسي وقيل إنه يبتلع الطائرات والسفن - حيث يستهلك طاقات الأمة، ويعبث بمقدراتها، ويدفن مواهبها، ويحبط كل محاولاتها للنهوض الحضاري.

٢- ضرورة إصلاح «الذات» وحمايتها من عواصف التغريب:

لإدراكه أن جوهر الخلل في هذه الأمة يكمن في داخلها، فقد وجه جل اهتمامه لنقد أوجه الخلل ومحاولة الإصلاح الداخلي.

والبداية دوماً هي المحاسبة أو ماتسمى في هذا الزمن بالنقد الذاتي، حيث دعا لتفعيل هذه القيمة في حياة الأفراد والمؤسسات والمجتمعات. وابتدأ - كعادته - من تحت إلى فوق، حيث دعا الفرد المسلم إلى محاسبة نفسه دوماً وتفقد عالمه الداخلي، من أجل الانطلاق الفعال من اليوم والتهيؤ للمستقبل(٢).

---

(١) عن هذه الحادثة، انظر: د. محمد بابا عمي، فتح الله جولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد، ط١ (القاهرة: دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م) ص١٢٠-١٢١.

(٢) التلال الزمردية، نحو حياة القلب والروح، ص٣٩.

وأوضح في هذا السياق أن العاقل ليس الذي لا يخطئ، ولكنه الـذي يدرك أن الخطأ خصلة بشرية، ويتجه لتعديل أخطائـه وتقيـيم الأفكـار المختلفـة والاستفـادة منها[١].

ولفت الأنظار إلى الفرق الجوهري بين معصية آدم، عليه الـسلام، في الجنة ومعصية إبليس، وهو أن إبليس لجأ إلى التبرير والبحث عـن عامـل خارجي يحمله المسؤولية، بينما عمد آدم، عليـه الـسلام، إلى الاعتـراف بالذنب وتحمل المسؤولية، ومن ثم عاد إلى الله من باب التوبة[٢].

وفي سياق التأصيل للنقد الذاتي ظل يردد مقولته الذهبية: «يجـب أن يتصرف الإنسان مثل مدعي عام - أي ممثل اتهام - أمام نفسه ومحامياً عـن الآخرين»، أي يرى زلاته الصغيرة ذنوباً كبيرة، ويتصرف بشفقة وبحنان الأم أمام الأخطاء الكبيرة للآخرين...»[٣] أو كما قال في مقام آخـر: «علـى الإنسان أن يتصرف تجاه أخطائه كمدعي عام، وتجـاه أخطـاء الآخـرين كمحامي دفاع»[٤].

ورأى في هذا الدرب أن أفضل طريقة لجلب رحمة الله ومغفرته هـي اعتراف الإنسان بتقصيره[٥]، وذكر أن النقد والمحاسبة طريق الفـوز بالجنـة والنجاة من النار[٦].

---

(١) الموازين، ص١٤٣.
(٢) انظر: نفسه، ص٣٢.
(٣) أضواء قرآنية، ص٣٠٧.
(٤) الموازين، ص٢٤٣.
(٥) أضواء قرآنية، ص٢٦٠.
(٦) نفس المصدر، ص٢١٧.

هذا عن النقد كقيمة فردية، أما كقيمة اجتماعية فلم يتغير الوضع، ولذلك وجدناه يقول: «لا يظهر اليوم عندنا مكتشفون ولا مخترعون.. بل يظهر المقلدون. نحتاج إلى نفسية متمردة تقوم بتغيير كل شيء تقريباً. يجب أن يتغير كل شيء: الكتاب، المدرسة.. ومن أجل هذا التغيير فإن البداية بالنقد هي الأساس»(١).

أما على مستوى الأمة، فإن النقد تشتد الحاجة إليه، لأنه يبين عوامل الخلل ونقاط الضعف، وهذا ما فعله في سائر كتبه، حيث نقد الواقع الإسلامي المعاصر، بل ونقد التاريخ الإسلامي.

وقد لوحظ كثرة إشادته بتاريخ الدولة العثمانية وسلاطينها العظام، مما قد يعتبره البعض حيدة عن منهجه النقدي الصارم، لكن هذا الإكثار من ذكر المحاسن يبدو أنه جاء تحت ضغط التطرف العلماني الذي أدان الدولة العثمانية إدانة كاملة، فكان لابد من إبراز الأوجه المضيئة، ومع ذلك فقد مارس صوراً من النقد للثغرات التي اعتلت جُدرها، وللعثرات التي اكتنفت مسيرتها، في بعض المواضع من كتبه، حتى أنه لاحظ أن عوامل الاعتلال داخل الدولة العثمانية تعود إلى قرنين من سقوطها.

هذا بالنسبة لتقويم الذات ونقدها وإصلاحها، أما بالنسبة لحماية الأمة من عواصف التغريب فلم يغفل عنها لحظة، رغم خصوصية الواقع التركي وتسيُّد العلمانية المتطرفة، وامتلاكها لكثير من الأنياب والمخالب!

---

(١) الموازين، ص٢٥٠.

وقد دعا العلماء عامة والمسؤولين خاصة، بل وأوجب عليهم القيام بالفلْترة، وغرْبلة ما يأتي من الخارج حتى لا يتسلل التغريب باسم العلم والمدنية، وتحت يافطة (الحضارة).

ومما قاله في هذا الشأن: «فالواجب على أهل العلم والمعرفة عموماً، وعلى المسؤولين خاصة، أن يُنقّوا ويغربلوا الأفكار الغربية والضارة والمنكرة التي تؤثر على المجتمع سلباً وتضاد العقل والمشاهدة والتجربة والفكر الديني. إن أعظم الأبطال الذين قاموا بهذه التجربة هم الأنبياء، ثم من بعدهم الأصفياء المتحفزون...، ورجال الفكر الذين تكاملت قلوبهم وعقولهم، ورجال العلم الموقرون لعالم الغيب مع عالم الشهادة، وللحس الوجداني مع التفكير العقلاني، وللوحي السماوي مع التجربة»[1].

ونلاحظ في هذه العبارات مدى الدقة اللفظية والتوازن الشديد، حيث إن (الأفكار الغربية والضارة) يمكن أن تأتي من المنظومة الغربية أو من المنظومة التاريخية للمسلمين، مما يعني أنه ينهى عن التقليد بشقيه التاريخي والتغريبي.

وعن التقليد والمحاكاة للتجربة الغربية بدون غربلة ونقد وتمحيص يقول: «الأمم التي تسعى لإدامة ذاتها وبقائها، ولكنها تسلم نفسها إلى حضارة

---

(١) ونحن نبني حضارتنا، ص٢٨-٢٩.

ومدنية الأمم الأخرى، تشبه شجرة علقت عليها أثمار شجرة أخـــرى - أي تكون محل سخرية وذات مظهر خادع»[1].

وفي مقام آخر يقول: «ينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجة على تخريب جذور الروح والمعنى فينا..» [2].

ومرة أخرى يستخدم مصطلح (الأفكار الغريبـــة) كمعيـــار للـــضرر بمنظومتنا الثقافية العصرية، فقد تكون هذه الغربة فكرية (الغرب) أو عصرية (التراث)، مما يؤكد رفضه للتقليدين التغربي والتاريخي على حد سواء.

ويتولى منْطَقَةَ هذه الغرابة والاغتراب ويُفلسف هذا الرفض، بعباراتـــه القوية ومنطقه المقنع وأسلوبه الأخّاذ، حتى يصل إلى القول: «وكما يعجـــز الآخـــرون عن التمثيـــل التـــام لصـــوتنا ونغمنا وخطنا ورسمنـــا ونمطنـــا وأســـلوبنا بأصالته الذاتية، كذلك يتعذر علينا التمثل العيني لخـــصوصيات ثقافة الآخرين»[3].

وهذا لا يعني - كما سيأتي - رفضه للتفاعل مع الآخرين والاقتبـــاس منهم، لكنه يدعو إلى الحذر أولاً، ثم الفلترة والغربلة ثانياً، ثم إلى الاستيعاب والهضم ثالثاً.

---

(١) الموازين، ص١٠٣.

(٢) ونحن نبني حضارتنا، ص١٣.

(٣) ونحن نبني حضارتنا، ص٣٠.

ومن الأمور التي دعا إلى الحذر منها: التآمر الذكي للآخرين، حيث حذر من الوقوع في أحابيلهم بدون وعي، إذ بسبب التخلف الذي يعاني منه المسلمون الآن، توجد الكثير من الثغرات الناتجة عن التباينات المذهبية والصوفية والمسائل العنصرية والعرقية، مما يشجع الأعداء دائماً على محاولة إحداث الفرقة والتمزيق[1].

ومع هذا التحذير والدعوة للانتباه، فإنه يبشر بأن الأمة بدأت تعي ذاتها، بعد أن تراجعت عوامل التعرية الروحية، وأنها بدأت بالانبعاث من جديد. ولفت النظر إلى أن جموع البشر عامة لم تعد تقبل أن تقع كَرَّةً أخرى في موقع (القابلية للاستعمار)، بعد أن بدأت تعي ذاتها وتدرك مقوماتها الداخلية[2].

وهذا ما يُشعرنا بأن محطة تجديد الذات بالغة الأهمية في درب الإقلاع الحضاري.

٣- أهمية التجديد والانفتاح الحذر على الآخرين:

بنفس المنهج العدلي المتوازن بين سائر القيم والأفكار، امتلك جولن تفريقاً شديد السطوع بين: الغزو الثقافي الذي يرفضه والتفاعل الحضاري الذي ينشده ويحث عليه.

---

(١) انظر: الموازين، ص٨١-٨٤.

(٢) ونحن نبني حضارتنا، ص١٠-١١.

غير أنه يؤكد دوماً على جوهر القضية وهو الداخل، حتى في مسألة الاقتباس والاستفادة، حيث لابد من البدء بالطاقات الداخلية المصحوبة بالرؤية الثاقبة والخطة الدقيقة، مما يُبرز الأسئلة التي نجد إجاباتها الشافية في الحضارة الغربية، ويُظهر الثغرات التي لا نجد لبناتها إلا في تلك الحضارة، مع ضرورة التهيئة وحسن الاستيعاب والهضم، بحيث يساهم هذا الاقتباس في الحل، ولا يخلق مشكلة جديدة!

ومن خلال استقراء جولن لتجارب الإقلاع الحضاري لاحظ أن كل الحضارات قامت على التفاعل بين الذات والخارج[1].

وبوعيه الأكيد بالإسلام أدرك أنه «منفتح على اقتباس ما يمكن اقتباسه من قيم الأمم الأخرى، فالإسلام يبحث عن كل فائدة ومصلحة حتى وإن كانت في أقصى بقاع الأرض يطلبها أنى يجدها. وكما اقتبس في الماضي من علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب والزراعة والصناعة والتقنيات الأخرى أينما وجدها، ثم قومها وطورها وأودعها أمانة للأجيال الآتية، فكذلك اليوم أيضاً يأخذ كل ما يمكن أخذه أينما وجده، وينميه ويطوره ويودعه أمانة للوارثين الجدد»[2].

وكما يوجب الاقتباس على الأمة، فإنه يوجبه على الفرد، إذ يجب «أن يعرف كيف يستفيد من كل المعلومات لمبدئه أو لنظامه أو لحياته، ولا يهمه مصدر هذه المعلومات ومن أي إنسان صدرت، وألا يهمل أبداً

---

(١) انظر: ونحن نبني حضارتنا، ص٢٢.

(٢) نفسه، ص٥٣-٥٤ .

الاستفادة من أصحاب التجارب»[1]. ويوجب على أهل السنة والجماعة الاستفادة من سائر الطوائف، بل ومن الأمم والحضارات الأخرى[2].

وفي كل الأحوال فإنه يؤكد على الاقتباس المبصر الذي لا يتناقض مع ثقافتنا الذاتية وخصوصياتنا المحلية وعوالمنا الداخلية، ويضرب المثل بالتجربة اليابانية في هذا المضمار[3].

ولأن المسألة مسألة تفاعل حضاري، فإنه رغم الضعف الشديد للمسلمين في هذا الزمن، يلتفت كثيراً إلى مصادر القوة الموجودة في الإسلام والتي يحتاجها الغرب، ولاسيما في الجوانب الروحية والأخلاقية.

وحتى في الجوانب السياسية فإنه يدرك ما يمتلكه الإسلام من كنوز لو أحسن المسلمون استخراجها واستثمارها. ولهذا رأى - على سبيل المثال - أن الديمقراطية الغربية يمكن أن تصل إلى ذروة الكمال «وأن تجلب المزيد من السعادة للإنسانية، وتستطيع المبادئ الإسلامية مثل المساواة والتسامح والعدالة أن تساعد الديمقراطية في تحقيق ذلك»[4].

وبهذا العدل والاعتدال قرأ جولن عوامل الضعف وعوائق النهوض، وبذات المنهج وازن في تفعيل طاقة التغيير بين الانفعال والفاعلية، موضوع الموازنة الرابعة.

---

(١) الموازين، ص١٧٠.
(٢) انظر: أسئلة العصر المحيرة، ص١٥٠.
(٣) راجع: ونحن نبني حضارتنا، ص١٧-١٨.
(٤) د. جيل كارول، محاورات حضارية، ص٤٢.

رابعاً: الموازنة في تفعيل (طاقة العروج) بين الانفعال والفاعلية:

من سمات الأفكار العليلة قدرتها على زجّ أصحابها في مهاوي التطرف، بحيث يتشيَّعون لهذا الطرف أو ذاك، مع أن الطرفين ضروريان لعملية التغيير، وغاية ما في الأمر أن أحدهما مهم والآخر أهم، أو أن أحدهما غاية والآخر وسيلة، كما هي العلاقة بين الانفعال والفاعلية، فالأول وسيلة والآخر غاية، غير أن الغاية لا تتحقق إلا بتلك الوسيلة، فهي ليست من الوسائل التي يمكن الاستعاضة عنها.

وإن الناظر إلى محاولات حركات الصحوة والتجديد لمعاودة الإقلاع بالأمة من (هامش) الحياة إلى (متن) الحضارة، يجد أن أكثر جهودها انفعالية مليئة بالعواطف والأماني والنيات الحسنة، لكنها بدون فاعلية، لأنها قليلة التسلح بالأفكار والرؤى والخطط وغير مشمولة بالمراجعة والنقد والمحاسبة.

وحجر الزاوية في هذا الاختلال الخطير هو عدم انسجام العقل والقلب، وهذا ما عمل فتح الله جولن على رتْقه في فكره ودعوته، حتى أن هذا الأمر صار أشهر ما يتميز به بين سائر المجددين والدعاة.

ولهذا اشتهر كداعية يفوق كبار الدعاة بخطابه الروحاني، وأنتج عدداً كبيراً من الكتب التي تعالج القلب، وتداوي الروح، وتشعل الشغف، وتوقد

الفاعلية، وتضرم الأشواق، وتلهب الأحاسيس والمشاعر، ومنها كتاب (التلال الزمردية - نحو حياة القلب والروح)، الذي اجتهد فيه من أجل الترقي بالقلب في مدارج المعرفة ومعارج التزكية الربانية، ومن نظرة بسيطة إلى عناوين بعض كتبه سنجد القلب والروح حاضرين بقوة، مثل: (ونحن نقيم صرح الروح)، و(ترانيم روح وأشجان قلب)، وهما من أهم كتبه، ويحتار المرء في تصنيفهما ككتابين فكريين أم قلبيين نتيجة المزج التام بينهما، حتى أنك تستطيع أن تقرأه كله ككتاب فكري وتستطيع أن تقرأه جميعه ككتاب قلبي.

وبجانب كونه داعية وواعظاً ومربياً، فهو مفكر ومعلم حتى يمكن القول: إنه اليوم أبرز مفكر إسلامي بأفكاره العميقة وعقلانيته السديدة وآرائه الرشيدة.

وبهذا الجمع لم يُصب كمفكر بجفاف الفكر وخواء الروح الذي يصيب أكثر المفكرين، ولم يتلبس كداعية بالخطاب العاطفي الذي يستثير المشاعر ويستجيش العواطف، دون أن يرسم بصمة في الحياة أو يكون له ظل من الواقع.

وتبدو موازنته الدقيقة بين الفاعلية والانفعال، بارزة من خلال النقاط الآتية:

١- (الانفعال) زاد (الفاعلية):

عُرف جولن بآلاف الخطب والمواعظ، وبقدراته البلاغية الرفيعة التي تجعله ضمن الصفوة المتقدمة التي تكتب بالتركية في هذا العصر، مع إخلاص

بلا حدود يعطي لكلامه نوراً فوق نور، ويمنحه قدرة على التحكم بقلـــوب سامعيه، واقتيادهم من عواطفهم إلى ساحات الإيمان الذي يترجمه بقدراتــه الفكرية والتربوية إلى سلوكيات تخدم الخلق وتعمر الحياة.

ومع أن أكثر المجتمعات الإسلامية تنتمي إلى الشرق، حيـــث اللغـــات ذات حضور مؤثر، وفي طليعة هذه المجتمعات المجتمع العربي الذي يمتلك أكثر لغات الأرض فصاحة وثراء، إلا أن التخلف قد ســـرى إلى اللغـــات وإلى الخطاب الإسلامي المعاصر في هذه المجتمعات.

لقد لاحظ جولن أن العالم الإسلامي افتقد القـــدرة علـــى الكـــلام المؤثر(١). وهذا سبب رئيسي في خسارته لكثير من القضايا، حيث أصـــبح محامياً فاشلاً لقضية عادلة!

وحول عاطفيته اشتهر جولن ببكائياته أثناء حديثه عـــن آلام وطنـــه وأوجاع دينه، ومعضلات وجروح أمته. ولم يكتف بالبكاء بل انتقـــل إلى الإبكاء، وهو صاحب العبارة التي تقول: «بعض قطرات الدموع قد تكـــون وسيلة لفتح قلوب عديدة»(٢). وقد جرف بدموعه الرقراقة الران من قلوب آلاف العصاة والقساة واقتادهم إلى عوالم الطاعة والشفافية والتضحية.

ويقول في نفس الموضوع: «إن أرباب الخوف يتـــألمون ويتوجعـــون، وأحياناً أخرى تنهمر منهم الدموع سيلاً مرات ومرات في اليوم، ولاســـيما

---

(١) انظر: طرق الإرشاد، ص١١٤.

(٢) الموازين، ص٢٦٠.

عند انفرادهم، يطفئون بدموعـــهم نار «البعد»، ويمضون إلى إطفـــاء نـــار جهنم وهي أقصى الأبعاد عن الله»، ويعتقد أن «الدموع أعظـــم إكـــسير لإطفاء نار جهنم»[1].

ورغم أن جولن (ضحَّاك) بالاسم، إلا أنه (بكّاء) بالفعـــل، ورغـــم بصمـــاته الـــكبرى في صناعة (الفرحـــة) لآلاف غير معدودة من النـــاس في العالم كله، إلا أنه كثير (الحزن)، ورغم فتحه لأبواب (الأمـــل) إلا أنـــه شديد (الألم).

ولعـــاطفيته العجيبة فإنه يُفلسف الحزن ويستعذبه، ويبين ثماره الخارقة في تخلية الإنسان من نواقصه، وتطهيره من ذنوبه وأدرانه، ويُبرز دوره الكبير في دفع الفرد نحو سلالم الكمال ومعارج الجنة[2].

إن بكاء جولن ليس بكاءً على الأطلال، يؤدي إلى تنفـــيس الطاقـــة، وتفريغ الشحنة ثم يبقى الحال على ما هو عليه، إن لم يتأخر أكثر، بل هـــو البكاء الفاعل، حيث تستحيل دموعه إلى قطرات غيث تنبت الزرع وتروي الضرع، وتصبح هذه الدمـــوع بفضل بوصلة العرفان وبركـــة الإخـــلاص أنهاراً تسقي بذرة الخـــير في بساتين القلوب وحـــدائق العقـــول، فتطيـــب الأيدي والأبصار.

---

(١) التلال الزمردية، ص٧٩.

(٢) انظر مثلاً المصدر نفسه، ص٧١-٧٤.

وبعبقرية جولن وربانيته، وبمباركة الله وتفاني تلاميذه وتضحيات عاشقيه، أنبتت هذه البذرة سبع سنابل:

- الأولى: سنبلة المدن السكنية الخيرية للطلاب.
- الثانية: سنبلة المدارس التربوية والجامعات العلمية الراقية.
- الثالثة: سنبلة الجمعيات الخيرية المباركة.
- الرابعة: سنبلة الصحف والمجلات الثقافية والقنوات الفضائية.
- الخامسة: سنبلة المنتديات الحوارية والمؤسسات البحثية.
- السادسة: سنبلة المشافي والمصحات النموذجية.
- السابعة: سنبلة المؤسسات الاقتصادية العملاقة كالبنوك والشركات التجارية.

وقد تجاوزت حبوب بعض السنابل المائة حبة إلى المئات، كالمدارس، والله يضاعف لمن يشاء!

ومن المؤكد أن أهم محطة للتزود من هذا الانفعال الخلاق، هي محطة الشعائر التعبدية، كالصلوات والصيام والحج، حيث الشحن المبارك، والذي يتحول بالعلم والإخلاص واغتنام المواسم، ومداومة التزكية ومعاودة المراقبة والمحاسبة، إلى طاقة هادرة، تكتسب فاعلية كبيرة في العمارة والخدمة.

وعن مواسم العبادات هذه يقول: «يتخلص بعضنا في مثل هذه المواسم من الحدود الضيقة للمنطق فيدع نفسه في يد الفرح والانفعال والبكاء،

وكأنه قد دُعي لعالم قُدسي.. ويتخيل بعضنا بأنه قد تهيأ لسفر بين النجوم، وأنه يسابق الشمس والقمر، ويحسب أن أنفاسه تختلط بأنفاس الملائكة إلى درجة أن قلوبنا تلين إلى أقصى حد، وتدمع أعيننا، ونشعر بأن العديد من عُقدنا التي نحس بوجودها في أنفسنا قد لانت وانحلت. أما دموعنا المنسكبة فتبدو وكأنها تطهر جميع العقد الموجودة في أعماق أرواحنا، وتهب الراحة والاطمئنان لضمائرنا»[1].

واهتم بغرس الحساسية الفكرية والروحية، وندد بالتبلد والغفلة واللامبالاة، وشن عليها الغارة بأسلوبه الأدبي الرائع، حتى أنه كتب ذات مرة: «يقولون: فلان حساس إلى درجة أنه يتأثر حتى من رطوبة الجو، أفدي مثل هذا الشخص بنفسي.. إذ ماذا نقول لمن لا يتبلّ حتى وهو تحت المطر؟»[2].

وهناك قصص عجيبة حول حساسيته وشفافيته المرهفة سمعناها من تلاميذه المقربين جداً، ولا تسمح طبيعة هذا البحث ومحدوديته بإيرادها، لكنها تزيدنا يقيناً بأن هذا الرجل عملاق الفكر والقلب والروح في هذه الآونة!

---

(١) ترانيم روح، ص١٣١-١٣٢.

(٢) الموازين، ص١١٧.

٢- أهمية ارتياد الفاعلية من أبوابها المشروعة كافة:

يعرف من تعامل مع «أبناء الخدمة» في كافة المجالات أنهم أصحاب فاعليات لافتة للنظر، ومن يعرف كتب جولن ويفهم منهجه التربوي، يدرك الأسباب والأسرار في آن واحد، إنه إكسير الفاعلية، وهو المزج الدقيق بين القلب والعقل، بين الإخلاص والعلم.

وبالمناسبة قام المفكر المغربي د. سمير بودينار بعمل دراسة قيمة عن التربية في المدارس التركية التابعة للخدمة، ولاحظ نجاحها الباهر بل والمنقطع النظير، وفي تفسير هذا النجاح ذكر أن له أسباباً لا أسراراً[١].

ويبدو لي أن لهذا النجاح أسباباً وأسراراً، بسبب هذا الدمج الكبير بين العقل والقلب، فالعقل صانع الأسباب، والقلب مصنع الأسرار، ومما يؤكد ذلك أن مخرجات مؤسسات «الخدمة» أكبر من مدخلاتها مقارنة بمؤسسات مماثلة لأناس لم يتلقوا التربية التي تلقاها «أبناء الخدمة».

وعلى سبيل المثال فإن أكثر الذين يديرون المؤسسات الإعلامية للخدمة هم من خريجي قسم الإلهيات في الجامعات التركية، و لم يدرسوا في كليات الإعلام بما فيها من علوم ومفردات تخصصية دقيقة.

وفي مقابلة لنا مع أحد المسؤولين في قنوات (درب التبانة) الفضائية - التابعة للخدمة - ذكر أن مثل هذه الملاحظة أثيرت من قبل خبراء

---

(١) انظر: مستقبل الإصلاح، مرجع سابق، ص٣٤٥.

غربيين كبار جيء بهم لتقييم أداء هذه القنوات، فكانت غرابتهم كبيرة من البَوْن بين المدخلات والمخرجات، إذ رأوا مخرجات ممتازة بمدخلات غير ممتازة، لو كانت في مؤسسات أخرى لأثمرت نتائج عادية، لأن المخرجات من جنس المدخلات، غير أن استفراغ الوسع في مجال الأسباب، مع الإخلاص وروح التعبد لله، يخلق أسراراً تُفعل الأسباب، فتغزر الثمار وتعظم النتائج!

وربما كان هذا ما يعنيه جولن عندما يتحدث عن تعظيم الإخلاص للحقير وتكثيره للقليل، من مثل قوله: «النية الحسنة أكسير يُحوِّل العدم وجوداً، والنية السيئة تحول الوجود عدماً وتمسح تأثيره»[1].

ومن أهم الأبواب للولوج نحو عالم الفعالية وصناعة الحياة:

أ – التصور الدقيق والنية الخالصة:

يقول جولن: «يبدأ كل شيء كتصور في الذهن، ثم يتم الانتقال إلى التخطيط ثم إلى تحقيقه بعزم وإصرار. فدون وجود هذا التصور الأولي والنية لا يمكن البدء بأي عمل، كما أن أي نية لا يعقبها عزم وقرار لا يؤدي إلى أي نتيجة وتبقى عقيمة. هناك أشياء كثيرة تشير إلى القوة التي تملكها النية. غير أن العديدين ممن لا يملكون المقدار الكافي من الشعور بالحياة لا يعرفونها»[2].

(١) أسئلة العصر المحيرة، ص٥١.

(٢) نفس المصدر، ص٥٠.

ب – إتقان التخصصات ووضع الكفايات في أماكنها المناسبة:

لقد أكثر من الحديث عن أهمية التخصصات، وصقل المواهب بالعلوم والمعارف والخبرات، وعن وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وإلهاب شعور الرغبة بالاستزادة من العلم بإطفاء جمرة الشعور بالرضا والإحساس بالوصول إلى العلم(١).

ومع الاهتمام بتحصيل المفردات التي تجعل الإنسان متقناً لتخصص ما، فإنه يطلب من الجميع الإحاطة العلمية الكلية والإدراك المقاصدي، إذ أن الأمة اليوم أحوج ما تكون إلى النظر الشمولي، والتقييم العمومي الموضوعي(٢).

وفي حثه على التعلم والتخصص، فإنه ما برح يؤكد على الجانب العملي والرسالة الوظيفية لهذا العلم، مهما كان التخصص، إذ لابد للعالم أن يستخدم علمه «كمنشور في تحليل الأحداث والأشياء، ويوجه علمه لإضاءة وإنارة المناطق المظلمة، والطيران بعلمه ومعرفته للوصول إلى الحقائق الموجودة فيما وراء الطبيعة، فقدره وقيمته بقيمة علوّ طيرانه»(٣).

فهو هنا يجعل قيمة الإنسان ومكانته بمقدار فاعليته التي يسميها الطيران، مع دمجه بين القلب والعقل، وبين العلم والعمل، وبين الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر مثلاً: الموازين، ص١٠٨، ٢٢٥؛ طرق الإرشاد، ص١٥٤.

(٢) انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٢.

(٣) الموازين، ص١٤.

ج- التخطيط الدقيق:

يحض جولن دوماً على التخطيط في إنجاح وتفعيل كافة المشاريع والمؤسسات سواء كانت فردية أو جماعية، فكيف بالمشروع الحضاري لهذه الأمة التي تجاوز أبناؤها المليار ونصف المليار إنسان؟!

في التخطيط اللصيق بالنقد، يحث على مراجعة الأمس ونقده، ومعرفة اليوم، حتى يمكن صناعة الغد[١]. ولابد من وضوح الهدف، وتحديد البرامج، ورسم الخطط في ضوئه للسير إلى المستقبل[٢].

ومثلما ضرب المثل باليابان كنموذج للإقلاع الذاتي المستفيد بوعي مما عند الآخرين، فإنه يقدم هذا البلد كنموذج للتخطيط الفاعل[٣].

وفي إطار التخطيط الذي يراعي الإمكانات والممكنات لصنع المكانات، فإنه يحث على دراسة العوائق لتجنبها، ودراسة العوامل المساعدة لاستثمارها وتعظيمها في عملية الإنجاز وتحقيق الهدف[٤].

ويبدو أنه يَعد المدرسة نقطة الانطلاق ومدرج الصعود، ومضغة التغيير، من خلال تأكيده على أنها «دائرة تخطيط ومركز مشروع»[٥].

---

(١) انظر: ونحن نبني حضارتنا، ص١٢.
(٢) انظر: نفس المصدر، ص١٠، ٣٩.
(٣) نفس المصدر، ص١٨.
(٤) انظر: الموازين، ص١٤٥.
(٥) ونحن نبني حضارتنا، ص٢٧.

ويرى أن للتخطيط ثماراً كثيرة وكبيرة، ومن أهمها أنه يجعل الحركة ذاتية، فإن الذي لا يخطط سيدخل في دوامات الآخرين[1]، أي أن تصرفاته وتحركاته ستصبح ردود أفعال ومجرد انفعالات قد تقود أصحابها إلى الحضور في المكان والزمان غير المناسبين بفعل من مكر الآخرين وغياب التخطيط عندنا.

ولا يلبث أن يعيد التأكيد كرة بعد كرة على وجوب «تعيين الغايات والوسائل والأهداف والمقاصد من جديد، مع الارتباط بموثق وعهد قلبي»[2].

ومن العبارات الجميلة التي كررها في عدد من كتبه وكتاباته حول وجوب التدقيق في الخطط والتحركات قوله: «وتدقيقنا الأدق الذي يشطر الشعرة أربعين شطراً»[3].

وهكذا يصير التخطيط جسر العبور الواثق من (الانفعالات) إلى (الفاعلية) التي يجب أن تكون حاضرة في صميم العالم الإسلامي ممارسة، كما هي حاضرة فكراً.

---

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص٦٥.

(٢) الموازين، ص٨١.

(٣) ونحن نقيم صرح الروح، ص١٢٤، ١٣٠.

د – استثمار الوقت:

وإذا كان الوقت أحد الأضلاع في مثلث النهوض الحضاري عند مالك بن نبي بجانب الإنسان والتراب، فإنه – عند جولن – أحد شروط النهوض وصناعة الفاعلية في عمارة الحياة وخدمة الخلق وعبادة الحق(١).

هـ – العمل الحثيث:

لم يخْلُ أي كتاب أو مقالة لجولن من الحديث عن أهمية الأعمال في ترجمة الإيمان إلى مشاريع، وتجسيده في مؤسسات تتوزع في سائر شُعب الحياة وميادينها، وذلك خدمة للذات والأهل والمجتمع الوطني والقومي والإنساني، وخدمة للدين والشرف والقيم، مع حضه على ضرورة التجويد والإحسان والإتقان، وهي درجات إذا سلكها المرء أوصلته إلى ذرى الفاعلية(٢).

٣– ضرورة (الاختلاط) وخطورة (الاختلال):

جعل جولن الخط الواصل بين القلب والعقل أشبه بالدائرة، فالعقل يصل خطه إلى القلب، والقلب يصل خطه إلى العقل، وبهذا الوصل تتكوّن دائرة ويستحيل الانفصام(٣).

(١) انظر مثلاً: الموازين، ص١٠٩، ١٤١، ١٤٤ .

(٢) انظر مثلاً: طرق الإرشاد، ص٤٧، ٦١؛ أسئلة العصر المحيرة، ص٣١٦؛ الموازين، ص١٦٠–١٦١.

(٣) انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ص٦٧.

وفي حثه على ضرورة الخلط والمزج بينهما جعل القلب والعقل عضوين في ذات العين، فالعقل هو قسم البياض من العين والقلب هو القسم الأسود منها[1].

وفي نظرته لبعض العلوم والقضايا التي تبدو لأول وهلة أنها تنتمي بصورة سافرة إلى العقل فإنه يضفي عليها ظلالاً روحية وقلبية، والعكس بالنسبة للقلب والروح، ومن ذلك التصوف، فهو عندما يضع له بعض التعريفات، يجعله محضناً جامعاً للقلب والعقل في آن واحد[2].

وفي فهمه للفلسفة وهي بضاعة العقل، أعطاها عرفاناً قلبياً، وبعد ذلك كله طالب بالجمع بينها وبين الحكمة والتصوف[3].

وقد أعطى لهذا الدمج المتوازن مبررات عديدة بعضها فلسفي منطقي[4]، وبعضها عملي واقعي. ومن المبررات العملية: وجود الكثير من أوجه الخلل في الحياة والتي تأتي بسبب الانفصام أو عدم التوازن[5]، ومن ثم يصير هذا التوازن معراجاً للوصول إلى الكثير من الكمالات.

وفي قراءته التحليلية العميقة - مهما كانت الكلمات قليلة - لظاهرة الفُرقة في الصف الإسلامي، فإنه يعيدها إلى اختلال هذا التوازن، مع الحرمان

---

(١) بتصرف عن: الموازين، ص٢١٩.

(٢) انظر: التلال الزمردية، ص١٣ - ١٨ .

(٣) راجع: الموازين، ص١٥٨-١٥٩ .

(٤) انظر مثلاً: ونحن نبني حضارتنا، ص٦٢.

(٥) انظر مثلاً: الموازين، ص٧٠، ٧١، ٨٠، ١٧٨.

من القيادة والتوجيه[1]. ومن ثَمّ يصبح من الطبيعـــي أن يكـــون التـــزاوج المنسجم بين الأفكار والمشاعر هو الطريق لوحدة الأمة[2].

لهذا كله فقد توصل إلى ضرورة اندماج العقل والـــروح والجـــسم في شخصية واحدة، بحيث تمتزج بمقادير مناسبة، ورأى أن هذا التمازج لُـــبّ صفات رجل الحقيقة[3].

ومن أجل أن يبقى الانفعال والفاعلية متـــوهجتين، فإنـــه يـــدعو إلى التجديد، لأنه وسيلة مهمة في هذا الوهج[4].

وهكذا، فإن (اهتياج) المشاعر يؤدي إلى (ابتهاج) الأرواح، وإن ثوران (الانفعالات) المنضبطة بمقاصد النقل وحقائق العقل يـــصنع (الفاعليـــات)، ويصبح (ربيع الأفكار) مدخلاً (لصيف الأفعال)!

ولما كان العقل زينة الإنسان وقنديل (الأرض) وأداة إدراك (الواقـــع)، وكان القـــلب هـــدية (السماء) وقادحة استشراف المعالي و(المثاليـــات)، فإن الموازنة الخامســـة ستكون حول الجمع بين السماء والأرض، أو بـــين المُثُل والواقع.

---

(١) نفسه، ص٨٠.

(٢) ونحن نقيم صرح الروح، ص١٤٤.

(٣) انظر: الموازين، ص٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٠.

خامساً: الموازنة في رسم (استراتيجية العروج) بين العيش في الأرض واستشراف السماء:

خلق الله الإنسان من طينة الأرض ونفخ فيه من روحه، فيكون العنصر الأرضي قاعدة (الواقع) الذي يعيش فيه، ويمثل العنصر السماوي (المثال) الذي يتطلع إليه، فلا تجذبه الأرض إلى دركة الحيوان، حيث لا عقل ولا أخلاق ولا قيم، ولا تشُدُّه السماء إلى درجة الملائكة، حيث لا غرائز ولا مطالب ولا تقلب بين الطاعة والمعصية، إذ أن باب العبور من الضعف إلى القوة، من السقوط إلى الصعود، من المعصية إلى الطاعة، هو باب التوبة المفتوح حتى (غروب) شمس الإنسان و(طلوع) شمس الكون من المغرب!

ومن قراءة كتب جولن نراه صاحب رؤية ثاقبة في قراءته للواقع مع إدراكه التام للمثل الإسلامية، ومن ثم فقد كان عادلاً في توزيع خارطة المثل الواقعية بين السماء والأرض.

وستتأكد هذه الرؤية من خلال النقاط الآتية:

١- الإقلاع الهادئ من (الكائن) إلى (ما يجب أن يكون):

يدرك جولن تماماً الواقع التركي خاصة والإسلامي عامة، ويعرف حجم ونوع العوائق والمصاعب، لكن ذلك لم يدفعه للاستسلام ورفع الراية البيضاء، وفي ذات الوقت لم تلغ عواطفه الجياشة عقله، و لم يدفعه تطلعه إلى المثال الأكثر بياضاً لحرق المراحل من أجل تجاوز الواقع الأكثر قتامة وسواداً.

ولكنه - كما أسلفنا - وضع الرؤية ورسم الخطط التي تضع كل عوامل القوة والضعف بالحسبان، وتحرك بخطى وئيدة وثابتة، اتسمت بشدة الهدوء والحذر والتلفت إلى كل الاتجاهات وناحية سائر الجهات.

إنه ينتقد الذين يثيرون الضوضاء، ويشبِّههم بالدجاجة التي تثير الضوضاء كلما وضعت بيضة واحدة، «بينما نرى أن كل نشاط يجب أن يجري في سكون وصبر يحاكي سكون وصبر المرجان الذي يتكاثر بهدوء، ودون ضوضاء في أكثر الأماكن هدوءاً وبُعداً عن الأنظار»[١].

ويبدو أن هذا الهدوء والإسرار يقوم عند جولن على حجتين:

الأولى: دينية روحية:

فالدين الإسلامي دين الحب والرحمة والتلطف بالناس جميعاً، ويشتد هذا الأمر في هذا الزمان، كما يقول: «إن إنساننا في الوقت الحاضر أحوج ما يكون إلى المحبة والشفقة والكلام الطيب والصوت الأنوس الحنون، بدلاً عن القسوة والعنف والضرب والقتل. فالمنتظر منا اليوم خفض جناح الرحمة والشفقة على الجميع حتى نسمع أنّاهم في قلوبنا، ونستشعر قلقهم واضطرابهم في نفوسنا، فنشاركهم في الأفراح والأتراح»[٢].

ويرى أن أجمل هدية يقدمها المسلم باسم الإنسانية هو تحقيقه لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «نعم، إن أداء هذه الوظيفة بإحسان ولطف لهو أعظم هدية وأثمنها»[٣].

---

(١) الموازين، ص٢١.
(٢) طرق الإرشاد، ص٣٠.
(٣) نفسه، ص٣٨.

والتعامل اللطيف مع المحبوب بالتأكيد أنه يكون هادئاً، وهـــذا مـــن جوهر الإســـلام، وليس فقـــط من مقتضيـــات العصر، فقـــد كـــان ﷺ يمارس العمل الهادئ في مكة المكرمة، حتى أن جولن يسمي ذلـــك الهـــدوء بـــ(الفعالية الصامتة)[1].

الأخرى: عقلية واقعية:

وهي طبيعة العداوات والتآمرات، وحجم الأعداء والخصوم، حيـــث لابد من التلطف والحذر والتخفي والإسرار والهمس، وبالذات في مرحلـــة ضعف الدعوة.

وفي تفسير جولن لآية النجوى الجائزة: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٤)، ذهب إلى أن الدعوة عندما تكون صعبة بسبب بعض العوامل السلبية، كما في هذا الزمان، «فإن هذه الدعوة وهذا التبليغ سيتم سراً وهمساً، أي على قاعـــدة (وليتلطف)»[2].

والإسلام دين الواقعية حتى في الأوضـــاع الطبيعيـــة لأنـــه يعتـــرف بالمستويات المختلفة والفروق الفردية بين الناس، إذ يعمل من أجل إيـــصال كل فرد إلى كماله الممكن، ومن ثم تصبح خصيصة الواقعيـــة في الإســـلام

---

(١) النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ص٣٧٥.

(٢) أضواء، ص١٤٠.

لصالح جميع الناس بمختلف مستوياتهم الإيمانية، حيث إن هذه الواقعية تجعله قابلاً للتنفيذ في كل مجال، ومالكاً لوسائل تحقيقه، بجانب تلبيته لميول ورغبات وحاجات جميع الناس الطبيعية والمعقولة(١).

ومن ثم تكون إحدى مفردات واقعية الإسلام اعترافه باختلاف الناس، فهم من تراب الأرض، والتراب يحوي سائر المعادن، النفيسة والرديئة، ولهذا فإن الإسلام لا يكتفي بالاعتراف بهذه الحقيقة، لكنه يطالب الدعاة والصالحين بالتعامل مع الناس بالحكمة على أساس هذه المعرفة(٢).

ولما كان النبي ﷺ هو التجسيد المثالي لقيم هذا الدين في سائر المجالات، فقد تجلت في سيرته ﷺ هذه الخصيصة، ومن مفرداتها معرفة الكفايات، وتوظيفها في مجالاتها المناسبة(٣).

وتشتد الحاجة لمعرفة هذه الخصيصة عندما يتعلق الأمر بالقائد، فهو مطالبٌ بمعرفة مواهب وقدرات وكفايات أفراده، وتنميتها، وتوظيفها في سد الثغرات والثغور المناسبة(٤).

ومع أن جولن يراعي الواقعية في تربيته لتلاميذه، لكنه لا يغادر المثالية قيد أنملة، ولذلك -كما قال لي بعض تلاميذه- فإنه يدعو خُلّص أتباعه لأن يتطلعوا في مضمار الدعوة والحركة والتبليغ إلى العالم كله، ثم إلى السماء.

---

(١) انظر: ونحن نبني حضارتنا، ص٥٦-٥٧ .

(٢) انظر: النور الخالد، ص٢٣١-٢٣٢.

(٣) راجع نفس المصدر، ص٣٥٣، ٣٥٦.

(٤) نفس المصدر، ص٤٩٢.

وعندما يرسم هذه الآمال العريضة لتلاميذه، ويدعوهم إلى الارتفاع والعلو بدون سقف إلا سقف السماء، فإنه لا ينطلق من عواطف جياشة خالية من الفهم والفكر، بل ينطلق من معرفته بسنن الله، وبحاجة البشر إلى هذا الدين، وثقته المطلقة بالقدرات الخارقة للإسلام، وبفاعلية أبنائه عندما يحسنون فهمه وتمثله.

ولذلك لم يفتأ يُحدِّث أصحابه وتلاميذه عن دور القرآن في هذا الإقلاع المرتقب، ولاسيما أن شلالات كافة العلوم تصبّ اليوم في بحر القرآن، ولذلك فإنه لا يرى أي مبالغة في «النظر إلى المستقبل بأنه سيكون عهد القرآن، ذلك لأنه الكلام الذي يرى الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد»[1].

والقرآن بقدراته المطلقة في إصلاح الأبدان والقلوب والأرواح والعقول والضمائر، هو الذي يهيء المسلمين ليكونوا (إنسان المستقبل) بعد أن أراهم ذُرى المثاليات وشوامخ الرفعة والسموّ[2].

إنه دائب التأكيد على أن القرآن كتاب المستقبل، وأن المستقبل لهذا الدين «نعم، إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سلطنة (مفخرة الإنسانية) ﷺ. الآذان تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي

(١) الموازين، ص١٨٨.

(٢) ترانيم روح، ص٦١.

تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم، الأمر الفيصل الآن، هو لهذا الموحد الخالص الذي يُرجع كل شيء إلى التوحيد الخالص»[1].

مرة أخرى، هو على يقين كامل بأن المستقبل للإسلام، لكنه ليس إيماناً عاطفياً، بل إيماناً برهانياً قائماً على الأسباب والسُنن، وقائماً بها حيث يعد العُدَّة لحدوثه، وذلك بضبط الواقع وتسخيره لهندسة المستقبل.

٢- الهيمنة على (الحاضر) وهندسة (المستقبل):

إن أهل الخدمة - تحت قيادة حكيمهم ومربيهم فتح الله جولن - حاضرون بقوة في الواقع المعاصر، ويعملون بجد للسيطرة عليه، بحيث يصبح جسر عبور آمن إلى المستقبل المنشود.

ويبدو من استقرائي لفكر وتجربة «الخدمة» أن هذا الأمر المزدوج يتم من خلال الخُماسية الآتية:

أ- الثقة اليقينية الكاملة بالله:

يتحدث جولن عن النور الخالد محمد ﷺ وكيف كانت ثقته بالله لا حدود لها، وينقل عن الفيلسوف والأديب الإيرلندي الشهير «جورج برنارد شو» قوله عن رسول الله ﷺ: «إن محمداً شخص له جوانب سامية متعددة، ومذهلة، وليس في الإمكان فهم هذا الإنسان اللغز حق الفهم، ولاسيما فهم أحد جوانبه وهو ثقته المطلقة بالله، فهذا سر لا يمكن فهمه». ويعلق جولن على هذه الشهادة فيقول: «كانت ثقته بالله لا يمكن قياسها

---

(١) ونحن نبني نهضتنا، ص١٤٢.

ولا تقييمها بموازيننا العادية، لذا كانت مكانته ومنزلته عند الله سامية، سموّ ثقته وإيمانه بالله وتوكله عليه، لذا فلو دعا الله لانقلب الليل إلى نهار والظلام إلى نور والفحم إلى ماس»[1]، هذا لأن الرسول محمد ﷺ هو مصدر كل القيم والمبادئ ومنها الثقة بالله.

ومن ثقة جولن بالله تأكيده الأكيد على أن المسلمين سيكونون أصحاب القول الفصل في الألفية الثالثة[2] ما التزموا بشروط التمكين والعبور إلى المستقبل، ومنها الاستفادة من الماضي وحسن إدارة الحاضر.

ب- الاستفادة من الماضي واستثمار الحاضر:

يُجيد جولن استثمار الزمن لصالح مشروعه الحضاري، بحيث يجعل الماضي أداة لإعمار الحاضر، ويجعل الماضي والحاضر طاقة لصناعة المستقبل.

ففي حديثه عن (الأجيال المثالية) وصفهم بأنهم «ينشغلون بحساب الغد مع اليوم قياماً وقعوداً، ويستعملون الإمكانات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغد»[3].

ويشير إلى هذا الترابط الوثيق بين الأزمنة الثلاثة حيث صناعة المستقبل، فيقول: «إن تماسك أجيال الغد وقوامها وسعادتها، حاصل من حواصل الأرواح والأنفاس المضحية هذا اليوم. وإن انتظار مستقبل متكامل ومنظم

---

(١) النور الخالد، ص١٣٤؛ وانظر: ص٣٥٠.

(٢) ونحن نبني حضارتنا، ص٤.

(٣) ونحن نقيم صرح الروح، ص١٢٦.

من ركام البشر الضجر الشريد السادر في الراحة والرخاوة، ليس إلا محض وهم وسلوان كاذب. المستقبل يتطور إلى براعم في رحم اليوم، ويربو برضاع اليوم ليتماسك قوامه»[1].

ولأن الماضي سلاح ذو حدين، فيمكن أن يكون خنجراً في اليد أو في الظهر، ويمكن أن يكون طاقة دفع إلى الأمام أو إلى الخلف، فإن جولن يصف لتلاميذه الدواء الناجع، بالالتفات إلى إيجابيات الماضي ونقل ما يتم الاحتياج إليه كان مادياً أو معنوياً، بعد تشذيبه بما يتناسب مع الحاجة، وغمسه في مياه العصر حتى يكون متناسباً مع الواقع.

ومما قاله في هذا السياق: «سنلجأ نحن أيضاً إلى ماضينا وجذور معانينا، ونقتبس من مُثُلنا الروحية التي لم يتكدر صفاؤها بتعاقب الزمان. وسنأخذ من إبداعات عصورنا البيضاء التي نراها شريحتنا الزمنية الذهبية ومصدر فخرنا الأبدي، في الفكر الفلسفي كما في الحقيقة الصوفية، وفي طبيعة متلقيات الدين المستقرة كما في بُعده الأخلاقي، ونزيد بغزل النقوش على أردية مرفلة تُسربل المستقبل»[2].

وفي حديث عميق له عن «فلسفة الحياة عندنا» اختتم هذه الفلسفة بقوله: «نعم، نحن نجلب عناصر حياة الغد من ماضينا، فإن استطعنا أن نعجنها في معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، نكون قد جهزنا

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٣.

(٢) نفسه، ص٣٦-٣٧.

خميرة أبديتنا»[1]. ويمكن القول: إن خميرة الأبدية هي التربية المثالية العميقة والحركة الصاعدة التي لا تعرف الهبوط.

ج- التربية العميقة:

والتربية هي لبّ هذه العملية برمتها، ولذلك جعل الذين يتولّون التربية في طليعة وارثي الأرض، وعدَّهم: «مهندسي مستقبل الضياء»، راسماً لهم خارطة السير نحو الشمس[2].

إن الهيمنة على الحاضر لا تتم إلا بالتربية المركزة التي تجعل وارثي الأرض جسراً للعبور نحو المستقبل، ولأهمية التربية في هذا المضمار وجدناه يقول: «على الذين يرغبون في معرفة مستقبل أي أمة والتنبوء به القيام بالنظر إلى التربية المعطاة إلى شباب تلك الأمة. عند ذلك يستطيعون التأكد بأنهم يستطيعون هذا، وأن أحكامهم ستكون صحيحة مئة بالمائة»[3].

ولابد أن هذه الرؤية هي التي ترجمت دعوة جولة إلى تربية ولاسيما في مشروع المدارس والجامعات التي يمكن اعتبارها الأساس المتين لخدمة التيار، أو خميرة الأبدية، ولكن شعوباً إسلامية كثيرة ما تزال بينها وبين هذه التربية - للأسف الشديد - خرط القتاد، لكن هذا لايبرر حرق المراحل في طريق الإصلاح والتغيير!

---

(١) ونحن نقيم صرح الروح، ص١٤٨.
(٢) انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ص٦٩.
(٣) الموازين، ص١٠٥.

د- السير المرحلي والصعود المتدرج:

وهذا الأمر مرتبط بالتخطيط ومن ثماره، وقد أعطينا نبذة عنه من قبل، ومع ذلك نعيد تعريفه بما يتواءم مع هذا الموضوع، بحيث يمكن القول: إنه الطائرة التي تُقلع بأصحابها من أرض (الممكن) إلى سماء (ما يجب أن يكون)، أو من سفح (الواقعية) إلى سماء (المثالية)، حيث الفردوس الأعلى في المعاش قبل المعاد.

ولذلك نجد الحثّ الدائم من جولن على وجوب السير المرحلي وعدم التعجل وحرق المراحل، فإن من مقتضيات صناعة المستقبل التدرج المرحلي والسير نحو الشمس بخطوات مدروسة(١).

ويقول عن تياره - كما يبدو-: «نحن نعيش في عهد تُسبك فيه رؤانا في أفكار مثالية، ونؤمن أن مسؤولي العصر سيحققونها بتوقيت جيد حين تأزف ساعتها»(٢)، وهذا هو ديدن جولن، فإن قدميه في الأرض أما قلبه ففي السماء، وأما عقله فحاضرٌ هنا وهناك.

هـ- استشراف السماء في رسم الآمال:

ظل جولن - مع واقعيته الشديدة - منشدًّا إلى المثالية، متطلعاً إلى الذرى، ولذلك كان يتطلع إلى تأسيس جماعة مثالية، تتبنى تعاليم

---

(١) انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ص٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٧.

المصطفى ﷺ. كما فعل الصحابة الكرام، فقد ذكر أنه يمتلئ رغبة وطموحاً «في الوصول إلى مثل هذه الجماعة وتحقيقها واقعياً»[1].

وبعد أن أوجد هذه الجماعة من أهل الخدمة، ظل يحثهم على الترقي إلى صفوف الجيل المثالي ومصاف الجيل الذهبي الذي أوجده النبي ﷺ.

ونلاحظ هذا الاستشراف بوضوح في الواقع العملي لمن يعرف ماذا يفعل أهل الخدمة على الأرض، فهم يمتلكون مؤسسات ضخمة من حيث الكم والكيف لكن طموحهم بدون سقف، إلا سقف السماء. وعلى سبيل المثال عندهم بضع عشرة جامعة ويخططون خلال السنوات القادمة لأن تصل إلى خمسين جامعة[2].

ووصلت مبيعات صحيفة (زمان) التابعة للخدمة إلى مليون نسخة، وطلب منهم جولن مواصلة الصعود إلى سقف خمسة مليون نسخة!

ويمتلكون مؤسسة للترجمة، وصلت أقسامها في عام ٢٠١١م إلى اثنين وأربعين لغة، ووجّهَهم أستاذهم إلى عدم كبح الفرامل إلا عند مائة لغة، بحجة أن هناك لغات عالمية كثيرة بحاجة إليهم!

---

(١) النور الخالد، ص٢٣٤.

(٢) مثل هذه المعلومة وبعض الأرقام غير الموثقة في هذا البحث عن أنشطة وإنجازات «الخدمة» مأخوذة من مقابلات ومحاضرات عديدة في مناسبات وأماكن مختلفة، على ألسنة بعض مسؤولي الخدمة، وعلى رأسهم الأساتذة: نوزاد صواش، جمال ترك، مصطفى أوزجان.

وبجانب أكبر صحيفة في تركيا، يمتلكون أكبر شركة نشر واسمها (زنبق)، وأكبر شبكة توزيع للكتب، وأكبر مطبعة، وأكبر دار نشر، وأكبر وكالة أنباء واسمها (جيهان)، وأكبر جمعية رجال أعمال واسمها (توسكون)، وأكبر جمعية خيرية واسمها (هل من مجيب)، وما زالوا في سباق مع مسلسل (أفعل) التفضيل في كافة مجالات الحياة!!

وكجزء من نشاطهم العالمي، ركزوا على الولايات المتحدة الأمريكية، حتى وصل عدد الأنشطة التي أقاموها فيها إلى مائة وثلاثين نشاطاً، منها بناء المدارس، حيث يوجد لهم ٣٣ مدرسة في تكساس وحدها على سبيل المثال، بجانب مؤسسات لحوار الأديان والثقافات ومنتديات وصحف وقنوات فضائية (أبرو)، وجمعيات خيرية، وغيرها.

وقد أورد مسؤول الحوار في الولايات المتحدة بـ«تيار الخدمة» د.أحمد كورجان - في محاضرة له عن (الولايات المتحدة وتجربة العيش المشترك) - الكثير من الحقائق والأرقام والمنجزات المدهشة، حتى أنني سألته: «هل يمكن أن تُشكِّل هذه الأنشطة ما يشبه اللوبي - كما فعل خصومُهم اليهود والأرمن في أمريكا - لخدمة القضايا التركية والإسلامية؟ فأجاب بتواضع جمٍّ قائلاً: يجب أن نغتسل بماء زمزم سبع مرات قبل أن نقول: إن هذه الأنشطة يمكن تشكيلها كلوبي، لكنها مجرد أنشطة للحوار والتعارف والتعايش[1].

---

(١) كان ذلك ضمن ورشة عقدتها مجلة حراء في اسطنبول سنة ٢٠١١م، بحضور عدد من المفكرين العرب والأتراك، وكان لي الشرف أن أكون أحدهم.

غير أن هذا التواضع لم يستطع أن يخفي تطلع الخدمة إلى أن تكون شيئاً ذا بال، وفقاً للقوانين الأمريكية، فقد ذكر د. كورجان ما يشير إلى ذلـــك، حيث قال: «نحن الآن نقطع الأشجار في أمريكا، والجيل الذي سيأتي بعدنا هو الذي سيقيم البناء»!

ويبدو استشراف السماء واضحاً حتى في عناوين وأسمـــاء المؤســـسات التابعة للخدمة، وعلى سبيل المثال فإن من أكبر المجموعات العاملة في التربية والتعليم مجموعتان: الأولى تسمى (الفاتح) والأخرى (البُـــرج)، وشـــبكة القنوات الفضائية المتنوعة عنوانها (درب التبانة)، وأكبر مستشفى يتبع الخدمة اسمه (سما).. إنه استشراف السماء والتطلع إلى الفردوس الأعلى!!

وهكذا، فإن جولن وتلامذته يردمون الفجوة بين (الكائن) و(الممكن)، بين (الإمكانات) و(المكانات)، حيث ينظرون إلى الواقـــع بموضـــوعية دون تهويل أو تهوين، ومن ثم ينطلقون للسيطرة على هـــذا الواقـــع والـــتحكم بمساراته، بحيث يساهم بكل (آلامه) في صناعة المستقبل (المأمول) وهندســـة الغد المشرق.

٣- تعبيد الطريق إلى (الآمال) بإسفلت (الآلام):

لا شك أن قطع كل هذه المسافات، وردم كـــل تلـــك الفجـــوات، وتحقيق ذلك الكم الكبير من المنجـــزات، وقفـــت وراءه جهـــود جبـــارة وتضحيات عظيمة.

وقد تحدث جولن عن الذين قضوا سنوات عديدة، وهم يجرون لاهثين، ولكنهم لم يتقدموا شبراً واحداً، في مقابل آخرين بَدَوْا ساكنين «كنهرٍ عميق هادئ، إلا أنهم ساروا خطوة خطوة دون توقف، وتغلبوا على جميع موانع وأستار الظلام، واجتازوا جميع العقبات بطريقة غير متوقعة.. بهدوء ودون ضجيج أو جلبة.. دون مظاهر أو فخفخة.. مثل المرجان الذي صادف كل أنواع الآلام في قاع البحر، وغرق في الدم حتى وصل إلى أفق الزبرجد»[1].

وفي تبشيره بالمستقبل استدل بعبارة لأستاذه سعيد النورسي تقول: «إن أوربا حاملة بالإسلام فستلد يوماً ما، وإن الدولة العثمانية حاملة بأوربا، فستلد يوماً ما»، وقد علق جولن بما يؤكد هذه المقولة، لأن النورسي قالها في مطلع القرن، وقد ولدت تركيا بأوربا: (العلمانية التركية)، وبقي الشق الآخر الذي يبشر به محبيه، حيث سينتشر الإسلام في أوربا[2].

ويبدو من مقولة جولن عن تَكَوُّن المرجان المؤلم، ومقولة النورسي عن الحمل، أن الميلاد يتم بمخاض، ولابد للمخاض من آلام أيضاً. وهذا ما اجترحه «أبناء الخدمة» في سبيل العبور الهادئ بسفينة بلادهم - على الأقل- من أعماق الأمس المتلاطم أمواجه وظلماته إلى شواطئ

---

(١) ترانيم روح، ص١٦٠.
(٢) النور الخالد، ص١٢٢.

اليــوم الآمن، ثم من اليوم المخفــوف بالآلام والمكاره إلى الغــد المــشرق بالآمال والأحلام.

والصبر على الآلام بأنواعها بحاجة إلى تضحية، وهذا ديــدن رجــال الواجب الذين لا يســألون عن حقوقهم، وفي قمة هؤلاء الصّدّيقون.

ويتنازل المضحّون عن أساسيات في حياهم من أجــل القــضايا الــتي يخدموها، ومن ذلك التضحية بالزواج، كما فعل بديع الزمان النورسي الذي منعه الشعور بآلام أمته من الإقدام عليه(١). ويبدو أن جولن سار على درب أستاذه، فهو لم يتزوج، إذ في غمرة الانشغال بقضية شعبه وأمته نــسي أن يكون له بيت وزوجة!!

وتأتي التضحية من الشعور بالمسؤولية، فهو يفجر الطاقــات الخارقــة للإنسان. ولذلك فإن ارتباط الحركة بالمسؤولية يعطيها البعد الإنساني الأول لها. ولا يمكن الوصول إلى الكمال في أي حركة نهــوض بــدون ضــبطها بالمسؤولية، بل لا توجد تضحية دون الشعور بالمسؤولية(٢).

«وإن الاضطراب والألم الصادر من الشعور بالمسؤولية، مع استمرارها ودوامها خاصة، لهو دعاءٌ غير مردود، ومنبع وافر للبرامج البديلة... إن كل إنسان روحاني مرشح - بقدر سعة اضطرابه - لتجاوز طاقته الذاتية، بــل

---

(١) انظر: فتح الله جولن، النور الخالد، ص١٥٣-١٥٤.

(٢) انظر: ونحن نقيم صرح الروح، ص١٠٤.

لتجاوز طاقة جماعته التي ينتسب إليها، وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والآتية»[1].

وعندما يتحدث عن (الأجيال المثالية) يجعل في مقدمتها رجل الفكر، ويصف هذا الرجل بأنه «أنموذج للشعور بالمسؤولية إزاء مجتمعه. يضحي بكل ما وهبه الله، ومن غير تلكؤ وتذبذب، في سبيل أهدافه، وأول أهدافه كسب رضاء الله.. ولا يخاف ولا يخشى من شيء، ولا يهب قلبه إلا لله وحده..»[2].

وتأتي التضحية كثمرة للحب أيضاً، ولذلك ما انفكّ - جولن - يصف «أبناء الخدمة» المضحين بأنهم أبطال الحب وفدائيو المحبة.

وتُظهر التضحياتُ القاماتِ السامقة، وتصنع العمالقة الكبار، وتؤدي إلى تعظيم الفاعلية، ولذلك روى بعض تلامذته قوله: «من كانت همَّته أُمتَه فهو لوحده أُمة».

ومنذ البداية ربى جولن تلاميذه على العزائم، وأخبرهم بأنهم يعيشون الفترة المكية، من حيث مطالبته إياهم بتطبيق عزائم المرحلة المكية.

واهتم بلفت الأنظار إلى النصف الممتلئ من الكأس، وتبيين أن (المنحة) تأتي من رحم (المحنة)، حتى وهو يقرأ السيرة النبوية كان يفعل ذلك،

---

(١) نفسه، ص١٠٠.

(٢) نفسه، ص١٢٩.

كما صنع في استنباط درس غزوة أحد، حيث أوضح لهم كيف تنبعث الآمال من بين أركمة الآلام[1].

ويصف مرة أخرى (الأجيال المثالية) بأنهم «يجدون في حناجرهم غصص نقل الأيام الحاضرة إلى الأيام القابلة.. يبتلعون حسابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتحرر من قيود الزمان..»[2].

لكن: ما الذي جعل هؤلاء يُضحّون بدنياهم من أجل إعمار دنيا الآخرين؟.. إنه التوازن بين العيش في الأرض واستشراف السماء، ثم ما سيأتي من توازن بين الدنيا والآخرة.

سادساً: الموازنة في ارتياد (شُعَب العروج) بين الدنيوية والأخروية:

إن الذين يضحّون بما يملكون من أجل إسعاد الآخرين هم ثمرة بارزة من ثمار التوازن بين الدنيا والآخرة، فهم حريصون على توفير أساسيات الدنيا للآخرين، لأنهم يعرفون قيمة الدنيا إذ أن أهم غايات خلق الإنسان هي استعمار الأرض وخدمة الآخرين، ويضحّون بدنياهم لأنهم يعرفون مقدار العوض والجزاء في الآخرة، عند ربهم الكريم المنان.

---

(١) انظر: النور الخالد، ص٥٥١.

(٢) ونحن نقيم صرح الروح، ص١٢٦-١٢٧.

وسنناقش هذه القضية عند جولن، حيث بدا للعيان أنه كان، رغم قسوته على نفسه، شديد الموازنة بين ثنائياتها كافة على النحو الآتي:

١- الموازنة بين (قبضة الطين) و(نفخة الروح):

مثلما اشتهر بموازنته بين العقل والقلب، فقد فعل مثل ذلك بين الجسم والروح، لإدراكه أن الله خلق الجسم من تراب الأرض ونفخ فيه من روحه، وبالتالي لكي يكون إنساناً ويعيش سعيداً في الدنيا ويفوز في الآخرة، لابد من أن يعطي لكل بعد زاده وحاجته، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧). ومن يقرأ أسباب النزول[١] يجد أنها نزلت في حُجاج اليمن الذين كانوا يذهبون للحج بدون زاد مادي، فنزلت الآية، ولذلك فإن الأمر ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ يُقصد به الزاد المادي، أما التقوى فمن الواضح أنها زاد الروح!

هذا هو التوازن الإسلامي، أما ممارسات المسلمين فقد ظلت نسبية، غير أن العلماء العاملين ظلوا يملكون موازين حساسة في مثل هذه الثنائيات، وعلى رأس هؤلاء فتح الله جولن كبير مجددي هذا الزمن.

ولما كان العصر ذا طابع مادي، فإن معظم المسلمين، فضلاً عن غيرهم، قد اعتنوا بالجسم، وانشغلوا بإشباع غرائزه، وتلبية حاجاته، وأغفلوا تماماً أشواق الروح، من هنا جاء تصدي جولن لهذه القضية، وعنايته بها - كما أسلفنا - في عدد غير قليل من كتبه.

---

(١) انظر: عبد الرحمن السيوطي، أسباب النزول، ص٥٧.

لقد تحدث عن أهمية القلب والروح، وأن الشخص لا يكون إنساناً بدونهما، فبالروح يحيا، وبالروح يطوي الزمن، إذ يربط بين الحاضر والماضي والمستقبل، ويشعر بالطمأنينة، ويؤدي جميع واجباته نحو الخالق والمخلوق[١].

ومرة بعد مرة يكرر أن «الحياة الحقيقية هي الحياة التي تسير فيها الحياة الروحية والحياة الجسدية جنباً إلى جنب، مثل هذه الحياة تكون بمثابة البذرة التي تتحول إلى سنبلة في هذه الحياة ثم إلى سنابل متعددة وعناقيد في حياة الفرد»[٢].

ويفلسف العبادة بأمر جليل ذي صلة بالعلاقة بين الروح والجسد، فـ«العبادة هي عملية إنماء الجوهر الملائكي الموجود في روح الإنسان لكي يكون أهلاً للجنة، وعملية سيطرة على نزعاته الحيوانية»[٣].

وباختصار شديد فإنه يعُدُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حياة الروح[٤]، أما الصلاة فهي ضوء الروح ونور الطريق[٥]، وأما الدعاء فهو «غذاء الروح، ويجب إعطاء هذا الغذاء للروح دون انقطاع»[٦].

ويربط كل فلاح ونجاح بإطلاق الروح وتحريره من نير الجسم، ولكن ليس على الطريقة المسيحية والبوذية والهندوسية، بل والتوازن الذي يقوم

---

(١) انظر: الموازين، ص٣٣ – ٣٥.
(٢) نفسه، ص٢٠٤.
(٣) نفسه، ص٢٠٩.
(٤) انظر: الموازين، ص٢٦٣.
(٥) نفسه، ص٢٦٧.
(٦) نفسه، ص٢٧٢.

على إشباع رغبات الجسم من الحلال وبدون إسراف، وبالتالي يكون التوازن حاضراً.

ويستشرف المستقبل الإسلامي المشرق من هذه الزاوية، إذا تعالى المسلمون «على النفس والجسمانية فأداموا حياهم حسب أفق القلب والروح...»(١).

وشرط ابتعاد المؤمن عن سطحية الارتباط بالجسم وبمطالبه، هو أن يكون: «ثاقب النظر، متفتح البصيرة، يقظ الروح والأحاسيس، مرتبطاً بالله بفكره وتدبره»(٢).

ومن البديهيات أن الجسم آتٍ من تراب الأرض، فيكون ذا منشأ دنيوي، بينما جاءت الروح من وراء عالم المادة، وسيكتب لها الخلود، فتكون ذات صلة بالآخرة، وهذا ينقلنا إلى العلاقة بين الدنيا والآخرة.

٢- الموازنة بين (مباني الدنيا) و(معاني الآخرة):

جعل الإسلام الدنيا بذرة والآخرة ثمرة، وجعل الدنيا مقدمة والآخرة نتيجة، وجعل الدنيا وسيلة والآخرة غاية، لكن بعض تيارات المسلمين أحدثت خللاً بين طرفي هذه العلاقة، فصارت الدنيا والآخرة عندهم ضرتين، ومن ثم ظهر من انحاز إلى الدنيا مخرباً لآخرته، وظهر كرد فعل عليه من تشيَّع للآخرة ضارباً عرض الحائط بالدنيا!

---

(١) ونحن نبني حضارتنا، ص١٠٩.
(٢) ترانيم روح، ص٢٢ (بتصرف).

لكن العلماء العظام والمفكرين الكبار امتلكوا دوماً القدرة على الموازنة بين الـــدارين، وعلى رأس هـــؤلاء فتـــح الله جولن الذي امتلك ميزانـــاً دقيقاً يشـــطر الشعرة إلى أربعين شطراً ويزن كل شطر بمفرده، فأنى لميزانـــه أن يختلّ؟!

وما دمنا انتهينا في الفقرة السابقة إلى الحديث عن الروح، فإن جـــولن يرى -بهذا الصدد — أن السعادة في الآخرة تتم في الدنيا من خلال الروح، وذلك في مواسم الشعائر ومحطات التزود وأفراح الروح[1]. وذهـــب إلى أن أداء جميع الشُعب الإيمانية، سواء كانت دنيوية أو أخروية، إنما يتم بالتوازن بين الروح والجسم[2].

واعتقد جازماً أن القرآنيين الذين يتدبرون القرآن تُكمـــل المـــادة في فكرهم وفي حياتهم ما وراء المادة «ويكون المعنى هو المحتوى الحقيقي للمادة وقيمتها، ويظهر كل شيء بقيمته المتخفية وراء الأستار»[3].

وحثّ في مواضع كثيرة[4] على الاهتمام بالدنيا، على أن تظل وسيلة لا غاية، بأن تبقى في اليد ولا تتسلل إلى القلب، إضافة إلى بقية الـــضوابط

---

(١) انظر: ترانيم روح، ص١٦٧.
(٢) انظر: الموازين، ص٣٤.
(٣) ترانيم، ص١٣٦.
(٤) انظر مثلاً: أضواء قرآنيـــة، ص٢٧٥، ٣٠١ – ٣٠٣؛ أسـئلة العـصر المحيـرة، ص٢٣٦-٢٣٧.

التي أوجدها الشرع واستنبطها العلماء في هذا السياق. وهو ينطلق هذا التنظيم من قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ (القصص:٧٧).

ومما قاله بهذا الصدد: «نحن لا نستطيع ترك الدنيا لأننا لا نحصل على الآخرة إلا بوساطة الدنيا»[١]، ولهذا حث على الجمع بين سلطة الدنيا وسلطنة الآخرة[٢].

وحذر دوماً من الإفراط أو التفريط، فـ«المؤمن إنسان متوازن، لذا يجب أن يحافظ على نفسه من الضربات المهلكة للإفراط أو للتفريط في هذا الموضوع، والمعيار الواجب اتباعه هنا هو إعطاء أهمية للدنيا بنسبة البقاء فيها، وإعطاء أهمية للآخرة بنسبة البقاء فيها أيضاً...»[٣].

وفي سياق التأصيل لهذا الجمع المتوازن، أكد جولن على أن رسالة النبي ﷺ إنما كانت جسراً لسعادة الدنيا والآخرة[٤]، وأن الصيام - كشعيرة تعبدية - إنما هو تخليص للإنسان من أدران الدنيا وإعداد له للولوج إلى سلطنة الآخرة[٥]، أما المسجد فهو «يؤسس لنا جسوراً بين الدنيا والآخرة،

---

(١) أسئلة العصر المحيرة، ص٢٣٥.

(٢) انظر: ترانيم، ص١٣٧ .

(٣) أسئلة العصر المحيرة، ص٢٣٢.

(٤) انظر: ترانيم، ص١٠٠.

(٥) انظر: نفس المصدر، ص١٣٧.

ويربط بين هذين العالمين، ويفتح أمامنا منافذ من هنا إلى هناك، ويثير فينـا خيالات مبهمة»[1]. وإذا كانت المساجد تربط بين السماوات والأرض، كما ذهب في موضع آخر، فإن الأمر لم يخرج عن النتيجة السابقة، لأن الأرض مخزن (الدنيا)، والسماء مثوى ورمز (الآخرة).

«وأخيراً، يؤكد جولن على تصوره للحياة الإنسانية في إطار الإسلام، الذي يطرح رؤية حياتية تجمع بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. ولا تكتسب الحياة الدنيا كمالها ومعناها وأصالتها إلا عندما نعيش فيها ونحن نؤمن بوجود الرب – أو الله – باعتباره المصدر والأساس للحقيقة»[2].

ويمكن القول في نهاية هذه الفقرة: إن العبادات ذات البعد الأخروي البحت عبادات (لازمة) للإنسان نحو ربه، أما العبادات ذات البعد الدنيوي فهي عبادات (متعدية)، وهذا ما ينقلنا إلى استعراض ثنائية حقوق الله وحقوق الإنسان، وضرورة الموازنة بينهما.

٣- الموازنة بين طاعة الحق وخدمة الخلق:

يتضح بجلاء لقارئ كتب جولن أنه – بذات الميزان الحساس – شديد الموازنة بين حقوق الله – وهي العبادات المحضة التي بين العبد وربه – وبين حقوق الإنسان التي هي المعاملات والأخلاق.

---

(١) انظر: ترلنيم، ص١١١.
(٢) د. جيل كارول، ص٧١.

ففي تحليله للتبليغ الواجب أظهر أن من سماته الجمع بين الحق والخلق، مع حثه على ضرورة العمل للإصلاح وإيصال الخدمة والنفع إلى الخلق[1].

ولفت الأنظار إلى أن «توقير الإنسان واحترامه من موجبات الإنسانية ومن ضروراتها، وحب الإنسان من شروط القرب من الله تعالى ومن الخلق. والذين يستهينون بالناس بتصرفاتهم أو بأقوالهم يُفشون في الحقيقة مستواهم الخلقي. كما يفشي الذين يحقدون على الإنسان ويكرهونه ويعادونه نوعية ضميرهم ووجدانهم»[2].

وحتى في نظرته إلى ما يُفترض أنها حقوق خاصة بالله فإنه لا يفتأ يذكّر بدورها في تنمية حقوق الإنسان، كالصلاة فهي رحلة إلى السماء، لكن ثمارها تعود على الأرض[3]، والمساجد التي تقام فيها الصلوات، هي أماكن لتدارس دين الله الذي ينظم حياة المؤمنين، وتُمارس فيه الشورى لأجل هذا الغرض[4].

وفي حديثه عن الحزن وتعداده لأنواعه، أورد حزناً آخر و«هو أن إحدى قدمي المحزون في عالم الناسوت والأخرى في عالم اللاهوت، فيسعى

(١) انظر: طرق الإرشاد، ص٤٥-٥١.
(٢) ترانيم، ص١٥٥.
(٣) انظر: نفسه، ص١٧٢.
(٤) انظر: موازين، ص٢٦٥.

بقلب يقدر كلاً من العالمين حق القدر فيوفي حق الموازنة بينهما معاً مراعيـــاً التمكين»[1].

ولما كانت «حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الإنسان مبنية على المشاحة» - كما في القواعد الفقهية - فقد أورد جولن عدداً من الـــصور التي تثبت تقديم حقوق الإنسان على حق الله في بعض المواضع، مثل:

- خدمة الخلق أفضل من نوافل العبادة، ولذلك دعا تلاميذه في مطلع العقد الأخير من القـــرن الفائـــت، والـــذين كـــانوا يكـــررون الحـــج والعمرة،للذهاب إلى جمهوريات آسيا الوسطى للاعتمار هناك، بإغاثة أخوة الدين والدم[2].

- العالِم أفضل من العابد، مراعاةً لهذا البعد أو انطلاقاً منه[3].

- تقديم العلم والتعلم على التعبد بالنوافل[4].

- ومن ذلك إيراده لتقديم النبي ﷺ حقوق الطفل عندما يبكي علـــى تطويل الصلاة[5].

---

(١) التلال الزمردية، ص٧٣.

(٢) وهي الجمهوريات الإسلامية الست التي خرجت من تحت أنقاض الاتحاد السوفياتي الذي سقط في ١٩٩٠م، وهي: تركمانستان، طاجيكـــستان، أوزبكـــستان، أذربيجـــان، قرقيزستان، كازاخستان. وتنتمي معظم شعوب هذه البلدان إلى القومية التركية.

(٣) انظر: طرق الإرشاد، ص٩٢.

(٤) انظر: النور الخالد، ص٢٦٦.

(٥) انظر: النور الخالد، ص٢٥٤.

- وذهب إلى أن لَجْم فوران وهيجان النفوس وضبطها ومنعها من الولوج إلى الآثام، قد يؤدي بصاحبه في لحظة واحدة للحصول على الفيوضات التي لا يحصل عليها شخص قضى سنوات من عمره في تكية أو شخص يصلي كل يوم مئات الركعات[1].

- ولدور الشهداء في خدمة الخلق بجهادهم وموتهم، فإن الله يؤمِّنهم من عذاب القبر؛ «لأن هذا العذاب يخص الأموات. نعم، إن عذاب القبر لأموات الروح وأناسي الجسد الذين لم يصبغوا حياتهم بالدين»، ولهذا فإن رباط ليلة واحدة في سبيل الله يوازي صيام ألف يوم وقيام ألف ليلة من حيث الثواب[2].

وهكذا، فإن ما يرتبط بحقوق الحق عبادةٌ لازمةٌ، وما يرتبط بحقوق الناس عبادةٌ متعدية، وأجر العبادة المتعدية أكبر وأوفر وأبقى، ولهذا ركز عليها جولن في موازناته.

٤- الموازنة بين (العمل بالأسباب) و(الأمل بالله):

المؤمن الذي يجمع بين عيشه في الدنيا بجسمه، وتحليقه في الآخرة بروحه، يجمع بين العمل بالأسباب لأنها وسيلة اقتحام لعالم الدنيا، والإيمان بالله والأمل بتوفيقه وهدايته وإعانته، لأن ذلك هو السبيل لولوج عالم

---

(١) نفسه، ص٢١٦.

(٢) روح الجهاد، ص٦٦.

الآخـــرة، حيث التبـــرؤ من الأســـباب، والتعلق بمالك الأسباب القـــادر على كل شيء.

هذه هي خلاصة الموقف الإسلامي الوسطي من هذه القضية الحساسة، وقد وازن جولن بين الجبرية والقدرية، ففعَّل الأســـباب إلى أبعـــد حـــد، واستكمل الإيمان بالله والتفويض إليه والتبرؤ من كل حول وطول[1]، فمـــن يراه مُلحّاً على استكمال الأسباب بدون أي نقص مهما كان صغيراً يظن أنه معتـــزلي، ومن يراه لاجئاً إليه تعالى بإلحاح طالباً الغوث والعون والمدد كأنه لم يفعل شيئاً يظن أنه صوفي، بالمفهوم التقليدي للتصوف!

وفي هـــذا السيـــاق لفت الأنظـــار إلى المعجـــــزات والكرامـــات، وهي أمور خارقة للعـــادة، وتجري خارج عالم السنن والنواميس، وكيـــف أنها لا تتنـــزل من قبل صاحب (كن) إلا بعد أن يـــتم اســـتيفاء الإيمـــان واستكمال الأسباب[2].

وهكذا، نجح جولن في ارتياد شُعب التغـــيير موازنـــاً بـــين الدنيويـــة والأخروية. ولكن كيف تدور عجلة التغيير؟ وهل تنطلق من الداخل أم من الخارج؟.. هذا ما سنستعرضه في موازنة الثنائية السابعة.

---

(١) انظر مثلاً: ونحن نقيم صرح الروح، ص٢٤؛ أضواء، ص١٧٧.
(٢) انظر مثلاً: أضواء، ص١٢٨-١٢٩.

سابعاً: الموازنة في تحريك (عجلة العروج) بين الذات والخارج:

ما تزال نقطة الانطلاق في التغيير مشكلة عند كثيرين، وما زالت العلاقة بين الفرد والمجتمع معضلة، وأهم من ذلك كله ما تزال العقول تصطرع بحثاً عن حل لمشكلة الحسّ الفردي الذي يشيع بين المسلمين، غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث عند جولن، فقد وازن بتلقائيته وموازينه بين هذه الثنائيات، وحلّ هذه المعضلة من خلال الخطوات الآتية:

١- بناء الذات الإيجابية المؤتلفة:

عمد جولن إلى بناء الذات الإيجابية التي تأتلف مع المجتمع، وتمد جسور المودة إلى جميع الخلق، بعيداً عن الحسّ الفردي الأناني، وذلك من خلال الارتقاء بمفردات الإيجابية في ذات الفرد، وتخفيف منابع السلبية فيها، والتحذير الدائم من الوقوع في دوامة الأنانية[١]. كذلك من خلال حثّه على التبسُّط والتواضع[٢]، وزرع مشاعر الإحساس بالمسؤولية عند الآخرين كجزء من قضية العبودية لله، ومعركة استعمار الأرض[٣].

ووفّر الوسائل المادية والمعنوية لعملية الاستزراع هذه، ومن ذلك الفن، حيث ذهب إلى أنه «من أهم الطرق المؤدية إلى سمو الروح والمشاعر..»[٤].

---

(١) انظر: الموازين، ص٥١-٥٣.

(٢) انظر: نفس المصدر، ص٥٤-٥٦.

(٣) انظر: الموازين، ص١٩٤-١٩٧.

(٤) نفسه، ص٢٠٠.

واجتهد في أن يجعل من الإنسان ميزاناً يزن به كل شيء، وذلك بالإعلاء من قيمة الإنسانية في النفس، بحيث يحب الفرد للآخرين ما يحبه لذاته، ويكره لهم ما يكرهه لذاته[1].

وخاطب الفرد بالمنطق الذي يقول: «إنْ أكرمتَ نفسك وأعززتها أكرمك الآخرون كذلك وأعزوك»[2]، وأوضح لهذا الفرد بجلاء أن خيريته تقاس بمدى حب الآخرين له[3].

وظل العلم هو الحاضر الأبرز في هذا الميدان والحاضن الأكبر لقيم الإيجابية والمسؤولية وبناء الذات المؤتلفة، من خلال تشذيبه لزوائد الفردية السلبية، وتحليته للفرد بمتطلبات الائتلاف.

وقد لفت جولن الأنظار إلى الجانب العملي - كما أسلفنا - في العلم، وإلى الجانب الأخلاقي فيه، فالعلم الحقيقي لابد أن يورث صاحبه التواضع[4]، ولهذا دعا إلى الاستزادة من العلم دائماً عبر القراءة المستمرة[5].

وبعد هذا كله، عمل على الإعلاء من شأن النقد الذاتي كقيمة فردية واجتماعية، وقد سبق أن أوردنا بعض أفكاره في هذا المضمار[6].

---

(١) نفسه، ص٥٧-٥٨.
(٢) نفسه، ص٦٢.
(٣) نفسه، ص٥٨.
(٤) طرق الإرشاد، ص٩٠.
(٥) الموازين، ص٢٢٤.
(٦) للاستزادة انظر: أسئلة العصر، ص٢٥٣؛ أضواء، ص٢٦٠، ٣٣٧؛ الموازين، ص٢٥٠.

إن كل هذا الشحن والبناء للذات الإيجابية المؤتلفة يصبح حجر الأساس في إيجاد الحس الجمعي الفاعل.

٢- إيجاد الحسّ الجمعي الفاعل:

توجد اليوم في مختلف بلدان العالم الإسلامي طاقات كثيرة، يمكن أن تُغير الموازنات الدولية إلى حد كبير، غير أنها بلا فاعلية، لأنها طاقات فردية، ولذلك تستهلك مواهبها وقدراتها في التآكل والصراعات الجانبية، أو تعاني من إحباط وخذلان، وتعيش مرحلة السكون والانتظار.

ولهذا تصدى عدد من المفكرين والحركيين والدعاة لمهمة إيجاد الحسّ الجمعي من زوايا وأبعاد مختلفة، ويأتي في طليعتهم فتح الله جولن، الذي أبدى حرصاً كبيراً على ائتلاف الأمة، ودخل على هذه القضية من أبواب متفرقة، واستخدم في سبيلها وسائل وآليات كثيرة[1].

ويبدو أن حكمته النظرية وخبرته العملية قد أوصلتاه إلى القناعة بأن الحس الجمعي ثمرة القلوب الاجتماعية لا الأنانية[2]، ولذلك ركز على حرث القلوب وتخليصها من شوائب الأنانية، وعلى حرث العقول لتخليصها من حشائش الفردية، وتحلية القلب والعقل بكل مشاعر وأفكار الائتلاف.

---

(١) خصصتُ فصلاً كاملاً تحت عنوان: (فقه الائتلاف عند فتح الله جولن) في كتابي (عبقرية فتح الله جولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة)، وهو تحت الطباعة.

(٢) انظر: الموازين، ص٨١-٨٢.

ومن القيم التي غرسها في القلوب والعقول - حتى تساعد على الوصول إلى الحس الجمعي - قيمة التضحية. ومما قاله بهذا الشأن: «قيمة كل شخص وشهامته تكون حسب درجة علوِّه، أما الشخص الذي لا يفكر إلا بنفسه فهو إما ليس بإنسان، أو هو مخلوق ناقص. والطريق المؤدي إلى الإنسانية يمر عبر تفكير الإنسان بالآخرين واستعداده إن اقتضى الأمر لإهمال نفسه في سبيل الآخرين»[1]؛ وقال عن نفسه وتلاميذه فيما يبدو: «ونرغب دائماً إلى إشغال مكان بين الذين يتلقون الحرائق بصدورهم، ويولون للمنافع الذاتية أدبارهم»[2].

وبمهارة فائقة استطاع أن يجعل من كثير من المفاهيم التي يُفترض أنها محايدة، مفاهيم تساهم في صياغة الحس الجمعي وإيقاظ الشعور الوحدوي. ومن ذلك مفهوم الذاتية الذي يلح عليه في كثير من كتاباته، لكنه يبعده عن الفردية ويجعله أقرب إلى المجتمع، من مثل قوله: «لكننا نحن نفهم من تعبير (الذات) معنى أوسع وأشمل وأعمق، فهي ظاهرة أجرت فاعليتها في كل شرائح المجتمع، وتغذت من ذاكرة الأمة وشعورها ووجدانها على مر الزمان إلى أن وصلت إلى عصرنا هذا..» [3].

---

(١) انظر: الموازين، ص٢٤٣.

(٢) ونحن نقيم صرح الروح، ص٩٧.

(٣) ونحن نبني حضارتنا، ص٢١.

ومن المبادئ التي تساهم بفاعلية في صناعة الحس الجمعي الاعتقاد باستحالة امتلاك الحقيقة المطلقة من قبل أي فرد أو مجموعة، فطبيعة الإنسان القاصرة تحول دون رؤية الحقيقة من جميع جوانبها[1]، وحذر من أن ادعاء امتلاك الحقيقة إنما هو تعبير عن عبادة الوسيلة وإشارة إلى غياب الهدف[2].

ولكي يكمل الفرد القصور القائم في تكوينه الفطري، فإنه لابد أن يحاور الآخرين، ويثاقفهم، ويستفيد من زاوية نظر كل واحد حتى تتلاقح الرؤى وتكتمل الحقيقة، وذلك عبر قيمة عظيمة من قيم الإسلام الحضارية على مستوى الفرد والمجتمع، وهي الشورى التي أشاد بها، وبيَّن ثمارها، وحث على الاقتراب منها، والاقتران بها، وعدم الانفكاك عنها[3]، وبيَّن كيف أنها السبيل إلى تحقيق الفاعلية الفردية والجماعية[4].

وبجانب ذلك كله، فإن الأخلاق تلعب دوراً كبيراً في تحرير الإنسان من فرديته، وجعله شخصية مؤتلفة مع الآخرين، ولاسيما أخلاق المسامحة

---

(١) انظر: أضواء، ص١٣١.

(٢) الموازين، ص٢٩.

(٣) يمكن العودة مثلاً إلى: ونحن نقيم صرح الروح، ٥١ – ٦٤؛ الموازين، ص٢٢، ٢٣، ١٦٦، ٢٤٠.

(٤) ونحن نقيم صرح الروح، ص٥٢.

والرحمة والهوادة واللين، ولهذا أكثر جولن من إبراز أهميتـــها، والـــدعوة إلى التحلي بها[1].

ومن المـــؤكد أن الحسّ الجمعي الذي يجعل المجتمع كأنه جسم واحد، لا يمكن أن يتأتى بدون تجسير العلاقة بين الفرد والمجتمع.

٣- تجسير المسافة بين الفرد والمجتمع:

هذه النقطة متممة للنقطة الأولى، لأن التوازن لابد أن يُحفظ بينـــهما، إذ تحت شعارات الوحدة والاعتصام والمصالح الجماعية تم اجتثاث الفرد، وتم قولبة الأفراد في كثير من المجتمعات، ليصبح المجتمع قطيعاً يُقاد فينقاد، وهذا ألغى الكفايات والمواهب الفردية، وضحى بالحرية على صـــليب الوحـــدة، فكانت الثمرة استبداداً وقهراً، والنتيجة هي المزيد مـــن الغثائيـــة والـــوهن والتراجع الحضاري.

ويمـــكن أن يحـــدث هذا التجســـير - باختصار شديد - من خلال ما يأتي:

أ- ترتيب التغيير المراد إحداثه مهما كان، من الفرد إلى المجتمع ولـــيس العكس، إذ يجب المواءمة بين حرية الفرد ووحـــدة المجتمـــع[2]، وفي قيمـــة كالوحدة يجب البدء بالفرد، بحيث ننقل الوحدة إلى الفرد، ولا ننقل الفـــرد

(١) راجع على سبيل المثال: طرق الإرشاد، ص١٥٩؛ الموازين، ص ٢١، ١١٠؛ ونحن نقيم صرح الروح، ص٩٩، ١٢٨.
(٢) انظر: طرق الإرشاد، ص٥١-٦٢، ٨٣.

إلى الوحدة، فالعملية الأولى ذاتية والأخرى خارجية، الأولى تحافظ على الحرية والتنوع والأخرى تقضي على الفروق الفردية، وتصل في الغالب إلى صناعة الفراعنة والطغاة، مهما كانت نياتهم وبداياتهم طيبة!

ب- الميل إلى الحزم والصرامة والقسوة مع الذات، في مقابل إعذار الآخرين واللين معهم، واستدعاء ملكة التسامح إزاءهم[1].

ج- استدعاء واستشعار روح الأخوة، فالآخر إما أن يكون شريكاً في المجتمع أو الوطن أو الدين أو الإنسانية، ومن هنا يدعو جولن إلى استحضار روح الأخوة، حيث يقول: «لكونك مؤمناً، عليك أن تنظر إلى الدنيا كمهد للأخوة، وابحث في تأسيس علاقة مع كل كائن»[2]. بمعنى أن الآخر أخوك في الوطن أو في القومية أو في الدين أو في الإنسانية. وهؤلاء جميعاً يجب إبراز القواسم المشتركة معهم، والاتحاد حولها، والتعاون معهم فيها[3].

د- الاجتهاد في تمحور الأفكار والأفعال حول الأمة، بحيث يعمل الفرد على جلب المنافع لأمته ودفع المضار عنها، ويكون شاعراً بأنه عضو في العائلة، وهذا سيوفر جسراً آخر للربط بين الفرد والمجتمع[4].

---

(١) انظر: ترانيم، ص١٢٨؛ الموازين، ص٢٤٣؛ أضواء، ص٣٠٧؛ أسئلة، ص٣١٠.
(٢) الموازين، ص٩٣.
(٣) انظر: نفسه، ص٧٩-٩٤.
(٤) انظر: نفسه، ص٩٥-٩٦.

ولهذا قال عن تياره: «طريقنا هو طريق تأييد كل من يقدم خدمة للأمة ويسعى لخيرها ومساندته ومساعدته»[1]، وترجم هذا الأمر إلى منتديات حوار ساهمت بقوة منذ نحو عقدين في صناعة الحس الجمعي، الذي تشهده تركيا في هذه الآونة.

وبسبب الاهتمام البالغ بالخدمة، ومع عدم ممارسة «أبناء الخدمة» للعمل السياسي كحزب، إلا أن جولن حث على الاهتمام بالشأن السياسي ذي الصلة بخدمة الوطن والأمة[2].

٤- تدوير عجلة التغيير من (الذات) إلى (العالمية):

قيم الإيجابية في هذه الأمة مثل الشجرة التي تنمو من داخلها، ويستحيل أن يتم النمو من الخارج، مهما كانت الإمكانات والإغراءات.

ولهذا رسم جولن - كما أسلفنا - مثالاً للتغيير، يتجاوز تركيا إلى العالم الإسلامي ثم العالم كله، بل ويطمع في الخروج من كوكب الأرض، بحثاً عن كائن قد يكون بحاجة إلى هداية ورحمة الإسلام.

لكنه يبدأ التغيير دوماً من الذات، فالذي نجح في تغيير نفسه يمكنه أن يغير كل شيء، والذي عجز عن تغيير ذاته يستحيل عليه أن يغير أي شيء.

---

(١) نفسه، ص١٤٢.

(٢) الموازين، ص١٧٣.

ولقد أطلق صيحته الهادرة: «على الذين يحاولون أن يصلحوا العالم إصلاح أنفسهم أولاً»[1]، والبداية هي إصلاح الفكر لأنه سلاح خطير وثماره قد تكون إما شجرة طوبى في الجنة أو شجرة الزقوم في جهنم[2].

هذا في الجانب النظري، أما في الجانب العملي فإن على الفرد أن يعمل بما يقول، وأن يطبق ما يدعو إليه، وأن يكون قدوة حسنة ونموذجاً طيباً حتى يلفت أنظار الناس ويصدقون ما يدعو إليه[3].

وعلى المستوى العالمي حمَّل جولن المسلمين مسؤولية إيصال رحمة الإسلام إلى الناس جميعاً، ومسؤولية إقامة (التوازن الدولي) الذي يمنع التظالم والتحارب. ولا يكتفي بالدعوة بل يبشر بأن هذا (التوازن الدولي) المنشود صار وشيكاً[4].

غير أنه لا ينظر إلى عالم الغرب وبقية العوالم غير المسلمة على أنها دار حرب أو دار كفر، وإنما يرى أنها دار خدمة، ولهذا امتدت أيادي «أبناء الخدمة» إلى كثير من بقاع العالم، وعلى سبيل المثال امتدت مدارس الخدمة إلى مائة وستين دولة في العالم (عام ٢٠١١م)، مع العلم أن الدول الإسلامية حوالي ستين دولة، أي أن قرابة مائة دولة هي في

---

(١) نفسه، ص١٣٨.
(٢) نفسه، ص٢١٠.
(٣) انظر: طرق الإرشاد، ص١٢٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٩، ١٦٩.
(٤) انظر: النور الخالد، ص٣١٩.

الأصل غير إسلامية، وهذا لا يعني عدم وجود أقليات أو جاليات إسلامية فيها بالطبع.

وفي هذا السياق، فإنه يطالب بإبلاغ رسالة الإسلام في كل الدوائر ضمن أنظمة وقوانين كل دائرة، ودون الانجرار إلى الممارسات غير المشروعة، وعلى رأسها ممارسة العنف والفوضى، فلا مجال للإرهاب والفوضى حيث يكون المسلم[1].

وفي إطار الأهداف التي يجب أن نسعى إلى تحقيقها، يحث على دمج الذاتية مع العالمية، بحيث نحافظ على خطنا الخاص، ونحافظ في ذات الوقت على التكامل مع سائر الكائنات[2]، وبمثل هذه المعادلة، وبالتشبع بروح الحب والمسؤولية يتم في حس الذات البنّاءة الموازنة الدقيقة بين الوطن والأمة والإنسانية[3].

وما دام أن جولن ينهل من الفكر الإسلامي، الذي يعُدُّ العدل العالمي إحدى خصائصه الأصيلة، فإن المجتمع الإسلامي أولى بالعدل، والضعفاء من أبناء المسلمين أحوج إلى إنصافهم من الأقوياء، حتى تنسجم مدخلات ومخرجات التغيير. وهذا ما سنعالجه في موازنة الثنائية الأخيرة من هذا البحث.

---

(١) طرق الإرشاد، ص١٧٦.

(٢) ونحن نقيم صرح الروح، ص٦٦.

(٣) راجع: المصدر نفسه، ص١٠٦-١٠٧.

ثامناً: الموازنة في توزيع (ضرائب العروج وثمـــاره) بين الأقوياء والضعفاء:

لا يمكن أن يحدث أي تغيير بدون مدخلات كثيرة وضـــرائب وأثمـــان باهظة، ولكي ينجح هذا التغيير لابد من تعاون وانسجام ثنائيـــة الأقويـــاء والضعفاء على المستويات المحلية والوطنية والعالمية، ومن الطبيعي أن التغـــيير عند نجاحه وحتى يحافظ على هذا النجاح لابد أن يستفيد من ثماره الأقويـــاء والضعفاء معاً.

وفي كل الأحوال يجب تجسير الهوة القائمة بين الطرفين بفعل البعد عن الإسلام، ولما كان جولن ممثلاً أميناً وحكيماً للفكر الإسلامي وبفعل الفراغ الذي تركه غياب الكيان الدولي الإسلامي، فقد اجتهد بعض أعلام الفكـــر الإسلامي في ملء الفراغ والقيام بهذا الدور على المستوى الفكري والدعوي، وزاد عليهم جولن قيامه ببعض المحاولات العملية، عن طريق بعض المؤسسات الوطنية والعالمية التي أوجدها «أبناء الخدمة» لمثل هذا العمل.

وسنحاول إجلاء هذا الأمر بقليل من الشرح، من خلال العناوين الآتية:

١- «الخدمةُ» استجابةٌ للحق في نفع الخلق:

من خلال ما مر معنا يستطيع القارئ بسهولة أن يـــدرك أن «تيـــار الخدمـــة» الذي أوجده جولن إنما جاء استجابة لأوامـــر الله وتوجيهـــات رسوله ﷺ من أجل نفع الناس عموماً.

ومن الطبيعي أن يكون الضعيف أحوج إلى الخدمة من القوي، فالفقير أولى بالمعونة من الغني، والسقيم أولى بالمساندة من السليم، والجاهل أولى بالتعليم من المتعلم، والعاصي أولى بالموعظة من المطيع، والمنحرف أولى بالهداية من المستقيم. وهذا ما فعله جولن ودعا إليه، وسلك كل سبيل شرعي ممكن من أجل تحقيقه.

وتطبيقاً لمبدأ دور الأفكار المركزي في إحداث التغيير، سواء كان هذا التغيير كبيراً أو صغيراً، عالمياً أو محلياً، فقد أبرز الفكرة الإسلامية المشرقة عن الإنسانية والعدل والمساواة والرحمة والخدمة.

وقد بدأ بالقرآن الكريم، فذكر أنه: «الكتاب الوحيد الذي أمر بالعدالة الحقيقية وبالحرية الحقيقية، وبالمساواة المتوازنة، وبالخير والشرف والفضيلة والشفقة..»، وأنه «الكتاب الوحيد الذي صان اليتيم والفقير والمظلوم وأجلس السلطان والعبد، والقائد والجندي، والمدعي والمدعى عليه على طاولة واحدة أمام المحكمة»[1].

وانتقل إلى السنة النبوية، فذكر أن «الرسول ﷺ هو الذي بلّغ الإنسانية جمعاء نظرة الدين في أن الحفاظ على العرض والشرف، وعلى الوطن والأمة وحراستها والكفاح في سبيلها جهاد، وأن الجهاد أسمى ذروة في سلم أداء وظيفة العبودية لله تعالى. وهو أول من أعلن للإنسانية عن الحرية الحقيقية، وأن الجميع متساوون أمام القانون وأمام العدالة، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وأن دعوة الظالمين إلى اتباع الحق عبادة»[2].

---

(١) الموازين، ص١٨٦.
(٢) نفسه، ص١٦١.

وكشف الغطاء عن القيمة الثمينة للعدل في مواضع كثيرة من كتبه، حتى أنه سجل في أحدها أن: «الخرائب التي يسودها العدل أفضل من القصور، والقصور التي يسودها الظلم أسوأ من الخرائب»[1].

كل هذا من أجل أن يصبح العدل قيمة ذاتية تجري في دماء الأفراد، لأنه لا يوجد مجتمع عادل بدون أفراد عادلين، ومتشبعين بأفكار ومشاعر العدل على مستوى العقل والقلب.

وانتقل إلى تلاميذه الذين اصطفاهم من بين ملايين الأتراك الذين استمعوا إلى خطبه ومواعظه ودروسه ومحاضراته، والذين قرأوا كتبه ومقالاته، ليجعل منهم أهلاً لخدمة المحتاجين، والاحتياج نسبي هنا، ولا فرق عنده بين الاحتياج المادي والاحتياج المعنوي إن لم يكن المعنوي أخطر وأولى من المادي. ولهذا جعل دستور رجل الدعوة يتمحور جميعه حول الخدمة[2]، وطالبه باستحضار نية الخدمة دائماً وأبداً[3].

ومن خلال عنوان هذا التيار: (الخدمة) اتضحت وجهته، حيث انتصب كجسر لإحداث التوازن بين الأثرياء والمحتاجين. والأثرياء هنا هم الأغنياء مالاً أو علماً أو سلطةً أو جاهاً أو طاعة والتزاماً، وعكسهم هم المفتقرون لهذه الأمور، فيكونون محتاجين لما يُكَملهم.

---

(١) نفسه، ص٢٤٦.
(٢) نفسه، ص١٣٦.
(٣) نفسه، ص١٣١.

٢- تحلية الأقوياء بــ(الحق) وتسليح الضعفاء بــ(القوة):

يحدث ظلم الأقــوياء للضعفــاء بسبب الانفصام القيمي، وبالــذات ما يرتبط بانفصال القوة عن الحق، حيث يتسلح الكبراء بالقوة ويتخلوا عن الحق، فيحدث الطغيان والاستكبار، ويتمسك الضعفاء بالحق وتخرج من بين أيديهم القوة، فينحرف كثيرون إما إلى الاستخذاء والصَغار أو إلى الإحباط والعزلة والحقد على المجتمع.

وحتى يتم رتْق هذا الخلل فإن الإسلام قد سلّح كل طرف بما ينقــصه، فسلّح الضعفاء بالقوة، وحلّى الأقوياء بالحق، حــتى لا يــصل هــؤلاء إلى الاستبداد ولا يصل أولئك إلى الاستخذاء، فتتقطع أواصر المجتمع وتــضعف روابطه، وتتسلل من خلال ثغرات جُدُره الكثير من الجرائيم والمؤامرات.

وهذا ما يبدو أن جولن فعله بالضبط، فقد سلّح الأقوياء بالحق المتمثل بالعلم والعرفان، ثم بالقيم والأخلاق الكريمة.

ومن الأخلاق التي سلّحهم بها - كما فعل مع الأغنياء مثلاً - خلــق التضحية بالمال والجهد والطاقة والعمر[١]، حيث رغّب كل قادر بما عند الله، وزيَّن لهم الإنفاق حتى أحبوه، وقد سمعنا قصصاً عن تــضحيات الأغنيــاء والمربين والمعلمين وغيرهم مما قد يعده البعض من بنات الخيال!

وفي اهتمامه بالأخلاق كان خلقا الشفقة والرحمة في المقدمة دوماً، ومن الأقوال الرائعة التي زيَّن بها هذين الخلقين قوله: «وفي الحقيقة ليس أمام الشفقة

---

(١) انظر مثلاً: طرق الإرشاد، ص ١٦٣-١٦٤؛ موازين، ص١١١.

والرحمة باب مسدود لا يمكن فتحه. فجبال الثلج التي لا تذوب بالشفقة والرحمة لا يذوبها شيء قطعاً. إذا كنتم تريدون ربط الناس بعضهم ببعض بمحبة دافئة، عليكم أن تطووهم تحت جناح الشفقة والرحمة أولاً..»[1].

وباستثارة مكامن الشفقة في قلوب الأغنياء على حال الضعفاء نجح جولن في استمالة آلاف من التجار ورجال الأعمال إلى صفوف الدعوة، فكانوا فتحاً عظيماً لهذه الخدمة.

وصار لهؤلاء التجار جمعية خاصة بهم اسمها (توسكون) لها حضور مشهود في تركيا، وتلعب دوراً يتعاظم عاماً بعد عام خارج تركيا.

وبسبب هذه الجسور بين الطرفين كأفراد داخل تركيا، تُرجم الأمر إلى تضامن بين المناطق، حيث قامت سائر مناطق تركيا بدعم ورفد مناطق جنوب شرقي تركيا التي كان الفقر والجهل مخيمين فيها، حتى أن كل مدرسة في تركيا تدعم مدرسة في هذه المنطقة، بجانب الرفد الذي تقوم به الجمعية الخيرية التابعة للخدمة. وفي بلدان العالم الفقيرة، يكون لكل مدرسة فيها علاقة مع مدرسة غنية من مدارس الخدمة حتى ترفد صندوق ميزانيتها بالدعم الممكن.

وأوجب الإسلام - كصورة من صور التكامل - على الآباء رعاية وتربية أطفالهم، والعناية بحقوقهم، وخدمة ضرورياتهم وتلبية حاجاتهم، لأنهم في حالة ضعف[2]، وعندما يكبر الآباء ويشبّ الأبناء أوجب عليهم

(١) طرق الإرشاد، ص١٥٩.

(٢) انظر: الموازين، ص٦٥، ٦٦، ١٠٦، ١٠٧.

رد الجميل، وكان جولن - بدوره - يحثّ مريديه على رد الجميل ورعاية حقوق الوالدين[1].

وفي جانب التأصيل لتسليح الضعفاء بالقوة، تحدّث عن نصرة النبي ﷺ للضعفاء، ونقل عن كتاب (الزبور) المقدس وصفه للرسول محمد ﷺ بأنه «ينحني أمامه جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم، لأنه ينقذ المسكين المستغيث البائس الذي لا معونة له.. ويعطف على الفقير والمحتاج، ويخلص نفوس المساكين إذ يفتدي نفوسهم من الظلم والعنف، ويحفظ حياتهم..»[2].

وتحدث عن استخدام النبي ﷺ للقوة لإسناد الحق، لكنه حذر الأفراد من عمل ذلك الآن، لأن هذا من واجبات الدولة[3].

وفي ذات السياق أبرز ثقافة الحقوق والحريات، ومسؤولية الحكومة عن ذلك، فالجمهورية في تعريفه ما هي إلا أداة لتجسيد الحرية والعدالة[4]، والحكومة أيضاً لا تعني سوى «..العدالة والاستقرار والأمن. فإن لم تكن هذه الأمور متوفرة في مكان ما فمن الصعب الحديث عن وجود حكومة هناك»[5]، وظل يطالب بدولة قوية عادلة، تطبق القوانين على الناس جميعاً،

(١) نفس المصدر، ص٦٣-٦٤.

(٢) النور الخالد، ص٤١.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص٤٠٣.

(٤) الموازين، ص١٦٢.

(٥) نفسه، ص١٦٥.

رغم أنه ليس سياسياً فضلاً عن أن يكون زعيماً سياسياً[1]، لكنه الانحياز إلى المستضعفين والفقراء والمظلومين.

ولم يوفر أي أسلوب أو طريق يؤدي إلى تسليح الضعفاء بالقوة، ولكنها القوة الناعمة، ولم يترك أي سبيل للجهاد في سبيل حفظ حقوق الضعفاء وتقويتهم إلا وسار فيه، ولكنه الجهاد المدني الأبيض، أما القتال فهو يقف ضد استخدامه تحت أي مبرر وفي أي ظرف، ويرى أن المسلم ليس إرهابياً، والإرهابي لا يمكن أن يكون مسلماً.

٣- الجهاد هو جسر العبور بالضعفاء إلى الحق والقوة:

وحتى لا يتحول الجهاد إلى لافتة تُرتكب تحتها أعمال إرهابية، فقد ألف كتابه المعروف: (روح الجهاد وحقيقته في الإسلام)، فبيّن أهدافه ومقاصده، ووضح ضوابطه وأخلاقه، وفعل مثل ذلك في استعراضه وتحليله لسيرة النبي محمد ﷺ في كتابه (النور الخالد).

وتوصَّل بيقين كامل إلى أن وظيفة الجهاد الأساسية كما في المصدر الإلهي للإسلام: (القرآن والسنة) وتطبيقات الصحابة العظام لا تخرج عن نصرة المستضعفين المظلومين[2].

ولأن كفّ المظالم الداخلية من وظيفة الدولة التي تطبق تعاليم هذا الدين، ولأن الجهاد الذي ينقذ المستضعفين في شتى بقاع العالم، مهما كانت

---

(١) انظر: المصدر ذاته، ص١٦٥-١٧٣.

(٢) انظر: روح الجهاد، ص٩٤؛ النور الخالد، ص٣٩٣.

أديانهم وأعراقهم وطوائفهم، من الظلم والقهر والحرمان، هو من وظائف الدولة الإسلامية أيضاً، فقد أكد على ضرورة عودة المسلمين لإقامة دولتهم التي تحقق (التوازن الدولي) الذي يمنع كل هذه المظالم التي يرتكبها الأقوياء بحق الضعفاء(1).

وفي ضوء قراءته لقصة الملك الصالح (ذو القرنين) والتي وردت في سورة الكهف، ذهب إلى أن قيام هذا الملك بجولاته في الأرض وقصصه الثلاث إنما كانت من أجل تحقيق (التوازن الدولي)(2).

وهكذا، فإن أفكار جولن في هذه الثنائية خصوصاً تتضح بجلاء من خلال تجسُّدها في تركيبة وأنشطة وفاعليات تيار (الخدمة)، بل من خلال الاسم والعنوان: (الخدمة)، وماذا يعني هذا الاسم إن لم يكن جسراً يربط بين الأقوياء والضعفاء؟!

أما في المسمى، فقد تجسرت العلاقة بين الطرفين، عندما مدّ الأغنياء أيديهم إلى الفقراء، ومدّ العارفون علومهم إلى الجاهلين، ومدّ النابهون خبراتهم إلى الغافلين، ومدّ المطيعون بصائرهم إلى العاصين، ومدّ المهتدون قناديلهم إلى الضالين، ومدّ القادرون قوّتهم إلى العاجزين. وصار هؤلاء جميعاً أبطالاً للشفقة، وفدائيين في مضمار المحبة، ومسارعين في ميدان التضحية.

---

(1) انظر: النور الخالد، ص٣٩٤.
(2) انظر: أضواء، ص٢٣٣، ٢٣٥.

المبحث الرابع

النهوض الحضاري عند ابن نبي وجولن

مقاربات ومقارنات

المطلب الأول: الرؤى المتشابهة إلى حد التطابق:

هناك أوجه شبه كثيرة بين فكري مالك بن نبي وفتح الله جولن، ويكاد أن يصل الشبه إلى حد التطابق. ومن أهم الرؤى المشتركة في هذا المجال:

أولاً: مركزية الإنسان في النهوض الحضاري:

اتفق المفكران على المركزية التي يحتلها الإنسان في عملية النهوض الحضاري، فهو هدف هذا النهوض ووسيلته، ولذلك فإنهما لا يقيسان حضارة أي مجتمع بما يمتلك من أعراض الحياة وثرواتها وطاقاتها، ولكن بمستوى الإنسان: فكراً، ومبادئاً، وأخلاقاً، وعملاً، وعطاءً.

ويسمي بن نبي إنسان الحضارة الصاعدة بـ(إنسان الواجب)، أما جولن فيطلق عليه أسماء كثيرة، أهمها: إنسان التضحية، بطل الخدمة، فدائي المحبة، الجيل المثالي، وارثي الأرض.

ثانياً: التوازن بين عوامل (الغيب) وعوامل (الشهادة):

الحضارة الكاملة تقوم على أساس التزاوج المتوازن بين العوامل الغيبية والعوامل المادية، بين هداية السماء وطاقات الأرض، بين الوحي الرباني (النقل) والفكر البشري (العقل)، بين الإيمان والعمل، أو بين التوكل على الله والأخذ بالأسباب والسنن، مثل النموذج الذي أورده القرآن في سورة (الكهف) وهو الملك الصالح ذو القرنين.

هذه الرؤية هي قاسم مشترك بين الرجلين، حيث اتفقا على أهمية الإيمان والعمل في الإقلاع الحضاري. ويطلق مالك على الإيمان ما يسميه بـ(التوتر الداخلي)، بينما يطلق عليه جولن (الإيمان)، وأحياناً (الطاقة الروحية).

أما بالنسبة للنقل والعقل فيطلق عليها مالك الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة.

ولابد عند بن نبي لهذا التوتر الداخلي الدافع لبناء الحضارة من مسوِّغات، حيث اضمحلت المسوِّغات عند المسلمين في العصر الحديث، ولذلك دعا للبحث عن هذه المسوِّغات[1].

وأسمى المسوغات هي ما عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، «شريطة أن نفهم هذا

---

(١) انظر كتابه: تأملات، ط٥ (دمشق: دار الفكر، ١٤١٢هـ/١٩٩١م) ص٣٣-٤٨.

المسوِّغ السامي السماوي بمعناه التاريخي الذي أنار آفاق الإنسانية بنور الحضارة الإسلامية..» [1].

وإذن، فإن أكبر وأقوى مسوِّغ لهذا التوتر الداخلي هو القرآن الكريم عند مالك بن نبي وكذا عند جولن، وقد استثمره الرسول ﷺ أفضل استثمار، حيث قال جولن: «كان القرآن بالنسبة إليه - أي الرسول ﷺ - كل شيء.. كالهواء والماء، سلاحاً ودرعاً.. حصناً وقلعة، وراية ترفرف فوق هذه القلعة.. كان يتنفس بالقرآن، ويعلو به كالسحاب إلى الأعالي.. يسرع به لنجدة الملهوف المحتاج مثلما تسارع قطرات الرحمة لري عطش المخلوقات وظمئها.. ينافح به الظلام ويلوذ به من شرور الأشرار.. يصول به ويجول، ويكون نوراً ينتشر في الآفاق»[2].

ولهذا اهتما بتدبر القرآن، لأنه البُراق الرابط بين السماء والأرض، والجسر الرابط بين النقل الرباني والعقل الإنساني، بين كمال الوحي المطلق وعجز الفكر البشري النسبي.

ثالثاً: التفريق الواضح بين الدين والتدين:

إنها سلسلة من حلقات مرتبطة بعضها ببعض، فلعنايتهما بتدبر القرآن، واهتمامهما البالغ بالتفقه في الدين والوعي بالواقع، فقد وصلا إلى امتلاك خارطة الثوابت والمتغيرات، بما فيها من تفريق حاسم بين ما هو دين

(١) نفس المصدر، ص٤٨.
(٢) فتح الله جولن، النور الخالد، ص١٨٣.

رباني ينبغي (الثبات) عليه، وما هو تدين بشري نسبي، ينبغي تطويره دوماً لكي يتلاءم مع (متغيرات) الزمان والمكان والناس.

ويتفق الرجلان في تقديرهما للتراث والتاريخ الإسلاميين، لكنهما لا يرفعانهما فوق التدين الكسبي البشري، الذي يحمل استعدادات الصواب والخطأ، وإمكانات النفع والضر، ومن ثم فإن المسلمين يأخذون منهما ما يحقق مصالحهم في هذا الزمن، ويتركون ما عدا ذلك.

ويدخل في ذلك الفكر والفقه، الفلسفة والتصوف، وسائر الاجتهادات والنتاجات التي تركها المسلمون في كل العصور.

رابعاً: ذاتية النهوض الحضاري:

أكد المفكران على أن النهوض الحضاري المنشود في هذا العصر لا يمكن أن يكون إلا ذاتياً، بمعنى أنه لا يمكن أن يخرج من مشكاة التراث، ولا يمكن أن ينبجس من منظومة الحضارة الغربية، وهذا يعني ضرورة جمع العروج الذاتي بين الأصالة الخالية من شوائب التراث، وبين المعاصرة البعيدة عن التغريب.

وقد ذكر ابن نبي في هذا السياق أن الشعوب الإسلامية استيقظت فجأة على خطر الاستعمار، وبقدر ما تمثل في هذا الأمر دافع الحياة، كان دافعاً من دوافع الخطأ. وضرب المثل بشخص كان نائماً في غرفة بالدور الخامس، فاستيقظ فجأة ليجد النار في غرفته، ودون أي تفكير ألقى بنفسه

من نافذة الغرفة «فنحن قد ألقينا بأنفسنا من حيث لا نريد في هُوّة التقليد حتى ننجو من الاستعمار»[1].

وحتى لا نقع في التقليد بشقيه التاريخي والتغريبي، فقد حث المفكران على التوازن الزمني بين الاستفادة من الماضي والاستغراق في الحاضر واستشراف المستقبل.

خامساً: العناية الفائقة بالفعالية:

والحقيقة أن الفعالية هي البنت الشرعية للذاتية، بعيداً عن الغربة الزمانية (التراث) والغربة المكانية والثقافية (التغريب)، ولهذا أكثرا من الاهتمام بالفعالية، بتوضيح أسباب الغثائية، وإبراز عوامل صناعة الفاعلية، فاستدلا بالنصوص المعصومة، واستشهدا بالتجارب السلفية في عصر أنوار الصحابة، وحللا تجارب الفاعلية في أوساط الشعوب التي ازدهرت وأثمرت.

وضرب بن نبي المثل ببريطانيا التي احتلت الهند في القرن التاسع عشر الميلادي رغم ضخامة الهند، وبهولندا الصغيرة التي احتلت دولة كبيرة مثل أندو نيسيا[2].

ومن عوامل ضعف الفاعلية تغلّب الشيئية على الفكرية، وهو الداء الذي حلّ بالهنود ومكّن الإنجليز من احتلال بلادهم، واستدل بمقولة ساخرة

---

(١) مالك بن نبي، تأملات، ص٢١٣.

(٢) انظر: مالك بن نبي، تأملات، ص١٣٢-١٣٣.

لجمال الدين الأفغاني: «لو أن جميع الهنود يصقون جميعاً لأغرقــوا الجــزر البريطانية في بحر من اللعاب»[1].

وضرب المثل للفرد الفاعل بالفرد الألماني الذي أعاد بناء ألمانيا عقــب سنة ١٩٤٥م، وكان الشعب الألماني محروماً من كل شيء، فتجسدت فعالية الفرد الألماني في ثقافته فقط، وهي التي أطلقت طاقته الحيوية[2].

سادساً: الجمع بين تشخيص (الداء) وتوصيف (الدواء):

تساوى مالك وجولن في قدرهما الفائقة على الغــوص في الأعمــاق وإدراك الدقائق والتفاصيل، مما جعل تشخيصهما دقيقاً. ولهذا حاربا بقوة في الجبهة الفكرية لإدراكهما أن الأمة أُتيت من هذه الجهة.

وكانا بنفس الدقة في توصيف الدواء الناجع لهذه الأمة، واستطاعا إيجاد الإكسير الذي يمكن أن يخلص الأمة من موهما الحضاري، والبلــسم الــذي يستطيع شفاء جراحات الأمة، وإعادتها إلى متن صناعة الحضارة.

سابعاً: الانطلاق من المحلية إلى العالمية:

حضرت تركيا بقوة في فكر وفعل جولن حتى سكَنَتْهُ، ومن المعلوم أن الرجل ترجم رؤيته النظرية إلى مشروع حضاري، وهو الآن ملــيء سمــع الأتراك وبصرهم، و لم يعد جولن بحاجة إلى توضيح أن مــشروعه العــالمي المزدهر الآن قد انطلق من وطنه الأمة (تركيا).

---

(١) مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ط١(دمشق، دار الفكر، ١٤١٢ - ١٩٩١)، ص٤٧.
(٢) نفسه، ص٧١.

أما مالك بن نبي فلم يتخلف في هذا المضمار، حيث ظلت القضية الوطنية محور كتاباته، مع أنه أحد كبار الفلاسفة المعاصرين الذين عالجوا (مشاكل الحضارة) عامة، وألّف سائر كتبه تحت هذا العنوان.

ووصل الأمر إلى استدعاء مصطلحات جزائرية وتوظيفها في معالجته لمشاكل الحضارة، حتى بدا لمن قرأه عن بعد متأثراً بالمركزية الأوربية، لكن محور مركزيته صارت هي الجزائر؛ لأنه كتب في الأصل للجزائريين.

ومن المصطلحات التي أوردها في هذا السياق على سبيل المثال:

- «البوليتيك» وهي كلمة أجنبية في الأصل، لكن الشعب الجزائري أطلقها على محترفي الدجل السياسي[1].

- الزَّردة: وتعني الوليمة والمصلحة[2].

- قرية بو مرداس: وهي قرية جزائرية، لكن بن نبي ظل يستخدمها كرمز للقروية والدوائر الضيقة[3].

- التّويزة: وهي كلمة شعبية تعني التضافر المشترك على أداء خدمة لمن يحتاجها، كواجب خيري محض، ودون مقابل[4].

---

(١) انظر مثلاً: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص٩٦.

(٢) نفسه، ص١١٥.

(٣) نفسه، ص١١٥.

(٤) نفسه، ص١٢٥.

وهناك مصطلحات أخرى، وأكثر شهرة، مثل: عصر ما بعد الموحِّدين، الذي أورده بن نبي عشرات المرات في كتاباته وهو العصر الذي غرقت فيه الأمة في ظلمات التخلف إلى يومنا هذا. وكذا مصطلح «النزعة المرابطية».

أما عن العالمية، فقد صار معلوماً أن «تيار الخدمة» صار بجدارة تياراً عالمياً، يقوده مؤسِّسُه جولن من الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة العالم، ويمتلك مؤسسات مختلفة في عشرات الدول في العالم، ويقيم مؤتمرات عالمية ضخمة لحوار الأديان والحضارات، ويتبنى مؤسسات ومنتديات عالمية عملاقة لمثل هذا الغرض.

ولو استمر الصعود بنفس هذه الوتيرة كماً وكيفاً، فإن «تيار الخدمة» سيقود – مع أشقائه – عالمية إسلامية تستطيع التصدي للعولمة الأمريكية.

وقد عُرف بن نبي بدوره العالمي، من خلال مقارعته للاستعمار الثقافي ونقده للحضارة الغربية، واهتمامه بقضايا التحرر في العالم الثالث، ودعوته للاستفادة من التحالفات الدولية في إيجاد غطاء لدول العالم الثالث، كمنظمة دول عدم الانحياز التي ألّف فيها أحد كتبه.

وكان كتابه (تأملات) قد افتتحه بالقول: «قدمنا في دراسة سابقة أن للمسلم مسؤوليات في هذا العالم، وأن حضوره في الأحداث الكبرى التي تطرأ فيه من الضرورات اللازمة لمسؤولياته»[1].

وفي محاضرة له تحت عنوان: «رسالتنا في العالم»[2] - ألقاها في دمشق في يوليو ١٩٥٩م - تكلم فيها عن الدور العالمي الذي ينبغي أن يضطلع به المسلمون في هذا العصر الذي صار العالم فيه أشبه بعمارة ضخمة، وكل شعب يحتل شقة فيها، ولابد من تبادل المنافع وتكامل الخبرات بين البشر.

ورغم تخلف المسلمين، فإنهم يمتلكون الجوانب الروحية التي يفتقر إليها الغرب، وينبغي أن يقدموها كضروريات كما يقدم الغرب الديمقراطية إلى العالم، وبهذا يمكنهم دخول المجتمع العالمي غير مقلدين، ويمكنهم سد حاجة من حاجات الإنسانية الكبرى، وفي نفس الوقت يحققون لأنفسهم مكاناً كريماً في العالم الجديد[3].

أما عن الحس الرسالي نحو الإنسانية عند جولن، فقد تجاوز فيه الجوانب التنظيرية إلى الجوانب العملية، حيث توجد مدارس الخدمة في أكثر من مائة وستين دولة في العالم، بما يعني أنها توجد في مائة دولة غير إسلامية!!

---

(١) تأملات، ص١٤ (المقدمة).

(٢) موجودة في نفس المصدر السابق، ص٢٠٣-٢١٧.

(٣) نفسه، ص٢١٧.

المطلب الثاني: الرؤى المتقاربة إلى حد التشابه:

تتقارب كثير من رؤى جولن ومالك بن نبي بصورة مثيرة، تنمُّ عن تشابه كبير، مع وجود بعض التفاصيل الدقيقة المختلفة.

ويمكن إيجاز أهم الرؤى المتقاربة بقوة في النقاط الآتية:

أولاً: (حصان الفكر) هو الذي يقود (عَرَبَةَ الحضارة):

لقد أسلفنا في إيضاح أن الإنسان يحتل مكانة مركزية في عملية النهوض الحضاري عند المفكرَين، بمعنى أنهما ينظران إلى الإنسان كمضغة للتغيير، ويسمي جولن إنسان الحضارة بـ«الإنسان الكامل» و«رجل الحقيقة».

وفي بناء هذا الإنسان لا ينسى مالك وجولن أنه مخلوق من التراب ويحتوي على نفخة الرحمن العلوية، ولذلك جمعا في فكرهما بين العقل والروح، غير أن الملاحظ أن مالك يركز كتاباته بصورة أكبر على العقل، بينما نجد جولن يوازن بميزان حساس بين الفكر والروح أو العقل والقلب.

ويبدو أن زيادة الجرعة العقلية عند مالك سببها البيئة التي انتمى إليها، حيث كانت عدد من الطرق الصوفية ترفع أصواتها في الجزائر، منادية بالعودة إلى الروح على حساب العقل.

بينما كانت تركيا ترزح تحت سيطرة العلمانية الكمالية المتطرفة التي ضيَّقت الخناق على الروح، بمبرر العقلانية والمعاصرة، فتصدى جولن لهذا التطرف، دون أن يسقط في التطرف المقابل، ولذلك وازن بين العقل والقلب، ويتضح هذا التوازن حتى من عناوين كتبه.

وفي سياق الإعلاء من شأن الفكر، وجعله في المقدمة، كالحصان الذي يقود العربة، حذّر المفكران من خروج الأفكار عن سكة المنهج؛ لأنها حينئذ ستتحول إلى طاقة مدمرة، وهي الظاهرة التي أطلق عليها مالك: «انتقام الأفكار»(1). وقد لفت جولن الأنظار إلى هذه الآفة في مواضع كثيرة من كتبه، دون أن يُلبسها لبوس هذا المصطلح، محذراً من أن اختلال كثير من الموازنات والمعادلات الفكرية يحيل الترياق إلى سُمّ زُعاف.

وبسبب التوازن الدقيق عند جولن بين العقل والقلب، فقد اهتم بنفس القدر من التوازن بالفاعلية والانفعال، حيث بدأ حياته الدعوية كواعظ أجاد إبكاء الناس واستثارة مشاعرهم وعواطفهم، ثم يطرق النفوس وهي ساخنة ليعيد تشكيلها بصورة فاعلة، بينما برز اهتمام مالك بالفعالية أكثر من الانفعالات.

ثانياً: التضافر الوثيق بين (الاستعمار) و(القابلية للاستعمار):

من يقرأ أدبيات الرجلين يجد تشابهاً كبيراً بينهما في التحذير من الاستعمار بكافة صوره الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، ووصل الأمر بمالك إلى حد يقترب من التفسير التآمري لبعض الأحداث، كما سيأتي في مقام آخر.

وأدرك الرجلان أن تسابق الدول الغربية على احتلال البلدان الإسلامية، سببه حمل هذه البلدان لبذور الضعف والتفرق وعجزها عن

---

(1) انظر فصل: «انتقام الأفكار المخذولة» في كتابه، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص١٥٣-١٦٠.

المقاومة، وامتلاكها لما يغري هؤلاء بالغزو والهيمنة. وأطلق مالك على هذه الظاهرة مصطلح «القابلية للاستعمار»، وهو المصطلح الذي تلقّاه أغلب المفكرين المعاصرين بالقبول، ومنهم فتح الله جولن الذي استخدمه في عدد من كتبه ومقالاته.

ثالثاً: الاستفادة من العلوم النافعة والتجارب الناجحة:

تشابَهَ الرجلان في التحذير من الاستعمار، لكنهما لم يدعوا أبداً إلى الانغلاق على الذات، بل كانا من دعاة الانفتاح وعدم التعميم في النظرة إلى الآخر.

ولهذا استفادا على المستوى الشخصي من سائر العلوم الحديثة، ولاسيما علوم الاجتماع والنفس والتاريخ والاقتصاد، وبرز مالك أكثر في الاستفادة العميقة من معطيات وأدوات علم الاجتماع في تحليل الكثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية، وفي توضيح الكثير من الأفكار.

ويبدو أن مردَّ ذلك إلى دراسته في فرنسا وإقامته بها فترة طويلة للعمل والكتابة الصحفية، وإتقانه المتفوق للغتها حتى أن كتبه التي ألّفها بالفرنسية أكثر من الكتب التي ألّفها بالعربية لغته الأم.

وسنصادف في كتابات الرجلين الكثير من الدعوات لاقتباس كل ما هو نافع في التجارب الغربية والشرقية، وقد أكثر كلاهما من استدعاء التجربتين الألمانية واليابانية في مضمار النهوض الحضاري، ولاسيما في مجالات: التخطيط، والعلم، والاقتباس مع المحافظة على الهوية الذاتية والاعتزاز بها. وقد زاد مالك مراراً باستدعاء التجربة الصينية.

ووصل الحال إلى الثناء على القيم الإيجابية في الغرب، بما فيها الأخلاق كخلق الأمانة في مقابل ممارسة الكثير من النقد للمسلمين[1].

رابعاً: المزاوجة بين الدنيا والآخرة:

أسَّسَ القرآن الكريم لمبدأ المزاوجة بين الدنيا والآخرة في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ (الشرح: ٧-٨). ومن تدابير الرحمن أن ترد هاتان الآيتان في سورة (الشرح)، فالآية الأولى تتحدث عن ملء الأوقات بالعمل الناصب لعمارة الدنيا، والآية الأخرى تؤسس لمبدأ الرغبة بما عند الله في الآخرة، كعلاج لداء الطمع الذي يدفع الإنسان للاستحواذ على حقوق الآخرين. بهذه المزاوجة يتحقق للإنسان (الانشراح) الدنيوي والسعادة الأخروية.

وقد اهتم المفكران بتقرير حقيقة التوازن بين الدنيا والآخرة، حتى أن جولن يرى أن إحدى الغايات التي أرسل من أجلها الأنبياء: «تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة»[2]. ولهذا أكثر كلاهما من الحديث عن الدنيا والآخرة بصورة متلازمة، بحيث يفهم القارئ أن الطريق لعمارة الآخرة هو عمارة الدنيا.

ومضى مالك في ذات السبيل في كليات كتاباته، غير أن من يخوض في التفاصيل قد يظن أن اهتماماته الدنيوية أكبر من الاهتمامات الأخروية، والأمر غير ذلك، إذ أنه يربط بين الدارين، ولكن يبدو أن نمط التدين

---

(١) انظر مثلاً: فتح الله جولن، النور الخالد، ص١٢٩.
(٢) النور الخالد، ص٦٣-٦٤.

الانسحابي الذي كان يسود في الجزائر، والذي يرى أصحابه أن عمارة الدنيا هو تخريب للآخرة، كان هو السبب في بروز الدعوات (المالكية) -نسبة إلى مالك بن نبي- لعمارة الدنيا أكثر من الآخرة.

وتتزاوج كثير من المفردات ذات الصلة بالدنيا والآخرة في كتابات الرجلين، مثل: الإيمان (آخرة) والعمل (دنيا)، التوكل (آخرة) والأخذ بالأسباب (دنيا)، وهكذا.

خامساً: الاهتمام بتكوين الحسّ الجمعي:

اهتم الرجلان اهتماماً فائقاً بقضية الفردية التي تُفشل كل محاولات التوحد والائتلاف بين المسلمين، وتؤدي إلى إشاعة روح التمزق والتشظي، ودعيا إلى إعادة صياغة الفرد، بحيث يتحول إلى شخص وهو الوحدة الاجتماعية، لأنه يحمل في تكوينه استعدادات التآلف والتعاون مع الآخرين، بحيث يتحول إلى خلية في جسم الأمة.

لقد عالج كل واحد منهما هذه القضية بطريقته الخاصة، وتميز مالك بالاستفادة من نظريات علم الاجتماع في تحويل الأفراد إلى أشخاص، ففي تعريفه للمجتمع يجعل الأفكار مسؤولة عن تحويل الأفراد إلى أشخاص، فالمجتمع عنده: «ليس عدداً من الأفراد، وإنما هو شيء خاص، هو بنيان وليس تكديساً من الأفراد، بنيان فيه أشياء مقدسة متفق عليها. فقبل أن تتجمع الأفراد تكون هناك فكرة عامة هي التي تُؤلّف بين أفراد المجتمع»[1].

---

(١) مالك، تأملات، ص١٥٧.

واهتم مالك بتحقيق التوازن بين الفرد والمجتمع في دراسته لكثير من الموضوعات ذات الصلة بهما، ومن ذلك تحليله لموقف الإسلام من الديمقراطية، فقد اعتبر أن الإسلام «جمعٌ موفقٌ بين مزايا الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية»(١). ومن خلال تحليله العميق للعلاقة بين الديمقراطية والإسلام، يتضح تأكيده على أن الإسلام يجمع بين محاسن الفردية التي تقوم عليها الليبرالية، ومحاسن الجمعية التي تقوم عليها الاشتراكية(٢).

وبتحقيق هذا التوازن الذي يسعى إليه، تستعيد الأمة فاعليتها، ويسمي مالك ذلك التوازن بـ«المعادلة الاجتماعية»(٣).

وعالج مالك قضية العلاقة بين الأفكار والأفراد، وما يسبب انسحاب الأفكار من تقدم للأفراد، مما يؤدي إلى تضخُّم الأشخاص ويعمق ظاهرة التمزق والتشرذم داخل المجتمع الإسلامي.

وحذّر من عواقب الشخصانية على كافة الصعد - كما ذكرنا في المبحث الثاني -، وقد أبرز هذه العواقب والآثار المدمرة حتى في تحليله للأحداث السياسية التي مرت بها الجزائر في فترات متعددة.

---

(١) مالك، تأملات، ص٨٨.
(٢) نفس المصدر، ص٨٠-٩٢.
(٣) نفسه، ص١٣٨.

أما فتح الله جولن فقد عالج كل هذه القضايا، ولكن من زاوية الثقافة الإسلامية بشكل خالص، بشقيها الروحي والمادي. وبقراءة تراثه في هـذا المجال يكتشف القارئ أنه يمتلك ما يمكن وصفه بـ«فقه الائتلاف»[1].

ويتميز باستثمار الجوانب الروحانية في تحقيق الائتلاف وتكوين الحس الجمعي، مثل قوله: «لو اجتمع ثلاثة أنفار معاً بإخلاص قلب وصفاء نية لخدمة الدين فلابد أن روحانية رسول الله ﷺ ستكون معهم وتباركهم»[2].

الجدير بالذكر في هذا المقام أنهما عالجا ظاهرة الاستبداد من زاوية الفردية، سواء بالنسبة للحاكم الذي تضخم كفرد أو المجتمع - المفترض - الذي أوجد بتفككه قابلية للحاكم لكي يستبد، لكنهما لم يتوسعا في معالجة هذه الظاهرة وبالذات من الجوانب السياسية.

سادساً: التشابك بين المعاني والمباني:

راعى المفكران هذا الأمر، ففي عنايتهما بالإنسان اهتما بالمبنى (الجسم) والمعنى (العقل والروح). وفي دراستهما للقرآن اهتما بدراسة تدبر مبناه (الإعجاز البياني) ومعناه (الإعجاز التشريعي).

واهتما بقضايا النهوض الحضاري، بما فيها القضايا المتصلة بالمظهر والشكل، الآداب والفنون، وكذا العادات والتقاليد المرتبطة بالأكل والشرب والثياب والعمارة واللغة.

---

(١) انظر فصل: فقه الائتلاف عند فتح الله جولن في كتابنا، عبقرية فتح الله جولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، ط١(اسطنبول؛ القاهرة: دار النيل، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).

(٢) النور الخالد، ص١٠٠.

غير أن ابن نبي اهتم بالجمال بقوة - كما أسلفنا - حتى جعله قيمة أساسية، لأنه- كما يرى - منبع الأفكار، والأفكار هي التي تصنع الأفعال.

وفي مجال العناية بتدبر القرآن تماثل الرجلان، لكن جولن زاد بانتقاده للمفسرين الذين أوردوا بعض الخرافيات الإسرائيلية التي شوَّهت جمال القرآن الكريم(١).

سابعاً: العناية بسائر قيم النهوض:

تشابَهَ الرجلان في عنايتهما بقيم النهوض الحضاري،كقيمة التخطيط، وإن كان جولن أكثر تفوقاً في هذه القيمة، حيث انتقل من التنظير إلى التطبيق، فقد دفع تلاميذه لممارسة هذه القيمة في مشروعاتهم الخدمية الكثيرة حتى صارت إحدى مقومات نجاحها.

ويعد مالك وجولن من أكثر المفكرين المسلمين عناية بقيم المحاسبة والنقد الذاتي، ولأن مالك هو السابق فقد كان أشبه بمن يؤصِّل لهذا الموضوع في كثير من كتاباته، وإعطاء هذه القيمة صبغتها الإسلامية، حتى نجده - على سبيل المثال - يقول: «وهكذا كان (عمر) العظيم الذي نعرف مدى حساسيته الأخلاقية المتوفِّزة، أول من فتح طريق النقد الذاتي»(٢).

وهكذا فعلا في قيمة الموضوعية وإنصاف الآخر وسائر القيم التي تقوم بها الحضارات وتزدان.

---

(١) انظر مثلاً: المصدر السابق، ص٥٥٢.

(٢) مالك، القضايا الكبرى، ص١١٣.

المطلب الثالث: الرؤى المتنوعة إلى حد التمايز:

مع التشابه والتماثل بين مالك وجولن في كثير من الأفكار والرؤى والمواقف، إلا أن طبيعة الفكر المتعددة، واختلاف ظروف الزمان والمكان، أدت إلى وجود عدد من الرؤى المختلفة بينهما، لكنه اختلاف التنوع والثراء، وأهم الموضوعات والقضايا التي تباينت فيها الرؤى:

أولاً: العلاقة بين الأفكار والأفعال:

مع أن الرجلين حاولا تجسير الهُوَّة القائمة في حياة المسلمين بين أفكارهم وأفعالهم، بين شعاراتهم وسلوكياتهم، إلا أن الفرق بينهما كبير.

فقد لاحظ بن نبي الانفصام القائم بين العنصر الروحي في تكوين المسلم والعنصر الاجتماعي في حياته، حتى أنه شبَّه هذا الانفصام بالدش الاسكتلندي – كما أسلفنا – إلا أن معالجاته لهذه المعضلة لم تتجاوز الفكر، سواء في التشخيص أو في المعالجة، ولذلك ظل مفكراً خالصاً.

أما جولن فقد عالج هذا الانفصام بنفس القدر من الاهتمام الفكري، وأضاف إلى ذلك إعادة تشكيل الطاقة الروحية بحيث تؤتي أكلها في دفع قطار المسلم للعبور نحو التجسيد العملي لإيمانه في سائر شُعب الحياة.

وأهم من هذا وذاك أنه انتقل إلى الجانب العملي لردم هذه الفجوة، من خلال المشاريع العملية التي تجسد قيم الإسلام في سائر مناحي الحياة، حتى صار «تيار الخدمة» أكثر التيارات الإسلامية المعاصرة تجسيداً لقيم الإسلام

مع أنه أقل هذه التيارات حديثاً عن الإسلام. وهذا ما لاحظه المفكرون والباحثون الذين اقتربوا من الخدمة.

ومن تدابير القدر أن يركز على رصد هذه الظاهرة مفكر جزائري -ينتمي إلى بلد بن نبي-[1]، حيث أبرزها من خلال واقع جولن و«تيار الخدمة»، وسجلها في كتاب خاص بدأ عنْوانَه بمصطلح يدمج بين الرؤى والتطبيقات: «البرَادَيْم كولن». وفي مقدمته لهذا الكتاب أوضح المقصود بهذا المصطلح، فذكر بأنه «يرمز إلى الصيغة المركبة بين «فكر الأستاذ» و«مشاريع الأستاذ»، بين «النموذج النظري» و«تطبيق النموذج فعلياً»[2].

ولهذا لم يبق جولن رهين دائرة التفكير، بل خرج إلى دوائر الدعوة والتربية والإصلاح، وأصبح له تلاميذه ومشاريعه ومؤسساته التي انتظمت تحت راية تيار عملاق يسمى «تيار الخدمة».

ثانياً: مجال تركيز طاقة الإصلاح:

ترتب على اقتصار بن نبي على الفكر بقاء علاقته مع الناس في دائرة الصفوة، فكتاباته لا يعرفها ولا يفهمها إلا المثقفون، أما عامة الناس فلم يصل صوته إليهم ولا يعرفون عنه شيئاً.

أما جولن فقد أحسن تربية الصفوة التي تأثرت بكتاباته حتى صنع منها جسوراً للعبور إلى عامة الناس. وساعده على ذلك أنه بدأ دعوته كواعظ في

---

(١) هو د. محمد باباعمي في كتابه: البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة على ضوء نموذج الرشد، ط١(اسطنبول: دار النيل، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م).
(٢) المرجع نفسه، ص٣.

المساجد أجاد استفزاز العقول واستثارة القلوب، وأتاحت له مواهبه وإخلاصه الإيماني إشاعة هالة من النور والتأثير، إضافة إلى تركيزه على الأثرياء وعنايته بهم، وهم الذين سيتولون بناء مؤسسات الخدمة التربوية والاجتماعية والإعلامية والاقتصادية.

هذه المؤسسات صارت أبواباً واسعة لولوج الخدمة إلى الناس، وعبور الجماهير إلى الخدمة، مما زاد من اهتمام جولن بالقضايا التي تهم الناس، بما فيها القضايا والاهتمامات الصغيرة، مع قدرة فائقة على ترتيب الأولويات.

ورغم كثافة القضايا التي أثارت اهتمام جولن إلا أنه ظل متحكماً بها من خلال منهج التوازن الذي امتاز به، حتى في مسائل دقيقة مثل التوازن في الأكل[1]، والتوازن البيئي، حيث وصف الرسول ﷺ بأنه رجل توازن، ولذلك لم يأمر بقتل الكلاب[2]، وحثّ على المحافظة على التوازن البيئي، واستنكر قتل الحشرات بالمبيدات باسم العلم[3].

وهكذا تركزت الطاقة الإصلاحية عند مالك على الصفوة أو الملأ، بينما تعدى جولن هؤلاء إلى الجمهور والقاعدة، مستعيناً بالتربية والتعبئة، التربية للصفوة والتعبئة للعامة.

ولهذا – مرة أخرى – عُرف بجانب كونه مفكراً كواعظ وداعية ومربي، وأهَّله ذلك كله ليكون مجدداً ومصلحاً اجتماعياً، ساهم بقوة في تلوين وجه تركيا المعاصرة وصياغة مستقبلها المأمول.

---

(١) انظر: النور الخالد، ص١١٩.
(٢) نفسه، ص١١٦.
(٣) نفسه، ص٢٥٧.

ثالثاً: العلاقة مع بعض مكوِّنات الآخر:

كان بن نبي حسن الظن باليساريين، وأبدى إعجابه بتجارب اليسار في الاتحاد السوفييتي والصين وكوبا، وأكثر من ضرب الأمثال بتجاربها في بعض الميادين.

ووصل الإعجاب أحياناً إلى الاشتراكية نفسها، حيث رأى أنها حل لمشاكل الجزائر وبالذات مشكلة اللافعالية، ومشكلة الفردية[1]. وبالتأكيد أنه يقصد ما سماها بعضهم بالاشتراكية الإسلامية التي تجمع بين قيم الإسلام العامة في العدالة الاجتماعية وبين بعض التنظيمات والأفكار الاشتراكية الحديثة، أي أنها اشتراكية منفصلة عن المادية وملتحمة بالعروبة والإسلام[2].

وكانت في الخمسينيات قد ظهرت منظمة دُول عدم الانحياز، وتضم - نظرياً - الدول التي لا تنتمي إلى المعسكر الشرقي الشيوعي ولا إلى المعسكر الغربي الرأسمالي، وقد أعجب بهذه المنظمة وكتب فيها بعض مقالاته وأحد كتبه، وأشاد بزعمائها الكبار: عبد الناصر وتيتو وسوكارنو ونهرو، الذين اجتمعوا في قمة باندونج في إندونيسيا، وأعلنوا الحياد الإيجابي لكنهم في الواقع كانوا أقرب بكثير إلى معسكر اليسار!!

---

(١) انظر كتابه: القضايا الكبرى، ص١١٩-١٢١.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص١٢١ - ١٢٤.

وقد قاده الإعجاب بهذه المنظمة ودولها إلى كتابة تحليلات واستشرافات أثبتت الأيام عدم دقتها، ومن ذلك قوله: «.. إن فكرة باندونج دخلت التاريخ وهي حية ترزق بل تلد أفكاراً مثل التي عبر عنها مؤتمر عدم الانحياز..»[1]. وقد ثبت أن هذه المنظمة لم تكن سوى ظاهرة صوتية، وأنها وُلدت ميتة؛ لأن زعامات الدول التي تبنتها كانت مستبدة بامتياز، باستثناء الرئيس الهندي نهرو، ولذلك ماتت في مهدها في أحسن الأحوال، حيث سقطت تلك الأنظمة بعد أن تركت بلدانها قاعاً صفصفاً، بتأثير عواصف الاستبداد وأعاصير الطغيان.

أما جولن فقد كان كثير التوجس من اليساريين عامة، شديد النقد للشيوعية خاصة[2].

ومن المؤكد أن ظروف كل واحد منهما هي التي دفعت به إلى هذا الموقف، فقد كانت الجزائر محتلة من قبل دولة غربية رأسمالية - فرنسا - بينما كانت المساعدات للثوار تأتي من دول المنظومة اليسارية ومنها مصر عبد الناصر المتحالفة مع السوفييت، فكان مالك أشبه بالغريق الذي يتعلق بقشَّة، ولاسيما أنه واجه من الإدارة الاستعمارية الكثير من صور العنت على المستوى الشخصي، وكأنه وجد الأمان فقط في مصر التي انتقل إليها

(١) تأملات، ص٩٨.

(٢) انظر مثلاً: النور الخالد، ص١٠٢.

بعد معاناته في فرنسا والجزائر، ولذلك طبعت وزارة الإعلام المصرية سنة١٩٥٦م كتابه «الفكرة الإفريقية الآسيوية».

وفي المقابل كانت تركيا تعاني الأمرَّين من الشيوعية، فقد كان الشيوعيون الأتراك وراء الكثير من الاغتيالات والفوضى التي شاعت في تركيا منتصف القرن المنصرم، وكانت شعوب كاملة تنتمي إلى القومية التركية في وسط آسيا ترزح تحت الاحتلال السوفييتي، مما جعل جولن شديد الكُرْه للشيوعيين داخل وخارج تركيا.

والعجيب أن إعجاب بن نبي بالاشتراكية رافقه توجس كبير من الليبرالية الغربية وخاصة من شقها السياسي إلى حد اقترب من التفسير التآمري لكثير من الأحداث، ولو كتب بتوسع في السياسة فلربما كانت ظهرت أمثلة ومواقف كثيرة تُبرز هذه النزعة أكثر في تفكير بن نبي!

ومن يقرأ أدبيات هذا المفكر العظيم سيلاحظ كيف بدأت شكوكه بالغربيين في فترة مبكرة من حياته، وذلك في مدينة تبسة، عندما أصابه رجل أوربي بركلة في قدمه[1].

هذا في الجزائر، أما في فرنسا التي سافر إليها للدراسة، فكانت أول صدمة تعرض لها هي رفض مدير معهد الدراسات الشرقية قبوله للدراسة في المعهد، لأسباب غير موضوعية، بل لأسباب سياسية[2]، ثم ملاحظته لشيوع

---

(١) انظر كتابه: مذكرات شاهد للقرن، ص٢١٢.
(٢) نفسه، ص٢١٦.

الصورة النمطية عن العربي والمسلم في فرنسا، ورؤيته لعدد من الإساءات البشعة للإسلام ولنبيه محمد ﷺ(1).

ولما كان معروفاً بمناهضته الشديدة للاستعمار وهو مازال طالباً، فإنه اعتقد أنه تعرض بسبب ذلك لعاصفة هوجاء اجتاحت مصيره ومصير أسرته(2).

ومهما تكن المشاكل التي تعرض لها بن نبي على المستوى الشخصي: مؤامرة أو غير مؤامرة، فإنها قد أثّرت على تفكيره، وجعلته يحلل عدداً من القضايا والمواقف من زاوية تقترب من المؤامرة، مثل:

- وقوفه مع الهند ضد باكستان الإسلامية في الحرب التي اندلعت سنة ١٩٤٩م بين البلدين، حيث اعتبر انفصال باكستان باسم الإسلام مؤامرة غربية ضد الهند حتى لا تستطيع القيام بدور فاعل في تحقيق التوازن الدولي المطلوب(3).

- موقفه المتوجس من الاستشراق بصورة عامة، فمن تحليله لهذه الظاهرة يبدو الحس التآمري واضحاً للعيان، فمع إقراره بوجود مستشرقين أنصفوا الإسلام وأثنوا عليه ثناء عاطراً، إلا أنه نظر إلى إنتاج المستشرقين بشقيهم المنصف والمتحامل على أنه كان شراً على المجتمع الإسلامي(4).

---

(١) نفسه، ص٢١٤، ٢٣٠.

(٢) انظر: نفس المصدر، ص٢٤١-٢٤٢.

(٣) انظر: الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص٩٨-١٠٣.

(٤) انظر تفسيره لهذا الأمر: القضايا الكبرى، ص٨١.

وبسبب تأثيرات هذا التوجس الذي يقترب من نظرية المؤامرة، ما فتئ يربط بين قصص صغيرة قد يراها البعض طبيعية في الحياة اليومية، وبين قصة الاستعمار الدولي والصهيونية العالمية[1].

وبالجملة، فإن حساسية ابن نبي القوية وبعض المشاكل التي تعرض لها، وما كانت ترزح تحته الجزائر من احتلال فرنسي بشع استعان بكـــل أدوات القتل والمكر والتمزيق من أجل إلحاق الجزائر بفرنسا، كل ذلك جعل نظرته إلى الغرب تتميز بشدة التوجس إلى حـــد يقترب من نظرية المؤامرة. وهذا ما لم يحدث لجولن، فقد بقي متوازناً، ولذلك فتح آفاقاً واسعة للحوار مـــع الغرب، ووصل إلى حد زيارة البابا في الفاتيكان، والدخول معه في حـــوار حول العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي.

رابعاً: الموقف من التصوف:

اتسم ابن نبي برؤية سلبية نحو التصوف، ففي تحليله العميق لكثير مـــن أبعاد التخلف في حياة المسلمين صادف دوراً سلبياً للحركـــات والطـــرق والأفكار الصوفية، مثل أبعاد: الفردية وتضخم الشخصانية، ضعف السببية، وَهَن الفعالية، ضعف قيمة النقد الذاتي، فقدان الدوافع لعمارة الأرض.

وعلى سبيل المثال فإنه في قراءته للتاريخ الإسلامي وجـــد أن المجتمـــع الإسلامي واجه أزمة فقدان المسوِّغات الضرورية لصناعة الحضارة من زمن مبكر، ولاحظ دوراً للحركة الصوفية في هذا الأمر، فهي كما قال: «تمثـــل

---

(١) انظر مثلاً: مذكرات شاهد للقرن، ص٣٠٧.

إلى حدٍ ما الدوافع السلبية، التي تدفع إلى انتحار الفرد الذي فقد مسوِّغات حياته، فالصوفي يخرج أيضاً عن النظام الطبيعي للحياة، ويتخلص من مسؤولياتها عن طريق الأوراد والسبحة، كما يتخلص المنتحر العادي من مسؤولياته بوسيلة الخنجر، فالصوفي ينتحر بوسائل الروح»[١].

أما جولن فإن القارئ لكتاباته يجد ثناء عاطراً على الصوفية وكثيراً ما يستدعي بعض رموزها، ويستدل ببعض أقوالهم ولاسيما جلال الدين الرومي الذي أكثر الاغتراف منه، والثناء عليه، والاستدلال بمواقفه ومقولاته.

ومن تعريفات جولن للتصوف[٢] يمكن الاستنتاج أنه يتكلم عما يجب أن يكون في التصوف، بينما يتكلم مالك عما هو كائن، حيث كانت بعض الطرق تنشر البدع في الجزائر، بل ونجح الاستعمار الفرنسي في تطويع بعض مشايخها لفكره ومواقفه وحاجاته، سواء كانوا واعين أو غير واعين.

ويمكن القول: إن التصوف العملي كأسٌ، نصفُه مملوءٌ بالالتزام الصارم بتعاليم الشريعة، والنصف الآخر خال من هذا الالتزام، ومن ثم يكون مالك قد نظر إلى النصف الفارغ من الكأس، بينما نظر جولن إلى النصف الممتلئ.

ولا شك أن الظروف لها دخل كبير في هذا التباين، ففي حالة مالك كانت الجزائر تنتفض ضد الاحتلال لتحقيق الاستقلال والنهوض الحضاري، وكانت الأفكار الصوفية السلبية تشدُّها إلى الأسفل، فتصدى لها. أما في

(١) تأملات، ص٤٤.

(٢) انظر مثلاً: الموازين، ص١٥٨-١٥٩.

تركيا فإن الروح كانت تتعرض لعواصف هوجاء تريد إطفاء وهجها بل وطمس كل جميل في التاريخ الإسلامي، فركز جولن على استنقاذ هذا الوهج، وإبراز الصورة الوضيئة في التأريخ الإسلامي.

واتسمت شخصية جولن إلى جانب ذلك بحسن الظن بالآخرين والبحث عن أعذار لهم إن أخطأوا، مع التركيز دائما على الإيجابيات، ولذلك نصادفه يثني حتى على بعض رموز التصوف الذين تعرضوا للهجوم من أكثر التيارات الإسلامية، كابن عربي(١) والحسين بن منصور الحلاج(٢). ولقد أثنى على أدعية وأذكار الصوفية(٣) وأجاد توظيف بعض مقولاتهم لصالح النهوض الحضاري المنشود(٤).

خامساً: الموقف من مشكلة المرأة:

ناقش ابن نبي مشكلة المرأة باستفاضة، لكنه لم يناقشها كمشكلة منفصلة عن مشكلة الرجل بل كجزء من مشكلة التخلف، وبالذات ما يرتبط بمعالجته لعلاقة الفرد بالمجتمع، وقد حذر من خطورة تقليد الغرب في قضية ما سُمي بتحرير المرأة.

أما جولن فإن ما تُرجم من كتاباته إلى العربية - وهو يساوي رُبع تراثه المكتوب بالتركية- لم أجد فيه معالجة مستفيضة لمشكلة المرأة، بل مجرد إشارات بسيطة.

---

(١) انظر: النور الخالد، ص٢٦٦.
(٢) نفسه، ص٢٦١.
(٣) انظر: نفس المصدر، ص٢٤٦.
(٤) نفسه، ص١٣٩-١٤٠.

سادساً: دائرة الاستدلال والاستدعاء:

في معالجة المفكرين لقضايا التخلف والنهوض الحضاري نجدهما يُكثران من استدعاء النماذج والتجارب المؤيدة لكلامهما، ويكثفان من الاستدلال بأقوال العلماء والحكماء والزعماء والفلاسفة.

ومع وجود قائمة طويلة عند الرجلين تضم رموزاً من مختلف الديانات والحضارات، إلا أن القارئ يستطيع ببساطة ملاحظة أن أكثر أسماء ابن نبي هي لأعلام أجانب يتوزعون بين مختلف التخصصات العلمية والفلسفية، مثل: أرنست رينان، بلزاك، بوسييه، ديكارت، بيسمارك، جون ديوي، داروين، سبينوزا، سقراط، أفلاطون، أرسطو، لامارتين، فيكتور هوجو، فولتير، ماركس، إنجلز، نيتشة، اينشتين، ماوتسي تونج، هتلر، فرويد، جوستاف لوبون، أرنولد توينبي، ديستويفسكي، طاغور، تولستوي.. والقائمة طويلة.

ونلاحظ تنوع القائمة بين الفلاسفة والأدباء والعلماء والزعماء والمؤرخين والمربين والروائيين، لكن معظم الأسماء لأعلام من أوربا، ولاسيما من فرنسا، وهي الدولة التي احتلت الجزائر، مما يشير إلى أن مالك يفرق بين الوجه الحضاري والوجه الاستعماري للغرب!

وفي هذا المضمار درس أحد الباحثين[1] «الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري» من خلال أنموذج مالك بن نبي، فكان مما توصل إليه أن ابن نبي

---

(١) هو الباحث الجزائري بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري.. أنموذج مالك بن نبي، سلسلة كتب الأمة، رقم٧٣، ط١ (الدوحة: وزارة الأوقاف القطرية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ص٢١٤.

يرى أن «دراسة التجارب الحضارية أمر مهم، في سبيل البحث عن حل للأزمة الحضارية للعالم الإسلامي..».

وفي مقابل إكثار مالك من الاستدلال بوقائع ومقولات وأسماء غربية، أكثر جولن من استدعاء وقائع والاستدلال بأسماء تراثية إسلامية، ولاسيما: تركية وعربية وفارسية، وبالذات في مجال التصوف. وأعتقد أن السبب يعود إلى ظهور موجات في تركيا حاولت إحداث قطيعة مع التراث، فحاول أن يعيد الاعتبار لهذا التراث ورموزه وأساطينه.

سابعاً: طبيعة اللغة المستخدمة في الكتابة:

استخدم ابن نبي لغة فكرية منضبطة، واستفاد من الأسلوب العلمي في الكتابة بما يشتمل عليه من وضوح ودقة من جهة، ومن جفاف ومحدودية من ناحية أخرى. ونجح بجانب ذلك في ابتكار مصطلحات كثيرة، بعضها وجد رواجاً في عالم الفكر الإسلامي المعاصر، مثل مصطلح (القابلية للاستعمار).

أما لغة جولن فهي لغة أدبية راقية، مليئة بالصور والتشبيهات الجميلة والمصطلحات العذبة، وامتلك قاموساً ثرياً ومعجماً غنياً، ولغزارة المصطلحات التي ابتدعها اقترح بعض الباحثين إيجاد قاموس لها.

وقد تفوق بالذات في قدرته الفائقة على النحت اللغوي وإبداع الصور والاستعارات والتشبيهات، واجتهد في إحياء كثير من المفردات العثمانية التي كادت أن تموت في اللغة التركية بعد أن كُتبت بالحروف اللاتينية.

غير أن الواقع يقول: إن اللغة الأدبية المحلّقة في سماء الإبداع بقدر ما تكون نقطة قوة لأصحابها، يمكن أن تصبح نقطة ضعف في بعض الظروف، لأنها تحتمل العديد من التأويلات والتفسيرات، كما حدث لأسلوب سيد قطب - رحمه الله - الكتابي، الذي أسيء فهمه من قبل كثيرين، وبسبب ذلك قُوِّل ما لم يقل، ونُسبت له انحرافات عدة، وألصقت به عدد من التهم بدون أي سند برهاني، فقط اعتماداً على تلك القراءات العوراء لكتاباته الجميلة!

وربما كان أحد أسباب نبوغ جولن الكتابي إتقانه لعدد من اللغات، بينما أتقن مالك الفرنسية فقط بجانب لغته الأم التي لم يكتب بها إلا القليل من كتبه، بعد أن أتقنها في القاهرة سنة ١٩٥٦م، وقبلها كانت عربيته قد خارت أمام مطارق اللغة الفرنسية وكادت أن تموت.

أما جولن فقد كان شديد الاعتزاز بلغته التركية، التي كتب بها سائر كتبه، وأعاد لها شبابها، وأحيا ما اندثر من مفرداتها وأساليبها، حتى أصبح أحد أساطينها في هذا العصر، بل أدى انتشار كتبه وتلاميذه من «أبناء الخدمة» وتجّارها في شتى أوطان العالم، إلى إيجاد دافعية عند الآلاف من الناس لتعلمها.

الخاتمة

برز من خلال هذا البحث مدى تعملق مالك بن نبي وفتح الله جولن في ميدان صناعة الحياة، وإيجاد المعادلات ذات الجناحين المتوازنين والقادرين على الإقلاع بالأمة نحو سماء الحضارة، فقد غاصا بمهارة في أعماق الفكر الإسلامي والإنساني، وأجادا تشريح الواقع: بحثاً عن العوائق، ووصفاً لعوامل النهوض، وتركيباً لمعادلات العروج الحضاري، ثم ارتفعا بهذه القضية الجوهرية من قاع الاهتمامات إلى أعلاها، وارتفعا بدورهما معها، ليزدادا تعملقاً، حتى بلغا ذروة سنام الفكر الإسلامي المعاصر!

لقد اهتم البحث بدراسة هذه القضية، من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: سجَّل أهم المحطات في حياة هذين العملاقين، وبالذات ما ساهم منها في تشكيل شخصيتيهما الفاعلتين، وأبرَزَ - أي المبحث - الخطوط المشتركة في حياتيهما، رغم جملة الاختلافات الموضوعية والذاتية بينهما، فقد تشابها في محطات عدة، أهمها: دور الأسرة في التربية، دور القرآن في صياغة شخصيتيهما، التزام طريق التوازن منذ الصغر، الترقي الدائم عبر التعلم الذاتي، التحلي بالجدية، التأثر بمجددي عصريهما، الوظيفة الحكومية ومحطة «اللاسلكي»، تشابه خارطة الإنتاج الفكري.

في المبحث الثاني: حاول الباحث الغوص في الإنتاج الفكري لمالك بن نبي، فرأى إبداعاً منقطع النظير في صياغة معادلات الإقلاع الحضاري، ووجد أنها تتركز في ثماني معادلات، من الضروري توازنها لتحقيق الإقلاع المطلوب:

- في قراءة (عوامل السقوط والنهوض): لابد من إدراك التشابك بين العوامل الداخلية والخارجية، وإن كانت العوامل الداخلية هي الأُولى في الترتيب والأهم في الفاعلية والأَوْلى بالاهتمام.

- في صياغة (رؤية النهوض): لابد من المعادلة بين الأصالة والمعاصرة، بحيث يحتل كل منهما ما يستحق من الاهتمام والرعاية دون تناقض أو تضاد بينهما.

- في إعداد (وقود النهوض): لابد من الجمع المتناغم بين المنهج المنضبط والمفردات الثرية الفاعلة، أو بين الكيف والكمِّ، بحيث يتضافرا ولا يتنافرا.

- في تجهيز (مادة النهوض): لابد من الجمع المنسجم بين الواجبات والحقوق، بحيث يتعاون الطرفان في تركيب المادة اللازمة لتحقيق النهوض.

- في تربية (جنود النهوض): من الضروري جداً الجمع بين التربية الفكرية والتعبئة الروحية، بين الرشد العقلي والإخلاص القلبي، بين بوصلة الفكر وطاقة المشاعر الروحية.

- في تجهيز (طائرة النهوض): لابد من الجمع المتوازن بين جناحي الفرد والمجتمع، بحيث تُطلق ملكات الفرد المتميز، دون القضاء على استعدادات تآلفه مع المجتمع، ويتم إعداده كوحدة اجتماعية دون مساس بفاعليته الفردية وتميزه الذاتي.

- في بناء (حركة النهوض): لابد من استحضار معادلة الأفكار والأشخاص، بحيث تتكاملا ولا تتآكلا.

- في إقامة (جسم النهوض): من المهم جداً الموائمة بين المضامين والأشكال، بحيث يتعاونا ولا يتباينا.

وفي المبحث الثالث: وَلَجَ الباحث إلى الآفاق الرحيبة لفتح الله جولن المفكر والداعية والمصلح الاجتماعي، فوجده كيميائياً نادراً، حيث مزج بين سائر الثنائيات في معامل فكره وتجاربه، فركّب المعادلات المرغوبة وكوّن الموازنات المطلوبة، لتحقيق العروج الحضاري لهذه الأمة، وهي ثمان موازنات:

- الموازنة في صياغة (رؤية العروج) بين الشريعتين القرآنية والفطرية، أي بين أصول القرآن وبين قوانين الحياة وسنن الأكوان.

- الموازنة في رسم (خارطة العروج) بين الثوابت التي ينبغي الانطلاق منها، والاستظلال تحت رايتها، والمحافظة عليها، وبين المتغيرات التي ينبغي تجديدها، وإكسابها أكبر قدر من المرونة والتطور، حتى تستطيع الاستجابة للتحديات الجديدة، واستيعاب الاختلافات والفروق الكثيرة بين الأفراد والمجتمعات.

- الموازنة في تحديد (عوامل العروج) بين العوامل الداخلية والخارجية، بحيث يكون العروج ذاتياً، لكنه لا يُغفل دور العوامل الخارجية، فيتجنب العوائق، ويقتبس من سائر التجارب كل ما يحقق المقاصد والمصالح، أو ما يدرأ المفاسد والمضار.

- الموازنة في تفعيل (طاقة العروج) بين الانفعالات التي تحتاجها الروح، وبين الفاعليات التي يحتاجها العقل، أو بين المشاعر القلبية والمشاعل العقلية وكذا بين التعبئة الروحية والتربية الجسمية.

- الموازنة في رسم (استراتيجية العروج) بين العيش في الأرض واستشراف السماء، كالجمع بين ماهو كائن وما يجب أن يكون، أو بين الواقع والمثال.

- الموازنة في ارتياد (شُعَب العروج) بين المسالك الدنيوية والمشاعر الأخروية، والجمع بين حقوق الإنسان وحقوق الله، أو بين العبادات المتعدية (العمل الصالح) والعبادات اللازمة (الإيمان والشعائر الخالصة)، إذ أن الطريق إلى فردوس الآخرة هو إيجاد فردوس الدنيا.

- الموازنة في تحريك (عجلة الروح) بين الذات والخارج، بحيث يكون الانطلاق دائماً من الذات، فإن (صلاح) الذات هو الطريق لـ(إصلاح) الآخرين.

- الموازنة في توزيع (ضرائب العروج وثماره) بين الأقوياء والضعفاء، بحيث تتحقق قيمة العدل داخل المجتمع المسلم سواء في

مدخلات النهوض أو في مخرجاته، حتى يتم إطلاق العنان لفاعليات جميع مكوِّنات المجتمع وأفراده.

أما في المبحث الرابع: فقد عقد الباحث عدداً من المقاربات والمقارنات بين المفكرَيْن الكبيرَيْن، في مجال العروج الحضاري، والمعادلات التي ركَّبها كل منهما لتحقيق هذا العروج، وقد تشكَّلت هذه المقارنات على شكل مثلث، بأضلاعه الثلاثة:

- في الضلع الأول من المقارنة برزت عدد من الرؤى المتشابهة إلى حد يقترب من التطابق بين الرجلين، ولاسيما في سبع نقاط هي: مركزية الإنسان في النهوض الحضاري، التوازن بين عوامل (الغيب) وعوامل (الشهادة)، التفريق الواضح بين الدين والتدين، ذاتية النهوض الحضاري، العناية الفائقة بالفعالية، الجمع بين تشخيص (الداء) وتوصيف (الدواء)، الانطلاق من المحلية إلى العالمية.

- وفي الضلع الثاني من هذا المثلث أسفرت المقارنة عن وجود عدد من الرؤى المتقاربة إلى حد التشابه، وعناوين هذه الرؤى سبعة أيضاً وهي: حصان الفكر هو الذي يقود عربة الحضارة، التضافر الوثيق بين الاستعمار والقابلية للاستعمار، الاستفادة من العلوم النافعة والتجارب الناجحة، المزاوجة بين الدنيا والآخرة، الاهتمام بتكوين الحس الجمعي، التشابك بين المعاني والمباني، العناية بسائر قيم النهوض.

- أما في الضلع الثالث والأخير من مثلث المقارنة، فقد بانت الرؤى المتنوعة عند المفكرَين إلى حد التمايز، وقد أدى هذا التنوع إلى إبراز الشخصية المتميزة لكلٍ منهما، وتدور عناوينه حول سبع نقاط كذلك، وهي: العلاقة بين الأفكار والأفعال، مجال تركيز طاقة الإصلاح، العلاقة مع بعض مكونات الآخر، الموقف من التصوف، الموقف من مشكلة المرأة، دائرة الاستدلال والاستدعاء، طبيعة اللغة المستخدمة في الكتابة.

ومهما يكن ما اتفق عليه ابن نبي وجولن وما اختلفا حوله، فقد صارا من كبار فلاسفة الحضارة الإسلامية المعاصرين، وأجادا صياغة معادلات الإقلاع وموازنات العروج التي تحتاجها الأمة لنهوضها الحضاري المأمول، وهي أشد ما تكون حاجةً إليها في هذه الظروف التي انتفضت فيها شعوب عربية عديدة ضد أوجاعها، متدثرة بالعواطف ومتسلحة بالانفعالات التي تجعل أصحابها يعرفون ما لا يريدون أكثر من معرفة ما يريدون، وإن تجسيد هذه الانفعالات في فعاليات بانية للإنسان وصانعة للحياة بحاجة إلى ضبط الثنائيات المتقابلة، بحيث تتآخى ولا تختلّ، وتتعاون ولا تتباين، وتتكامل ولا تتآكل.

وهذا ما فعله هذان المفكران العظيمان، اللذان امتلكا عقلين موسوعيين، وميزانين دقيقين، مما منحهما قدرة هائلة على التحكم بتلك الثنائيات، بل وصاغا منها معادلات الإقلاع الحضاري المنشود.

وآخر كتابتنا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* تقديم: الأستاذ عمر عبيد حسنه ....
٣١	* المقدمة: ....
٣٧	* المبحث الأول: محطات في حياة ابن نبي وجولن ....
٣٧	– المطلب الأول: محطات في حياة مالك بن نبي: ....
٤٣	– المطلب الثاني: محطات في حياة فتح الله جولن: ....
٥١	– المطلب الثالث: أهم الخطوط المشتركة في حياة المفكرين: ....
٥٩	* المبحث الثاني: معادلات الإقلاع الحضاري عند مالك بن نبي ....
	– معادلة:
٦٠	١– (عوامل السقوط والنهوض) بين الداخل والخارج ....
٦٥	٢– (رؤية النهوض) بين الأصالة والمعاصرة ....
٦٩	٣– (وقود النهوض) بين المنهج والمفردات ....
٧٢	٤– (مادة النهوض) بين الواجبات والحقوق ....
٧٦	٥– (جنود النهوض) بين الفكر والروح ....
٨٣	٦– (طائرة النهوض) بين جناحي الفرد والمجتمع ....
٨٩	٧– (حركة النهوض) بين الأفكار والأشخاص ....
٩٧	٨– معادلة (جسم النهوض) بين المضامين والأشكال ....

الموضوع	الصفحة
* **المبحث الثالث: موازنات العروج الحضاري عند فتح الله جولن**	**١٠٣**
- **الموازنة في:**	
١- صياغة (رؤية العروج) بين الشريعتين القرآنية والفطرية	**١٠٤**
٢- رسم (خارطة العروج) بين الثوابت والمتغيرات	**١١٧**
٣- تحديد (عوامل العروج) بين الداخلية والخارجية	**١٢٩**
٤- تفعيل (طاقة العروج) بين الانفعال والفاعلية	**١٤٠**
٥- رسم (استراتيجية العروج) بين العيش في الأرض واستشراف السماء	**١٥٤**
٦- ارتياد (شُعَب العروج) بين الدنيوية والأخروية	**١٧٠**
٧- تحريك (عجلة العروج) بين الذات والخارج	**١٨١**
٨- توزيع (ضرائب العروج وثماره) بين الأقوياء والضعفاء	**١٩١**
* **المبحث الرابع: النهوض الحضاري عند ابن نبي وجولن: مقاربات ومقارنات**	**١٩٩**
- المطلب الأول: الرؤى المتشابهة إلى حد التطابق	**١٩٩**
- المطلب الثاني: الرؤى المتقاربة إلى حد التشابه	**٢٠٨**
- المطلب الثالث: الرؤى المتنوعة إلى حد التمايز	**٢١٦**
* **الخاتمة**	**٢٢٩**
* **الفهرس**	**٢٣٥**

وكــــــلاء التـــوزيــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــــــر	دار الثقافــــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحــــرين	مكتبـــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويــــــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب:١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب:٣٣٧١ –عمان١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الــــــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤– صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦– الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــــع والترجمــــــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــــــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦– الرباط
الجزائـــــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلتــــرا	دار الرعايـــــة الإســـــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس	دينار واحد	
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٥٠)	قرشاً
عمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٦)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
الجزائر	(١٢٠)	ديناراً
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء، تطرح موضوعها لعام ٢٠١٢م

« فقه التغيير وبناء الأمة الوسط »

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٣م

• **مدخل:**

مفهوم الأمة؛ مفهوم التغيير؛ تعريف الأمة الوسط؛ الوظيفة الحضارية للأمة الوسط؛ أبعاد الشهود الحضاري (الشهادة على الناس وهدايتهم إلى الخير)..

• **المحاور:**

- **عوامل تشكيل الأمم.**
- **سنة التغيير.**
- **فقه تغيير المنكر.**
- **إعادة البناء ومرتكزات النهوض.**
- **رؤية مستقبلية لمعاودة بناء الأمة الوسط.**

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islam.gov.qa